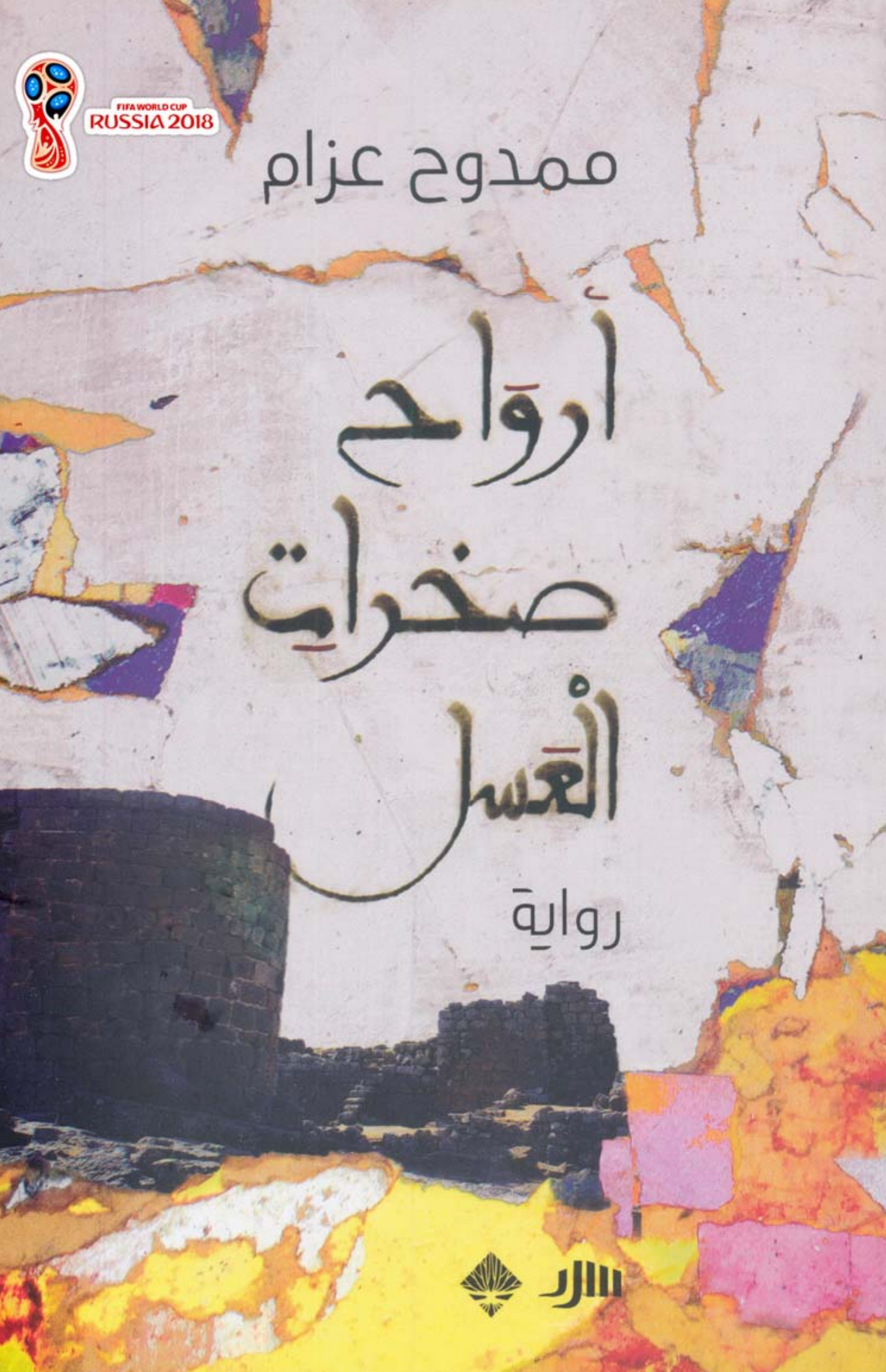

FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018
ممدوح عزام
أرواح صخرات العسل
رواية

ممدوح عزّام

أرواح صخرات العسل

رواية

أرواح صخرات العسل

أرواح صخرات العسل - رواية
تأليف: ممدوح عزّام

تصميم الغلاف: تمّام عزّام
ISBN: 5 - 42 - 540 - 9933 - 978
الطبعة الأولى: 2018



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH



دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

إلى آرام

1

كان نائل الجوف هو الذي حكى لي عن موت الأصدقاء الثلاثة. قال إنه لا يعرف كيف يمكن أن يكتب حكايتهم، ولا يرغب في ذلك. وكان همّه أن يحرّضني على محاولة اكتشاف منبع تلك النبوءة الغريبة التي نطق بها فتىً في الرابعة عشرة من عمره، هو عابد، وظلّ عقب تلك اللحظة يلحق بها، ويتابع المشي نحوها، أو يهرب منها، ويحاول الفكاك منها، بدأبٍ قدَريٍّ يشبه الشغف. هل يمكن أن يكون المرء شغوفاً بساعة موته؟

ما نبّهني وأثار فضولي هو أن أحد أسباب لجوئه إليّ، لسرد تلك الحكاية، هو حيرته الحرجة تجاه خطأ غريب في نبوءة الموت، من جهة، وحيرة أخرى تائهة تجاه أسباب لجوء ذلك الراحل إلى خياره، إذ بدا لي أن الرجل كان مؤمناً، بطريقة ما، بالحُدوس التي قد يراها بعض البشر، ومنهم عابد ذاته: هل هي الحرب التي اندلعت أخيراً في البلد؟ أو هو محسن الجوف؟ أم غياب الحب والحنان؟ أم تاريخ البلدة والبلاد؟ أم القدر الأخرق؟

حين ذهبت لزيارة نائل الجوف في المنارة، كان قد مضى عام على موت عابد، ولأنه يسكن في تلّ القواسم فقد حذّرني قبل أن أصل إلى بيته،

من أن الطريق أفعى. غير أنه لم يُشر إلى أني سوف أصادف في طريقي إلى المنارة، على جانبي الطريق، أضرحة لأكثر من عشرة شبّان (كانت صورهم معلّقة على المسلّات الأسمنتية التي ترتفع أكثر من ثلاثة أمتار فوق كل ضريح). وقد لاحظت، دون تدبّر مسبق، اسم خالد سيف الدين، وحامد أبو الليل، وهما الصديقان اللذان كان موتهما سبباً في أن يتعجّل عابد الجوف الرحيل، حسب الرواية التي سأسمعها من أحمد الشايب، الصديق غير الملتزم للشبّان الثلاثة.

كانت الطريق إلى منزل نائل الجوف أفعى، كما وصفها، وهي الطريق ذاتها التي عبرها عابد أيضاً في أثناء حياته، ضيّقة ومتعرّجة، ومن الصعب أن ترى فيها أكثر من المسافة التي تنتهي بالمنعطف القادم. كانت بيوت حجرية ذات حيطان عالية تجاور الطريق، وقد أُغلقت جميعها ببوّابات ضخمة من خشب السنديان، حيث يمكن أن نشرف من هناك على منزل عابد الجوف.

في بيت نائل رأيت صورة لعابد، كان وجهه طفولياً تماماً، ولديه ندبة صغيرة أسفل ذقنه. وكان ينظر إلى الأمام بعينين حادّتين متفحّصتين فقط، ولكنّ الصورة لا تدلّ على أنّهما كانتا تخزنان تلك القوة الجبّارة التي كانت تجبر أيّ شخص على غضّ البصر، إذا ما تطلّع إليه، والتقتْ عيناهما معاً، بحسب التوضيحات التي قدّمها لي نائل الجوف في ما بعد.

قال نائل إن عابد، في طفولته، لم يكن يمضي إلى البلدة من تلك الطريق التي مررت بها، بل يعبر حواكير آل الجوف، واحدةً بعد أخرى، مبتعداً عن الأذى الذي يمكن أن يتسبّب به أولاد أو شبّان آل الخرّوب الذين يحتلّون السفح كلّه. وبسبب الطريق، والأخطار المحتملة هناك، أنشأ عابد منذ تلك الأيام ما يشبه الحلف مع خالد سيف الدين وحامد أبو الليل.

تطوّر في ما بعد ليصبح صداقة لم تعرف المنارة مثيلاً لها قطّ من قبل، ومن المستبعد، كما قال نائل الجوف، أن تستطيع اختراع واحدة مثلها في المستقبل. وأوضح أن تلك الصداقة قد ضمنت له الطريق من جديد، حين باتت قوة حاضرة في المنارة. بينما قال أحمد الشايب، وهو الشاب الوحيد في المنارة الذي استطاع أن ينشئ صداقة متصدّعة مع الشبان الثلاثة، إن ما أعاده إلى طريق التل الثعباني أمران: هند الخرّوب، وقوته الجسدية التي ورثها من أبيه. لكن اختصار تلك المسافة الذي منح عابد أسبقية الوصول المبكر إلى البيت قبل أخويه مثلاً، حطّم أو مزّق خيوط المودّة بينه وبين أبيه. هذا أمر لا يعرفه أحد من أبناء المنارة، من قبل، وقال نائل إن ذلك الوضع يحيّره، وليس لديه أيّ جوابٍ عنه، إذ كيف تكون مسافة الوصول إلى البيت أساساً للقطيعة مع ساكنيه؟

كان محسن الجوف، والد عابد، واحداً من عتاة المنارة، وربما أحد عتاة المَقرن كلّه. ومن الصعب على أيّ شخص أن يلوي ذراعه، أو فكره. وقد منحته القوة الجسدية طباع الضبع. لا يلعب ولا يلاعب أحداً. وقد مرّر طباعه على أولاده أيضاً، وربما كان نصيب عابد زائداً عن الحدّ، لسبب لم يكن نائل الجوف قادراً على معرفته، أو التكهّن به في الحد الأدنى. ويقدّر نائل أن علاقة الاثنين فسدت منذ طفولة عابد، وأن التاريخ، الذي يبدو أحياناً في إهاب المصادفة، هو الذي وضعهما في ذلك العطب الذي حكم حياتهما كليهما حتى الممات. هذا هو رأي نائل عن يوم العطلة المفاجئ الذي جعل إدارة مدرسة المنارة تقرّر صرف الطلاب بعد ساعة واحدة من بدء الدوام. أُخرجوا مسرعين، وأُمروا أن يذهبوا إلى بيوتهم حالاً. أما التاريخ فقد ظهر في صورة استنفارٍ نجم عن بدء القوات الأمريكية الهجوم على العراق. لا يعرف نائل لماذا صُرف طلاب المدارس هنا، وقد شاءت المصادفات أن تكون حليمة، أمُّ حامد،

في جوار المدرسة، فأخذته من يده، ومضت إلى البيت، فيما ارتأى خالد أن ينصرف كلٌّ منهما إلى بيته أيضاً.

في ذلك اليوم تسلّق عابد المنحدر الصخري، ومرق من الحواكير. كان هذا يعني، بحسب ما رأيت أيضاً في جغرافيا المكان، أن في وسعه أن ينزلق إلى بيته دون أن يشعر أحد في الداخل أن البوابة الكبيرة فُتحت. كان المنزل يغرق في ظلال الحرّ الخريفي الذي يتوسّط شهرَي تشرين الأول وتشرين الثاني. إنه يقين فلاحين تؤكّده الطبيعة كل عام منذ أن تلقّى أول وعي: بين التشرينين صيف ثانٍ. وكانت الحيوانات مسترخية تحت شجرة الكينا: حمار ونعجة وخمس دجاجات، وباب الغرفة الوسطى موارباً بخفر. دفعه ببوز الحذاء، ودخل. هناك رأى تلك الطيز السمينة المشعرة التي كانت تدكّ الفرج المفتوح المعتم برأس قضيب منتصب مشبوب. كان لتلك الصلة المجنونة صوتٌ يشبه صوت كلب يلعق ماء. وفي الأعلى كان أبوه يحمحم كحصان، فيما كانت خالته تئنّ أنيناً خفيفاً يشبه نغمة ربابة، وهي تستلقي تحته مستسلمة ضعيفة منهارة مغلوبة. «ولَكْ!» صرخ به الصوت الخشن الموبّخ الحانق من عليائه المتسيّدة على الجسد الضعيف. ارتدّ مسرعاً، وفرّ من المنزل كلّه، نازلاً عبر الحواكير، وهو يبكي. كان يظنّ أن خالته تموت هناك.

قال لي نائل الجوف إن ذلك المشهد المباغت، بما فيه من صوت وحركة وألوان جسدين، وكتلة الجماع الغريبة، وصرخة التقريع، وشهقات اللذة، وما تبعها من أفعال، هي التي ظلت تسكن خيالات عابد في ما بعد. وهي التي سوف تدفعه في مسار الحياة الذي سار فيه. ففي ذلك اليوم مثلاً تعرّف إلى صخرات العسل، وهي المكان الذي سوف يكون مهداً لصداقته مع حامد وخالد، حين اضطرّ إلى أن يمضي بعيداً عن البيت، هارباً من المباغتة الجديدة التي داهمته. تجوَّل بين صخورها، وتفرّج على

أعشاشها، ودورات الحجارة وتشكيلات النباتات البرية والصخور، حيث يمكن أن تحتضن صخرةٌ نبتةً، أو تخفي نبتةٌ عملاقة صخرةً ساهمة. رأى طيور الحجل، ورأى الزغاليل الصغيرة وهي تدرج خلف أمّاتها. فأسند رأسه إلى الصخرة الكبيرة، وقال لنفسه: «رح موت هون شي يوم». لماذا؟ قال نائل إن العبارة غير مفهومة بالنسبة إليه، وهو حائر فيما إذا كانت تكهّناً، أو أمنية. ربما كان رعبه ممّا يحدث لخالته هو الذي رشّح هذه العبارة كي تكون حاضرة في ذهنه.

كانت خالته هي الشخص الوحيد القادر على كبح غضب محسن وإطفائه حين يكون هائجاً، وكانت في المرّات التي تأتي فيها لزيارتهم، تضع عابد خلفها، حين يريد أبوه أن يضربه، وتقف مثل الطود أمام محسن. يرتدّ، وينكص طريّاً وليّناً أمامها هناك. أما في غيابها فقد كان محسن الجوف الغاضب دائماً يفرغ شحناته المتفجرة في جسد الأم. فأول شظيّة يمكن أن تفلت من الانفجار تصيب الأم. وسوف يرميها أولاً برزمة من الشتائم التي تطول أهلها. يساعده في ذلك أنهم بعيدون في السماقيات، وأن أقوى رجل من بينهم، يمكن طيُّه تحت إبط محسن الجوف، أو إبعاده مثل ريشة، بالنفخ على قامته الرقيقة. «ما بحبّ أخوالي». كان يقول لرفيقيه، لأنهم يسمعون أنه يشتمهم دون أن يعترضوا. وما يصعب عليه أكثر هو أن صمت الأم، أو تجاهل الشتائم، يمكن أن يفسّر لدى أبيه على أنه تذمّر، أو سخرية. وهو ما يستدعي استخدام ما يمكن أن تطوله يده من الأشياء القريبة: وسادة، ملعقة منسيّة، كتاب مدرسيّ، قلم حبر، مقصّ. وحين تتمكّن من تفادي الضربات المتتالية، وهي تفعل ذلك بمهارة استثنائية تثير إعجابه، وتجعله يضحك، برفقة أخيه، خلف الباب الموارب، حيث يرغمها على الجلوس، فإن الوالد يعتبر تلك المهارات نوعاً من التمرّد، شكلاً من الضجر، اعتراضاً على السلطة، وقوفاً في وجه الكلمة القوية الأخيرة. وهذا يجعله

هائجاً، فترتفع نبرة صوته، وتصبح الأم في هذه اللحظة قحبة بلا شرف، ومنيوكة تنام مع الرجال في أيّ مزبلة. وهي في هذه المرحلة من الشجار سوف تواجه اتهاماته بسعار من النظرات المعبّأة بالضغينة، أو قد تقول: «يا مسكين!»، ساخرةً من تلك الأكاذيب الرديئة، إلى أن تأتي لحظة الحسم الأخيرة، وهي تتجمّع في هجومٍ مباغت عنيف يشنّه الأب الضخم المثقل باللحم، على الأم الضئيلة. ما لم يفهمه أبداً هو: لمَ لا تهرب؟ لمَ تبقى داخل تلك الغرفة تتحمّل ضرباته وركلاته المجنونة؟ لم لا تطعنه بسكّين في خاصرته السمينة التي يتراقص لحم البطن فوقها مثل إلية خروف؟ حينئذٍ يبكي عابد الجوف. يدفن رأسه بين ركبتيه المطويّتين، ويبكي، وهو يستند إلى الحائط الحجري، قرب الباب الخشبي الضخم الذي يأتي من ورائه صخب الأب القاتل، وأنين الأم المضروبة.

حين عاد كان يتوقع أن يرى حاميَتَه ميتة. غير أنها كانت مثل حبّة البندورة، كما قال لحامد وخالد في ما بعد. امتلأ خدّاها بحمرة قانية حين رأته، وابتسمت له ابتسامة خجولة، وغمزته بعين وهّاجة متألقة، وهي تصنع طبقاً من القشّ، بينما كان محسن يراقبه حاقداً. وقال نائل إن محسن كان يظن أن الولد، الذي كان حينئذٍ في الصف الخامس، قد داهم البيت خلسة، بسبب فساد أخلاقه. ولم يستطع أن يتكيّف مع فكرة أن يتمكّن أحد أبنائه من رؤيته وهو ينفذ فعل المضاجعة، فأخذه من يده، وقاده إلى الغرفة الداخلية وبدأ يضربه بعصا الخيزران، وهو حائر فيما إذا كان عليه أن يأمره بالنسيان، أم يزجره بسبب التسلّل المريب. لم يكن في وسعه أن يتملّص من يدي محسن القويتين، فيما لم تتحرك خالته للدفاع عنه تلك المرّة. حينئذٍ تذكّر ما كانت أمُّه تفعل لردع هجمات محسن حين يضربها، إذ كانت تغمض عينيها، وتتوقف عن التنفس، فيما تنهال عصا الخيزران على جسدها. وهكذا فقد أغمض عينيه، لاحقاً بها، وتوقف عن التنفس: بان

مرج أخضر تسرح فيه أغنام وماعز، قرب نُهير رقيق يعبر سهلاً من الحصى. في المرة الثانية ظهرت فرس بيضاء حملته إلى صخرات بعيدة. في الثالثة كان يلعب بكرة حمراء في بستان القصاص الأجرد. وفي السنوات التالية التي لم تتوقف العصا فيها عن ضرب راحتيه، ظل يجرّب هذه الطريقة بلا توقّف، ولم يتردّد، في كل مرة، في إغماض عينيه، والرحيل إلى سهول العالم ووديانه وجباله.

صمتُ عابد هيّج غضب محسن أيضاً، وكان ينوي أن يحطم الولد في تلك اللحظة. ويرجّح نائل أن سبب توقّف الوالد عن ضربه هو مجيء أولئك الزوار إلى بيتهم. وفيما كان عابد يعِد نفسه بالحقد الأبدي على أبيه، استطاع أن يلمح من بين الرجال القادمين شخصَ جميل الصخري.

وقال لي نائل الجوف إن وجود ذلك الرجل الغامض العجيب، الذي مسح رأسه بيده الدافئة، جعل عابد يدرك أن الله أرسله إلى هنا، لا لينقذه بحضوره، إذ لا يمكن لأحد أن يُضرَب في حضرته أبداً دون أن يتعرّض للتوبيخ، بل لأن وجوده وحده يحرّك في أعماقه فردوساً من البهجة. ولهذا فقد شعر بالطمأنينة في حضوره، ولولا حياؤه من أن يكتشف الرجل فعلته البلهاء، لتقدّم نحوه وقال له: «أنا بحبَّك». لا يمكن قطعاً. ولكن الممكن مثلاً أن يتمنّى في الليل، أو يحلم، أن يكون جميل الصخري أباه الحقيقي. وأن يكون هذا القاتل المزروع في البيت مجرّد لصٍّ اختطفه في الليل، وأحضره إلى هنا. بينما يحضِّر جميل الصخري الخطّة لاستعادته. المؤسف أنه حين يستيقظ، سوف تظهر مشكلة جديدة هي عجزه عن استبدال أمه. ولهذا لم يقل شيئاً عن الحلم لخالد وحامد. واحتفظ بجميل الصخري في عبّه، مشترطاً على نفسه ألا يدخل البيت إلا بعد أن يعلن عن حضوره، وألا يبول في فراشه أبداً، وهي مشكلة كانت تجرّ عليه عقوبات مشتركة من أبيه وأمه، كي يستطيع أن يعود إليه نظيفاً مثل وردة، حين يعلم

من هي المرأة التي ولدته حقاً غير هذه التي تخبر الناس من حولها عن أيّ عمل يقوم به. وسوف يمضي شبابه في ما بعد، وهو يبحث عن الصخري، كما قال لي نائل الجوف.

وفي اليوم التالي قال لحامد إنه يتمنى أن تكون حليمة أمّه، بعد أن عرف من هو أبوه. وهو كلام قابله حامد في ذلك اليوم بلا حماسة. قال نائل إن حامد نفسه لم يكن يعرف طعم الأب تقريباً. فمنذ أن ولد، حتى تلك الأيام، كان أبوه يستمرّ في السفر، والغياب، والزيارات القصيرة، والعودة من جديد. وفي كل عام يأتي به، يترك وراءه ذكرى لحاف يصعد ويهبط، وصوت أمّه تقول له: «خلص. عجّل!».

صار يكره هذا الرجل الذي لا يتوقف عن الخضّ الليلي المتواصل لأمّه. ففي كل ليلة كان يستيقظ من نومه على وقع تلك الحركات التي يظهر فيها اللحاف وهو يتقلّب. في البداية يحاول أن يسدّ أذنيه، كي لا يسمع ضجر أمّه وقلقها. يدفن رأسه في الوسادة، ويضغط اللحاف فوق وجهه كلّه، ولكنّه يشعر أنها تتغلغل في الأرض من تحته. يتسرّب ذلك الإيقاع المضبوط على همس داخلي غريب، إلى كلّ مكان في الغرفة. وعندما يكاد يختنق، يخرج رأسه قطعة بعد أخرى، يأخذ نفَساً من الهواء، ثم يعود ليتدثّر بلحافه ثانية. غير أن ذلك التكرار التافه المملّ، وهذا التعذيب الغريب الذي بدا أنه لا يترك أثراً في وضع أمه، بدّد مشاعره. وبدل الحزن أو الغضب، تسللت رغبة خفيّة في الاستطلاع والمعرفة. وقال لرفيقيه، حين حدّثهما عابد عن حبّة البندورة، إن أمّه تبدو مثل تفاحة في النهار!

ولكن كلام حامد عن حليمة صدم عابد، كما قال لي نائل الجوف، اهتزّت إحدى القلاع التي كان يأمل أن تظل صامدة. وطول السنوات

الماضية، رغب دائماً في انتزاع صورة حليمة الضعيفة المستسلمة لأبي حامد من خياله. ولم تتبدّد هذه الرغبة إلا حين صار واحداً من أسرتها. وكانت حليمة هي التي شجّعته على المجيء إلى بيتها، هذا هو رأي نائل الجوف، بعد أن رأت آثار الضرب بعصا الخيزران على ظهره وكتفيه وذراعيه. وقال نائل إنها لم تكتفِ بذلك، بل واجهت محسن الجوف وسط فناء البيت، حين جاء ليرغمه على العودة إلى المنزل في المرة الأولى التي هرب فيها. لم تقل: «معلِش» أو «بسيطة» أو أيّ كلمة من كلمات المهادنة التي اعتاد أن يسمعها من أمه، بل وقفت هناك، وهي تحمل يد الهاون، وقالت لمحسن: «خطوة وحدة ورح أطبش راسك بهذا!». كان عابد يتلصّص على المشهد، وربما اتخذ قراره في اللجوء الدائم إلى بيت حليمة في تلك اللحظة. لهذا لم يصدّق كلمات حامد، وقد أثبت الزمن أنه كان على حقّ، فيما أضاف نائل الجوف هذا الموقف إلى سجلّ الطفولة الذي نجمت عنه القرارات. قال لي إن عابد آمنَ في تلك اللحظة أن حليمة هي أمه، ولم يأتِ الزمن القادم بما يخالف ذلك، وقد ظل يحوم حولها بلا توقف طول السنوات التالية، مثل فراشة، دون كلل من مجيء اليوم الذي سيأتي فيه إلى بيتها ويعيش هناك إلى النهاية. وحين رأيت حليمة كانت قد تلاشت تماماً من الصورة التي رسمها لي نائل عنها: سمراء ممتلئة، ولها غمّازتان في كلا خدّيها، وأسنان بيضاء وابتسامة ساحرة. في حين كانت حليمة التي رأيتها ناحلة مثل عود لوز، وقد احدودب ظهرها، ورقّت شفتاها، ولم تُبدِ أيَّ ملمح ينمّ عن تلك المرأة التي تشغل حكاية نائل.

أما خالته تماضر فكفّت عن أن تكون حاميتَه. انسحبت من الميدان بتؤدة وبلا ضجيج. وأخذت زياراتها إلى بيتهم تتباعد. وقد ترك هذا في نفسه شعوراً عميقاً بالهزيمة والضعف أمام محسن. لم يفهم سرّ غيابها، فيما كان قد نسي ما حدث في ذلك النهار. وأخذ يسأل أمّه عن ذلك

الغياب، ولا تقدّم له جواباً واحداً متشابهاً مع غيره في كلّ مرّة. وصارت تماضر تتحاشى النظر إليه حين تأتي، وقال نائل الجوف إنها لم تدافع عنه في المرّة التي ضربه فيها محسن، بعد معركته مع الشبّان الذين أرسلهم زيتون أبو طرّة لمعاقبته، وإن عابد قطع علاقته بها تقريباً منذ ذلك اليوم، في حين بدأت حليمة تأخذ مكانها بجدارة، وبلا تردّد. غير أنها تحوّلت إلى حنين، حنين إلى وجود حميم وحاضر في وجه القوّة الغاشمة التي تشاركهما البيت نفسه، قوة محسن الجوف. ولن يتمكّن من فهم الغياب الذي نفّذته على مراحل، إلى أن جاء الوقت الذي لم تعد تزور بيتهم فيه بالمرّة. وقال نائل إنها فرّت من القسوة التي كان محسن يدير بها شؤون بيته، ويبدو أنها لم تكن أكثر من فرجٍ طارئ بالنسبة إليه. ويرجّح أنها لم تنم معه سوى تلك المرة، وأنها علمت أنه استطاع أن يسلبها قوّتها الداخلية التي كانت تستخدمها لحماية عابد، ويبدو أن حزنها المتراكم نجم عن خسارة الحضور الذي كانت تتباهى به.

لكنه لن يستطيع أن يذهب إلى حليمة في تلك السن، فقد كان محسن لا يزال القوة الكبيرة المسيطرة في البيت وفي أرجاء المنارة أيضاً، وبمساعدة أكيدة من قِبل مدير المدرسة برهان العلمي الذي كان يعلن العداء لحليمة. ولم تكن سنّ عابد تمنحه القدرة على اتخاذ قرار يتعلق بمصيره. غير أن أحداً من الاثنين لن يستطيع انتزاع الفكرة من رأسه. وفي تعليق إضافي قال نائل إن مثال عابد يمكن تعميمه عن قوة الأفكار واستعصائها على إجراءات القمع.

في تلك الأيام اكتشف أن خالد سيف الدين كان يرغب أيضاً في تبديل الأب. قال خالد إن أباه سلّمه للمعلم في اليوم الأول للدراسة وهو يقول: «إلك اللحم وإلنا العظم!». وفي تلك الأيام صار يظن أن المعلم سوف يأخذ ذات يوم لحم فخذه للشواء، أو لطبخ الفاصولياء.

وبحسب نائل الجوف فقد كانت المدرسة بعبع الطفولة، لا بالنسبة إلى خالد وحده، بل بالنسبة إلى أجيال من الأولاد الذين دمّرتهم. وقال لي إن خالد صار يكرهها بسبب التهديدات التي ظل يتلقّاها منذ الصغر، حين كانت أمّه، أو أخته الكبيرة سُهى، وهي أخت كبيرة كثيراً إلى حدّ أنه لا يشعر أنها يمكن أن تكون أختاً، تردّدان: «سقى الله يوم تبدأ المدرسة». وقد خرّبت المرأتان تلك المباهج الصغيرة التي رافقت إجراءات التسجيل في الصف الأول: السفر إلى السويداء في سيارة عبدو من أجل الصورة الفوتوغرافية. تناول البوظة في لحظة كرمٍ أبوية لا تُنسى. التجول في الشوارع التي تخترقها سيارات ملوّنة. رؤية رجل يتحدث في الهاتف. فقد بدا له أنّ وراء هذا السعي المخزي لإرساله إلى المدرسة، خططاً جهنّمية غامضة بالتأكيد. إذ ماذا يوجد هناك؟ وإذا ما فكّر أن أخته سهى هي التي تقودها، فإن الموضوع صار يتطلب الحذر من ذلك البناء الأصفر المسوّر على أطراف البلدة.

وقد أراد أن يستفسر عن ذلك من زيتون أبو طرّة. ولكن ذلك الفتى لا يُعتمد عليه في أيّ مسألة؛ إذ كان عدد أسئلته أكثر من كمّ أجوبته، وكان أحدها يتطلب معلومات عن أخته سهى. وهو موضوع مريب بات يظنّ أن وراءه متطفلين آخرين، من طراز فاتح وناصر، أولاد سعيد أبو حجر القاطنين عند كعب التل. لقد رأى مشاوراتهم السرية، وإشاراتهم الملغزة تجاه بيتهم.

تلك الساعات كانت مرعبة، خاف فيها على سهى كثيراً، دون أن تكون لديه فكرة واحدة عن سبب الخوف. ثم أحسّ أنه أوقع نفسه في ورطة مقلقة. حين صرخت به: «خالد! ولاااه!». بعد لحظة من الإشارة التي أرسلها إليه زيتون كي يلاقيه عند بيادر السلمان.

وزاد إحساسه بالحصار، بسبب سهى التي كانت تراقب تحركاته مثل

بومة. وإذا ما قارن حركاتها، ورقابة عينيها الصقريّتين، بما يفعله المعلمون والعرفاء والوشاة في المدرسة، زاد يقينه، وهو يقين خفيٌّ غامض يرقد تحت العظام النحيلة، أنّ عالمه كلّه هو عالم ترصده فيه عيون لا تحصى.

كيف ترى سهى يا ترى؟ وقد حاول أكثر من مرة التسلل إلى غرفتها، حين تغادرها إلى المطبخ، أو إلى دورة المياه، كي يستطلع ذلك السرّ الممنوح لها، غير أنه كان يسمع حالاً صوتها الرقيع المدجّج بأمر حازم لا يلين: «خالد! لا تفوت!»، إذا كان ما يزال يحاول أن يخطو إلى الداخل، أو تهتف: «خالد! اطلع برّه!». كيف ترى؟ وكيف تستطيع أن تعرف أنه سطا على علبة الكراميلا مثلاً؟ وأنه أكل حبّتين، لا حبّة واحدة، كما كان يقسم لها حين تواجهه بالحقيقة؟ قال حامد إن للنساء أعيناً خفيّة في قفا رؤوسهن، غير أن هذا التفسير الذي تلقّاه في ما بعد، حين صار صديقاً لحامد وعابد، زاد في ذعره أكثر ممّا طمأنه. فهو يعني أنه كان مكشوفاً، بلا أسرار، معرّضاً للفضيحة، ضعيفاً متهافتاً، أمام قوة غير مرئية، مختبئة هناك في الأعالي.

ولم يكن يستطيع الاستعانة بأبيه مثلاً. كان الوالد دائم الغياب منذ أن تطوع في الجيش. يذكر أنه غاب ستة أشهر في الكويت، في أثناء مشاركته في الحرب هناك. وحين عاد كان مصاباً بشظيّة في خدّه تركت أثراً عميقاً مثل أخدود، مثل فكّ الجمل. لكنه بدا سعيداً على الرغم من ذلك، ولم يعرف لماذا، إلى أن رآه ذات يوم يعدّ حزمة من النقود الورقية، بحضور أمّه، وحين انتهيا من العدّ، همس لها: «لا تقولي لحدا عن هذا!». وقال إن هناك احتمالاً أن تصرف حكومة الكويت مكافآت خاصة للجنود. وراح كلاهما يبتهل إلى الله كي يتحقق حلم المنحة. قال أحمد إن شيئاً ما انكسر داخل خالد منذ تلك اللحظة، وأن رؤية الوالد وهو يضرع إلى الله كي تأتيه منحة مالٍ مجهول، منعت رغبة تبديل الأب التي يعلنها عابد وحامد من أن

تخزّن في أعماقه. ويرجّح أحمد أن مثل هذه الهمهمات الصامتة لدى خالد أبعدته مسافة شبر عن صديقيه، وكانت السبب في تسلّل تلك الاستجابة التي أظهرها تجاه الالتحاق بالحرب في ما بعد. أو أنها هي التي جعلته يصبح ضحية سهلة من ضحاياها. غير أن نائل رفض تلك الحكاية، وسوف يقدم لي جميع المستندات التي تثبت أن القدر المختبئ في تلك النبوءة الغريبة لعابد الجوف، هي التي شكلت الضرورة المطلقة لذهابه إلى هناك. كان على خالد أن يموت، كي تتحقق نبوءة عابد العجيبة.

وفي رأي نائل الجوف أن كل ما سيأتي في ما بعد سيكون منذوراً لتلك اللحظة. فقد كره خالد المدرسة بسبب يقينه أنها تؤكد المؤامرة التي حيكت ضده، حين لم تقدم له سوى الرهبة والخوف والقمع المجاني غير المفهوم. ففي اليوم الأول (بعد أن تم تسليمه وفق المعاهدة التي قُدّم فيها التنازل عن لحمه كاملاً من قِبل أبيه)، وقف المدير يلوّح بعصا خشبية مصقولة بنّيّة اللون ويهتف: «العصا لمن عصى!». استبدل بها في ما بعد أنبوباً بلاستيكياً ملوّناً يزيد عن ذراع، مطلِقاً على العملية التربوية الجديدة المقترحة اسم: «النبرشة». تسمية تفوح منها رائحة نتنة تشبه رائحة المزابل المحترقة. وترافقها قسوة حاذقة مدرّبة تسعى إلى إحداث أكثر قدر ممكن من الألم، وأقل قدر ممكن من الضرر الجسدي. هذه هي النبرشة، وقد نُسبت إلى تلك القطعة من الخرطوم البلاستيكي المعدّ لنقل الماء. وقد تسبّبت، حسب رأي نائل الجوف، بتشتيت أبناء المنارة. لم يصل إلى الثانوية غير أعداد ضئيلة من بينهم، تبخّروا، وذابوا في خرائب الحياة، قبل الوصول إلى الجامعة. ذلك أن العصا لم تكن لمن عصى وحده، بل كانت تستخدم في كل أغراض التطويع التي أراد برهان العلمي أن ينجزها هناك.

وبحسب نائل (وسوف يؤيده أحمد الشايب في ما بعد) فإن ألم خالد تضاعف حين لاحظ أن هيفاء الكافي كانت تنظر إليه بلا تعاطف. «أنا

زعلان منها». قال لحامد وعابد في الباحة وهو ينفخ داخل كفَّيه لتدفئة الدم المذعور المتيبّس داخل الأوردة والشرايين. «كانت ع بتضحك عليّ». هل يمكن لخالد أن يكون قد أحبّ البنت في تلك الأيام؟ سألت نائل. ربّما! قال لي، ثم تمهّل قليلاً وقال: لا أعرف، ولكنه كان يلحق بها في باحة المدرسة، والظاهر أن البنت كانت تبادله هوىً مماثلاً. ففي كل المرات التي كُلّف الصفّ فيها بإعداد وظيفة بيتية، كانت تتطوّع مجاناً للمساعدة في إنجازها. وعلى الرغم من أن تدخلها بدا فظّاً، ومؤشراً على كسله وتقاعسه وغبائه المستفحل في نظر أخته، فقد ظل يستقبل هيفاء ببهجة احتفالية كانت تجعله يشتهي الوظائف المدرسية. فما إن يقرّر المعلم الوظيفة: افتحوا الصفحة 28 وحلّوا مسائل الحساب فيها. أو: حضِّروا الجملة كذا في الصفحة 30 للإملاء، حتى تنتابه هزّة جوّانية عميقة تزرع في أرجاء جسده كله بذوراً من الجلد المحبحب الشبيه بالبرغل. ينتعش فيه حبور راقص يتغلغل في لحمه وعظامه وشعره. وسوف ينتظر الاستراحة التالية كي يؤكّد لها ضرورة مجيئها. ثم يعيد تأكيد ذلك في أثناء الانصراف، أي بعد أن يظلّا وحيدين متّجهين، كلٌّ نحو بيته، في الظهيرة الخالية من البشر، داخل الزقاق الضيق الطويل الذي يفضي إلى منزليهما. «تعالي! خبّيتلك حبة كراميلا! علك! حبة مصّاص!». يقول: «مصّاص هذي المرّة!». «مشتهيّة الملبّس المصّاص!». وحين تأتي بعد ساعة، سوف تأخذ الحبّة، وتضعها في فمها الصغير، وتمتصّها بشغف حالم، تتشرّب فيه تلك العصارة الحلوة التي تتسرب إليها من مكان ما حامض حلو خفيف يبعث النشوة في روحها وجسدها. ثم تملي عليه الكلمات كما لو كانت تصلّي، فيكتب كأنما هو في لحظة وحي مضيئة. لم يكن يخطئ البتة، إذ تظهر الكلمات أمام عينيه، مرسومة على جدار أبيض ناصع، كما هي في كتاب القراءة.

وفي كل مرة كانت تصفّق له بيديها الصغيرتين الناعمتين، يسمع خفق فراشة، أو حركة بتلات، أو رفّة زغلول. وفي منتصف السنة الأولى قبّلت خدّه. حدث هذا قبل أن يعاقب بستة أيام. وكانت شفتاها ما تزالان مدوّنتين على صفحة خدّه، رطبتين دافئتين تنضحان حبّاً.

إذاً، كان عليه أن يزعل من برودها الخشبي الكليل، من غمغمتها الملفّقة التي أعلنت فيها عن حزنها. وحين سيعاتبها بعد عشر سنوات، وهو يشرح لها أن ألمه كان مضاعفاً بسبب ذلك، سوف تقول له إن قلبها كان ينزف. وستمسك يده وتأخذه إلى أختها الكبيرة وفاء لتشهد أن هيفاء بكت كثيراً وراء شجرات الورد.

وفي ذلك المساء كان حزيناً، فقد أمضى سنة من الحسرة على وهم. على عصارة هراء من المشاعر الغاضبة التي جعلته يقاطع هيفاء طول تلك السنة. ولم يستطع أن يستعيد الصداقة في ما بعد أيضاً، في الصف الثاني. فحين عادت البنت من الكويت، حيث يعمل والدها، بعد شهرين من الغياب، بدا أنها قد كبرت عامين. وبسبب العداء الغامض المحتجّ على سخريتها، كما ظل يفكر، وقف في الرتل الآخر الموازي للرتل الذي اصطفّت فيه. الحقيقة هي أنه خجل من الوقوف هناك، وبدا هو، وحامد، وعابد، أقزاماً تافهة، أو ديداناً ملويّة، بجانب البنت التي أطال الغياب قامتها، وملأ جسدها بلحم أكثر بياضاً. وبسبب الحقد - على الأرجح - صار الصبيان الثلاثة يرددون تلك الحكمة التي يسمعونها من أمهاتهم وهنّ يصفن سرعة نمو الإناث: «البنت مزبلة» (إذ تكبر فجأة، في غياب المراقبة)، على أنها قباحة تخرجهن من حقول البراءة، إلى شحّ التدابير الخاصة بالنساء.

وفي حين كان يتمنى أن تلتفت نحوه، أخذ يرتكب أخطاء أكثر وأكبر. وبحسب نائل الجوف الذي يؤمن أننا جميعاً أبناء تلك السنوات الماضية

في عصر طفولتنا، فإن مصير خالد كان قد تقرّر، وتكامل، في تلك العلاقة الغريبة التي ربطته بهيفاء، منذ تلك السنوات. ورفض أن يناقش أي احتمال آخر، مثل اتهامات آخرين من المنارة بأن سهى هي السبب، وحين سألت نائل عن أسباب اعتقاده، قال لي: «لا تستعجل، وانتظر». وفي تلك الأيام كان خالد ينفّذ سلوك عاشق. يقترب من التجمع الذي توجد فيه هيفاء، ثم يدّعي أنه يبحث عن عابد. أو يستعير قلماً من رفيقتها في المقعد داخل الصف، أو يزعم أنه أوقع المبراة، أو الممحاة، حسب الضرورة، وأنها تدحرجت إلى المقاعد الخلفية. لم يكن يعبأ بذلك الصمت المعبّأ بحنق ساخن محيّر، القابع في جلوس البنت السمراء هناك.

ويزداد ارتباكه حين يسجّل عريف الصف اسمه بين أسماء المشاغبين المهدّدين بالعقاب من المعلم. فلا يستطيع الطلب من العريف محو الاسم، ولا يريد أن تراه هيفاء، مرة أخرى، مذلّاً، مهاناً، تحت وقع العصا الحقيرة التي تضرب كفّه المفتوحة. وبسبب هذا كان العقاب يزداد. فقد اعتاد معلم الصف الثاني أن يعتبر الصمت تحدّياً، أو يرى في عدم البكاء وقاحة تستأهل المزيد من الضرب. كان الألم يخترق جلده، ألم خبيث يفرغ الجسد من العواطف، في حين كان الإصرار على عدم البكاء، وهو يسترق النظر نحو هيفاء، أو ينظر في عيني المعلم، يمنحه ذلك البرد والسلام اللذين مُنحا للنبيّ نائل، كما سيقرأ في السنوات المقبلة.

ومن غير المؤكد لدى نائل الجوف، أن الفكرة الخبيثة التي خطرت ببال خالد في تلك الأيام، كانت من بين الذكريات التي تسببت في ما بعد في فصم علاقتهما، إذ لم تتوفر لديه أي معلومة عمّا إذا كانت البنت قد علمت بها أم لا. فبسبب يقينه أنها كانت تشمت فيه في أثناء العقاب الذي يتلقاه، قرر أن يلقّنها درساً موازياً يضعها فيه أمام استحقاقات التعاطف. ولكنه لم يجرؤ على إحضار الدبّور الذي اصطاده، عند الظهر، من عشّه

في الحاكورة. أفلته عند العصر، واصطاد بدل ذلك نحلة صفراء صغيرة، وحشاها في زجاجة بنسلين فارغة، وأغلق عليها بالسدادة المطاطية الحمراء.

كانت الخطة تقتضي وجود متعاونين، ولكن عابد رفض أن يكون سبباً في الألم. قال له: «بعرف سمّ النحل من سنتين، وما بنساه أبداً. أمي بتقول: اقتل عدوك ولا تعرض عليه الألم». ولكن نائل يشكّك في هذا الموقف، ويدّعي أن الحقيقة التي بدأت تتجلى لعابد هي أنه لا يملك خيارات الحب والكراهية، وأن شيئاً ما في أعماقه كان يتحرك ضد المجهول الذي لم يقدم له أي مكسب عاطفي بعد. ولهذا غلّف رفضه بالمبادئ. وحين سألت أحمد الذي كان في الإعدادية حينئذ، قال إن ما أعلنه عابد هو شخصيته الحقيقية، وإن ما فعله كان موقفاً من العنف ذاته، من رغبة الانتقام، من نزعة الأذى، أي من كل ما كان يتشكّل منه العالم الذي يحيط به. وقد عاش حياته كلّها مخلصاً له، ولا تعني القوة الجسدية التي كان يملكها سوى القدرة على تلافي العدوان من الخارج. وهو ما صار ينفّذه في المنارة أيام الشباب، فالقوة لديه نقيض العنف لا قرينه. وماذا عن أعدائه؟ قال نائل إن الخوف من شخصيته هو الذي لجمهم عنه، بينما كان رأي أحمد: إن مبادئه هي التي زعزعت وجودهم. كانت المنارة تتغذى من روح العنف الذي عمّمه برهان العلمي، روح النبريش الساقطة. وكانت معظم الخلافات فيها تُحَلّ بواسطة العنف، وبضمن ذلك خلاف على حجم حبّة العدس، وكان هذا الأمر يجعل وجوده هنا زائداً، أو قل نافراً، كما علّق نائل حين أيّد كلمات أحمد عن نزعة اللاعنف لدى عابد الجوف. والغريب أن كثيرين من شبان المنارة ورجالها، وربما بعض نسائها، الذين كانوا يؤمنون أنه بات جباناً، لم يجرؤوا على مجابهته في أي يوم. وكان أحمد الشايب يضحك ويضرب كفّاً بكفّ، وهو يتخيّل رعب

شاكر الطيّار من عابد حين تقابلا في الخمّارة بعد سنوات من حادثة طريق المدرسة. يقولون: «جبان»، في غيابه، ويخرون في لباسهم بحضوره. من لا يقاتل أو يقتل هو الجبان.

وبالنسبة إلى خالد فقد وضعه هذا الرفض الذي عزّزه امتناع حامد أيضاً عن المشاركة، أو التواطؤ العقلي والوجداني، في أزمة روحية جعلته يبكي وهو يسمعه يقول: «حرام»، دون أن يكون مستعداً بعدُ للتخلّي عن المشروع. كانت الرغبة في الانتقام سيّدة المشاعر. وقد أمكن بفضلها تبديد الكثير من الحواجز، والمحظورات. فيما ظل حليفاه عثرة، حفرة لا يمكن تجاوزها. ولدى نائل الجوف ريبة من أن موقف الصديقين قد ترك آثاراً عميقة في روح خالد، وربما كان أحدَ الأسباب التي جعلته يخرق المعاهدة التي أقسم الثلاثة على التزامها، في عدم المشاركة في الحرب التي بدأت تحتدم بين الجيش، والمسلحين من الأهالي، في كثير من المناطق في سورية. وحين سألت أحمد الشايب، أنكر ذلك مطلَقاً. لم تكن لدى أحمد أي مواقف سياسية، وهو يعمل خارج القوس، كما قال لي، ولهذا فمن الممكن أن نصدّق أن خالد قد أُرغم على الذهاب إلى الحرب دون إرادة، وأن ما يقوله الناس عن أنفسهم أحياناً، ليس أكثر من تعبير عن الرغبة في إظهار حرية الإرادة وقدرتها على اتخاذ القرار.

سوف يظل يذكر طول حياته أن الصداقة غلبت النقمة، تابع نائل الجوف يروي لي ما يعتقد أنه أصل المصائر التي تقررت، وأن الذكريات صرعت الحقد. فقد أمضى حامد وعابد الفرصة الأولى بين الدروس وهما يستجديان عطفه، ويحاولان إقناعه بصرف النظر عن المهمة العنيفة. حتى إذا أبدى ذلك العناد المتحدّي المغلق، هدّدا بمخاصمته. وقال أحمد الشايب إن خالد سوف يتذكر هذا كلّه، في ليالي الحرب في ما بعد، وهو يعيد سيرة عابد الطيب، وحامد الحنون، أمام زميله. قال أحمد إن ذلك

الجندي الذي رافق خالد في أيامه الأخيرة، كان يردّد أمامه عبارات خالد عن أن الزمن بلا شرف، وأن القدر نفسه ملتبس ويابس وعديم الرحمة.

لم يجرؤ على فتح الزجاجة. وعند الظهر، اكتشف أن النحلة الحبيسة ماتت خنقاً في ذلك الحيِّز الشفاف المحكم. فقال حامد: «شايف؟ حتى الله ما بدّو هذا!». مليح، عظيم، رائع. كان صوت سرّيٌّ عاشق ملهوف يهتف في داخله. وحين انصرفوا، جلس الثلاثة عند صخرات العسل المطلّة على الوادي. دفنوا الحشرة في أخدود ترابي يتغلغل بين صخرتين. ثم مضى كلٌّ منهم في ناحية.

لكنّه ظلّ مؤمناً، على الرغم من تلك البوادر المهدّئة، أن هيفاء هي التي تسببت في خراب الصداقة بينه وبينها. لم يبُح بهذا الإيمان أمام صديقيه. ولم يُبدِ اعتراضاتٍ جدّيّةً على مشاعر الرضا التي أظهرتها الأخت الكبيرة تجاه القطيعة بينه وبين هيفاء. وقال لنفسه وهو حزين: «الحقّ عليها».

وإذا كان غياب هيفاء عن المجيء إلى بيتهم، قد أرضى سهى، فإنها لم تُرِد الترحيب بصديقيه أيضاً. ولكن هذا ما لم ولن يقبل به. فمنع الزيارات إلى المنازل، ممكن، وهو أمر يسيطر عليه الآباء والأمهات والإخوة الكبار من الجنسين. لا يد لخالد، أو حامد، أو عابد في تلك الملكيات المضجرة الباعثة على الملل. ولا رغبة لأيٍّ منهم في التجمّع وسط أي بيت من تلك البيوت الباهتة التي تفوح منها روائح القوة. ولهذا فقد ولدت صداقتهم في الخلاء، في شوارع البلدة، في البيادر المنسيّة، في الحواكير البعيدة، في مصائد العصافير، في الوعر الذي تغطّيه المستنقعات أيام الشتاء، ويدرج فيه حجل الصيف. فما كان منه إلا أن قال لسهى: «لا». «لا؟ شو لا. ولا؟». قالت بصوتٍ أغنّ مختلط بطعم التفاح.

يمكن لسُهى أن تستولي، أو تسيطر، على البيت في غياب أبيه الذي

تأكله استنفارات الجيش التي لا تنتهي، وزيارات الأم اللانهائية إلى بيوت الجارات، أو مجيئهن إلى بيتهم لشرب المتّة. أما الفضاء الذي يجمعه مع حامد وعابد فهو ملعبه الخاص الذي لا تستطيع الوصول إليه أبداً. فكل القوة والقسوة اللتين تستطيع أن تظهرهما في البيت، تتبدّدان حين تعجز عن الخروج إلى البلدة. لا الشوارع لها، ولا الساحات، ولا برك الماء، ولا المستنقعات، ولا ملاعب الكرة، ولا الأراضي الحمراء الممتدة بين الصخور في الوعر. ودون أن يعرف السبب وراء ذلك العجز الذي تبديه تجاه الخارج، صار يأتي إلى البيت، كي يتناول الغداء، ثم ينتظر قليلاً، قبل أن يخرج، أو يخرج فوراً، ليلتقي بحامد، وينتظران معاً وصول عابد كبير البطن. ومن هناك يمضي الثلاثة إلى المَطخ الشرقي للسباحة، أو صيد الضفادع. أو يتسلقون الصخور في سهل الزرازير ويذهبون للبحث عن الأفاعي، أو عن الذهب في الخرائب القديمة المهدّمة خلف أهلها.

أفضل تلك الأوقات هي تلك التي يسبحون فيها، صحيح أن مياه المطخ قد تتلوّن بلون التراب، غير أن ذلك يجعلها قادرة على إخفاء السبّاح في أثناء اللعب، أو في أثناء المناورات التي تتطلّبها حركات المباغتة، التي يتبادلونها، أو يمارسونها ضد فريق آخر من الأولاد. سوف يتذكر في ما بعد أيضاً، في ليالي الحرب الحزينة، حامد الذي كان يحب أن يمثّل دور الميِّت على سطح الماء: يمثّل حامد دور الميّت الذي يطفو جسده على سطح الماء من بين الكائنات، فيصرخ: «أنا ميِّت!». ثم يعلو جسمه السطح المائي الساكن. يسود الصمت في أرجاء المطخ كلِّها، وقد أثار الجسم البشري الطافي على السطح بلا حراك خوفاً عميقاً قاهراً تغذّيه الجنازة التي تتهادى بلا حراك. وحين ينهي الأداء المحبَّب، ينقلب بسرعة، ثم يشبّ داخل الماء ويصرخ: «رجعت!».

سوف يصفّق الجميع، ويمكن أن يدّعي واحد من شلة حارة السهل

أن الأمر هيِّن، وعندئذ يعرض عليه خالد وعابد أن يفعل ذلك، فيما يظل حامد جالساً على حافة الماء عارياً يراقب التحدّي الذي يعرف نتائجه مسبقاً: هناك حيث يغرقُ الفتيان، ويصعدون نصف مختنقين مهزومين، فيما يطأطئ رفاقهم مستسلمين أمام القدر المعجز.

يمكن أيضاً أن تكون الأفاعي ضحيّة تلك المشاوير الهاربة من المنازل. ويستلزم ذلك التوغُّل في الوعر، صيفاً، أو في الأزمنة التي تبدّل فيها تلك الكائنات جلودها. وإذا ما عثروا على جلدٍ طريّ، فالمؤكد أن الأفعى التي خلعته ما تزال تتشمّس لكيّ الثوب الجديد الذي تظهر به. وسرعان ما تُرى في مكان ما بين الصخور، وهي تحاول الهرب بلا جدوى. لا أحد يعرف ما الذي يحدث، وكيف تعجز الأفاعي الشهيرة بالقدرة على التخفّي، والاختباء، والانسلال إلى أيّ وكر مفتوح في الوعر، عن إيجاد أيّ مخبأ يمكن أن يضمن لها النجاة من الصغار الثلاثة الذين يحاصرونها. لم يقتلوا أيَّ أفعى، بل استخدموها كلها في المنارة التي ترفض زمالتهم، أو تمنع لعبهم داخلها. أولى الجهات التي أثاروا الرعب فيها هي تلك المنشأة التي بنتها منظمة الشبيبة لتنشيط الرياضة في البلدة. إذ على الرغم من تطوّعهم الحرّ للانتساب إلى المنظمة، فقد طُردوا بعنف من قبل الفتيان الأكبر سنّاً، ولوحقوا بالحجارة حين شتموا ابن الزير. وزاد في شعورهم بالغبن أن أولئك الذين كانوا يلعبون الكرة في الملعب الترابي الملحق بالمنشأة، اتهموهم بأنهم صغار وعاجزون. وهي اتهامات حاقدة، كان يجب الرد عليها بقوة: في اليوم التالي بال زيتون أبو طرّة في ثيابه، حين رأى كعكة الحنش الأسود الملتفّة، فارتدى بدلاً منها «شورْت» الرياضة، و«تي شيرت» الشبيبة. لم يسخر منه أحد تلك اللحظة، حين رأوا أثر البول يبقّع شورته الأحمر، فقد عمّت فوضى رعب نجمت عن تسلّل الأفعى السوداء إلى ثياب اللاعبين الآخرين المتراكمة في طرف غرفة الكُرات. غير أن تلك

العلامة المائية سوف تتحوّل إلى لقب يستخدمه أعداؤه طول عمره. فرّت الأفعى المذعورة بعد ذلك، وهي التي كانت تعرف أنها باتت عاجزة عن الإضرار بأيٍّ من الفتيان الذين كانوا يحاولون قتلها، بعد أن انتزع أولئك الصغار نابها، وتركوها وسط المكان.

وبفضل عهد الكتمان الأبدي الذي اتفقوا عليه، لم يعلم أحد مصدر الأفعى، ورجّحوا أن تكون قد انسلّت من الأعشاب الكثيفة من محيط المنشأة، أو الملعب. فيما كان الثلاثة قد صمّموا على ملاحقة جميع الذين شاركوا في إبعادهم عن اللعب. فدسّوا أفعى رقطاء، منزوعة الناب، في غرفة حسن الشايب. انتزعوا إحدى العقد المهترئة في باب غرفته، ودلّوا الأفعى من خلاله، ثم جلسوا في البيدر القريب ينتظرون العلامات. كانوا قد وضعوا صلّاً في حقيبة حسين الشهاب. واستمعوا ببهجة إلى صراخه العاجز المستجدي في الصف السادس.

غير أن الانتقام بدا، في ما بعد، أقلَّ جاذبية من شهوته. فلم يدخل أيَّ سعادة إلى قلب خالد. وحين وصل إلى البيت، ظل صراخ حسين يسري في سمعه بلا توقف. فبكى عند العصر. بكى كثيراً. لم يدرِ لماذا يبكي، ولكنه ظل يبكي، هكذا يبكي وتنهمر دموعه على خدَّيه دون أن يملك أيّ قدرة على ردها، أو السيطرة عليها. وقال نائل إنه يرجح أن يكون خالد قد فاتح صديقيه في هذا الموقف، وإن عابد وحامد أبديا حزناً مشابهاً دفع الثلاثة إلى خيار آخر في الحياة هو الموسيقا.

طلبوا من جلال أبو سالم أن يعلّمهم العزف على الشبّابة. وقد رضي ذلك الشاب الذي كان يستعدّ للذهاب إلى الخدمة العسكرية، مقابل أن يحافظوا على إرثه من شبّابات القصب، في غيابه.

لم يكن جلال أبو سالم قادراً على التكهّن بأنه لن يعود حيّاً، أو أن

التلاميذ الثلاثة، لن يحافظوا على مجموعة آلاته وحدها، بل سيرثون نغماته أيضاً. عاد جلال في تابوت مغلق، قال أحمد الشايب، الذي سيُعرف بين الشبان الثلاثة باسم «لديّ مصادري»، إنه لم يكن فيه. أقسم أمامهم إنه شارك في حمل النعش، من الموقف إلى سيارة الدفن، وإنه لاحظ خفّته التي تدلّ على أنه فارغ من الجثمان. قال أحمد الشايب إن الصاروخ الإسرائيلي مزّق جلال، ونثر أشلاءه في كل مكان. قال خالد: كيف عرفت؟ قال: «لديّ مصادري. لا تسألني!».

كان أحمد يكبرهم بكثير، وقد استعنت به في ما بعد لملء الثغرات التي كان نائل الجوف يتركها في الحكاية. كان قد ورث حزمة النايات التي تركها الشبان الثلاثة بعد رحيلهم عن عالمنا، إلى جانب كمدٍ مرير يظهر في أخدودين عميقين يحفران خدّيه بالطول. وقد قال لي إن الأولاد لم يعرفوا ماذا يفعلون تجاه الأمانة التي كانت بحوزتهم، بعد موت جلال، وتوقعوا أن يطالب بها أحد أقربائه بعد الأسبوع. ولكن لم يظهر أيّ شخص من الورثة. وهكذا قرروا في اجتماع الظهيرة الذي أعقب الغداء في أول يوم صحو ربيعي أعقب دفن رفات جلال أبو سالم، الاحتفاظ بدزّينة الآلات القصبية المصنوعة بيد فنان صبور محبّ عاشق. وبفضل مخابئ الوعر، الذي أتاح لهم صخرات كبيرة ظليلة هي صخرات العسل، ومخبأ للتدرب، راحوا يعزفون كلّ يوم. كانت دروس جلال أبو سالم سهلة، وقادرة على النفاذ إلى جوهر الآلة دون مصاعب. وفي اليوم الأربعين لموته، عزفوا قطعة كتب عابد كلماتها ولحّنها عن الأخوّة. كان ظلّ جلال، الحبيب إلى قلوبهم، يرفرف مثل عصفور فوق النغم الثلاثي.

وطوال سنوات، لم يعرفوا من الذي سمع تلك الموسيقا الطربيّة المستمدة من أغاني العرس، وأخبر أبناء الطابور عنها، حتى فوجئوا بسالم الكبير، ابن الطابور، الذي كان سيزوّج أخاه بعد عشرة أيام يدعوهم للعزف

في عرسه. «مين قال لك؟»، سأل خالد بخجل. ما كان يصدّق أن من الممكن لأحد أن يسدّ غياب جلال بمثل هذه السرعة. ولكنهم وافقوا، بعد أول لقاء عقدوه للمناقشة. كان هذا هو التحدّي الجدّي الأول الذي سيقرر نتائج المواجهة مع فتيان الفوتبول.

ما لم يحسبوا حسابه هو أنه فيما كان أصحاب العرس، وأبناء القرية الحاضرون، يصفّقون لهذه المشاركة السعيدة، كان معلم الصف الرابع يهزّ رأسه هزّات غامضة، رجّحوا في ما بعد أنها تلخيص التهديد. بطانة مؤجّلة لعمل انتقاميّ ظهر يوم السبت الذي تلا خميس العرس:

نسي خالد عقدة الفولار في البيت. كان على الجميع أن يأتوا إلى المدرسة بزيّ الطلائع الكامل، تحت طائلة الطرد، والإعادة إلى البيت، والحرمان من دروس الرياضة، والموسيقا، ومنع المشاركة في الرحلات المدرسية، داخل البلدة، أو إلى آثار بصرى وقنوات، إذا ما نُسيت قطعة واحدة من اللباس المقرَّر.

وقد تمكّن خالد من التواري عن أنظار المدير الذي يجري فحوصاً مجهريّة على القادمين في الصباح، ابتداءً من البوابة، حين يعدّهم مثلما يعدّ الغنم، أو في أثناء الاصطفاف الصباحي. ونجا من المعلم المناوب الذي كان يرصد الدخول المنظم إلى الصفوف. حتى إذا صار في القاعة تنفّس بعمق، وهو سعيد لأنه لن يخسر يوماً من الرفقة مع حامد وعابد.

المرجّح، كما نوقش الأمر في ما بعد، أن معلم الصف كان قد لاحظ عدم وجود عقدة الفولار منذ أن كانوا في الباحة (أين كان يقف؟) وأنه لاحظ أيضاً التواطؤات التي تمكّن خالد من خلالها من التسلل إلى قاعة الصف الرابع، وأنه ظل صامتاً دون أن يعلّق على الأمر، إذ إنه اتجه نحو خالد مباشرة، حين دخل إلى الغرفة، وأمسك الفولار المربوط حول عنقه،

وجرّه إلى المنصة. وظل ممسكاً بتلك القطعة الزرقاء، وهو يقول: الجريمة الكبرى هي نسيان العقدة، تأتي بعدها جرائم لا تُعدّ: التسلّل من وراء ظهر المدير. التخفّي مثل فأر. الكذب. الخيانة. من ينسَ عقدة الفولار ينسَ البندقية في المعركة! من ينسَ عقدة الفولار يكن مستعدّاً لبيع نفسه للعدو! وحين بدأ العقاب، صار المعلم يُرفق كلّ عصا بجملة: «أمّا الشبّابة فما بتنساها... أما الشبّابة...». وحين أنهى عقابه الذي بدا أنه لن ينتهي أبداً، جرّ خالد من ذراعه وسلّمه للمدير متلبّساً بالجرم.

ظل الصف كلّه واجماً تجاه المشهد. تهكّم تلاميذ من الجناح الآخر على خالد، وقام تلميذ كبير بتقليد حركات التواء جسده تحت وقع الألم الذي تسببه العصا. وعندما لم يضحك أحد، عاد إلى مقعده، فيما كانت عينا كلٍّ من حامد وعابد مليئتين بدموع حبيسة متوعّدة لكلّ الكائنات في هذا العالم.

بدءاً من ذلك اليوم صُنّف ذلك المعلم السمين المدكوك، كجلّادٍ تافهٍ عديم الضمير، بينما ظلّ المدير في موقع القاتل ومدير السجن. وصاروا، إذا نسي أحدهم العقدة أو الفولار أو الطاقية، يخبّئ كلٌّ من رفيقيه عقدته أو فولاره أو طاقيته، ويدخلون معاً إلى المدرسة، كي ينالوا عقاباً مشتركاً. ولأن أحد أشكال العقاب كان الإعادة إلى البيت، فقد وجدوا أن الأمر يستأهل بعض العصيّ، التي تعني أنهم باتوا أحراراً بقية ذلك اليوم. وفي ربيع الصف الخامس، ملأت عصافير مهاجرة سهول البلدة، وحقولها، مما استلزم خروجاً متواصلاً للصيد. فصاروا يتعمّدون نسيان ذلك الزيّ الترابي كاملاً. ويخرجون مطرودين من المدرسة إلى الوعر، مباشرة، وهم يحملون رزماً من الفخاخ الحديدية، وكمشاتٍ من القمح، وقطع التبديل من الخيوط القوية، والخرز الملوّن.

ولكيلا يُحرَم عابد من الغداء، لأن المدير سيكون قد أعلم الأولياء بالأمر، أخذوا يشوون صيدهم هناك، ويأكلونه، ويعودون دون أن يتمكن أحد من تدميرهم بتلك الألاعيب الحقيرة التي يفعلها الآباء. وفي أول الصيف رفضوا المشاركة في إحياء عرس شقيق المدير، على الرغم من الدعوة الشخصية المباشرة التي وجِّهت إليهم من قبله. ولم يتنازل أيٌّ منهم، وهم يفكّرون أنه لم يعد يملك أكثر من سنة واحدة من السلطة. إذ بعدئذ سينتقلون إلى الإعدادية بعيداً عن نباريشه وعصيّه.

وفي كل تلك الأوقات كانت الطبيعة تقدّم لهم معظم المستلزمات، والحاجات الضرورية للعيش في حال تعرّضوا لأعمال الحرمان المنزلي. منذ أن يهطل المطر، تمتلئ السهول والوعر بالنباتات البرية الصالحة للأكل: الهندباء والرشاد والمُشّى والبوصوي والعكّوب والخرفيش والسنانيري، وكلّها تصلح لأن تؤكل نيّئة أو مطبوخة. وصارت تشكل البدائل النباتية الممكنة (إلى جانب بروتين الفِخاخ) في مواجهة الغياب عن أوقات الطعام، في المنازل، أو المباغتة بوجود طبخاتٍ تافهة لا تؤكل، تفوح منها رائحة الكمون، أو طعم الدهن الزفر الثقيل.

وفي السنة الابتدائية الأخيرة اضطرّ المدير النبريش إلى العمل معلماً مؤقتاً، بسبب غياب إحدى المعلمات في إجازة أمومة. وعندئذٍ اكتشفوا أنه كان ضحلاً تافهاً ليس لديه أيُّ ذخيرة معرفية من القصص والحكايات وأعمال البشر، خلافاً لمعلّمهم في الصف الثالث. وأن كل ما يزعمه من الحرص على التعليم والبلد ليس سوى رغاء جملٍ حقود. كرهوا دروسه التي كان يرشّ خلالها كلامه دون أن يستطيعوا ملاحقة المعنى المتقطع في الحروف التي يبتلعها، بصوته الرفيع الذي تخرج السين منه حادة كالسكّين. غير أنه أرعبهم بطرق أخرى كثيرة للتعذيب والعقاب، حين أمسك حصى صغيرة بحواف مجرحة، وصار يفرك بها أذن عابد، وهو

يردد باللغة الفصحى التي كان يتحدث بها في المدرسة دائماً: «لا تريد أن تعزف في عرس بسام؟ مم يشكو بسام؟ وتريد أن تتكبّر عليه!». كانوا قد نسَوا قضية العرس، بينما كان ما يزال يحملها في قلبه.

ما أغضب عابد هو أن أمه التي عالجت جراحه بالقهوة، طلبت منه أن يغسل الجرح قبل وصول أبيه. لم يكن السبب خشيتها من أن يثور الأب ضد المعلم، بل خوفها من أن يعتبر أن العقاب لم يكن كافياً. صمت عابد. وضع رأسه بين ركبتيه، كأنه لا يريد أن يسمع ما تبقّى من الحكاية.

كانت كل حادثة تؤكد له أن الحياة معادية له ولرفيقيه، وأن الموجودين فيها، خُلقوا كي يمنعوهم من السعادة: والده، أخت خالد الكبيرة، المعلم السمين، مدير المدرسة، وحوش المنشأة الرياضية، كلاب خربة الغزال.

وزاد غضبه أكثر حين عرف أن أمه لم تصمت: صباح اليوم الثاني جاء أبو عابد إلى المدرسة، وأجبره على الاعتذار من المدير. ولكي يثبت حسن النية، طلب أن يكون الاعتذار علنياً. وهكذا أرغم عابد على أن يركع أمام قدمي المدير، وأن يقول بصوت مسموع: سامحني يا أستاذي. وحين أنهى طقس الاعتذار تقدَّم الوالد وألقى خطبة بيّن فيها الأهمية العظمى للسيد برهان العلمي الذي ظل طول عمره يخدم هذه البلدة الوسخة، ويعلّم هؤلاء التلاميذ الجحاش، ويقدّم من روحه ومن جسده ومن ماله (وأخذ يشير إلى أسطال الورد التي زرعها النبريش على شرفات المدرسة) مقابل ماذا؟ مقابل أن يأتي ولد عاقّ معروف بلؤمه، وقلّة أدبه، ورعونته، ويشاغب في الصف. لو قيل لي إنه لم ينجز الوظيفة، لما زعلت، فأنا أعرف كسل هذا الولد، وتقاعسه، أما أن يخلّ بنظام المدرسة، فهذه جريمة. جريمة! تسمعون؟ وعلى الرغم من أن محسن الجوف أكل من نظام المدرسة نفسه أكثر من ربع ساعة، وهو يلقي كلمته، فإن السيد برهان العلمي ظل

واقفاً مستعداً يهزّ رأسه موافقاً على ما يشهد به أحد أولياء التلاميذ هنا على المنصّة، من براءة المعلّمين، وسوء نيّة التلاميذ المشاكسين.

وفي البيت أُرغم عابد على كتابة «حفر أمير الأمراء بئراً في الصحراء» ألف مرّة. قال له أبوه: «منشان تتعلّم الأخلاق وحسن السيرة». قالت أم عابد: «شو دخل هذا بالبير وبأخلاق الولد؟». فنظر إليها بطرف عينه التي كان يتسرّب إليها دخان سيكارته، وقال: «ما بعرف. لمّا كنت صغير كان بيّي يعاقبني هيك. نفعت. وصرت رجّال»!

ما العمل؟

في تلك الأيام قال عابد لحامد، إنه لم يجد أيَّ شخص يستطيع أن يمنع محسن الجوف من ضربه وإهانته، ولم تكن حالة حامد أفضل من ذلك بكثير، والمشكلة كانت بينه وبين أخيه الكبير سامي التي بدأت منذ اليوم الأول في المدرسة. هناك عند الجسر الذي يصل بين ضفتي النهر، ويفضي إلى كوم الحجر، وطريق المدرسة، وقف ينتظر وصوله. وحين صار قربه، قال: «ولا! قدّيش أعطتك أمي؟»، أجاب: «خمس ليرات». فأطلق صافرة استهجان طويلة حاقدة: «العمى! خمس ليرات؟ شو رح تعمل فيها ولاك؟ هاتها!». ولم ينتظر الموافقة، مدّ يده وانتزعها من جيب البنطلون الرمادي، وقال: «والله رح كسرك إذا قلت لها!». قال عابد: «هذي هي الدنيا. غاب البسّ امرح يا فار». قال حامد إن أباه أكبر من البسّ، وأخاه أصغر من الفأر. وظل سامي يفشل في نيل الإعدادية طوال الوقت. وفي كل عام، كان يصفع حامد يوم تظهر النتائج، «يا كلب!» يقول له. «روح من وجهي!». ويضع سبابته في وجه أمه مهدّداً: «إيّاك أنك تقولي أي كلمة!». ثم يغادر البيت وهو يشتمهم: «لعنة الله على أبوكم وأبو المدرسة!».

ولكن سامي كان من طينة مختلفة عن طينة محسن الجوف. هذا هو

رأي نائل، وربما كان أحد ألوان القهر الذي أقلق وجود الشبان الثلاثة في طفولتهم. شكل مختلف كان يعتمد على الابتزاز والنهب اللصوصي وسرقة المال القليل الذي يدّخره حامد. وفي كل مرة كان عابد يقول له: «ليش ما بتخبّر أمّك؟». وحين صارا كبيرين واجهها بتلك الوقائع. غير أن حليمة راوغت الكلام قليلاً، ثم قالت له (كان حامد حاضراً أيضاً): «كنت خاف منه». كانت امرأة من حرير. هكذا رآها عابد دائماً، ولم يزعزع أيّ تصريح، أو اعتراف بالضعف، وجودها في حياته. وكانت هي أيضاً تعرف ذلك. وقد وجدت في حضور عابد إلى جانب ابنها تعويضاً مناسباً عن غياب سامي، وعقوقه أيضاً. هذا رأي أحمد الشايب، بينما كان نائل يرى أن سامي كان إحدى محطّات الضعف التي تأخذ من حضورها ومن قوّتها، وأن غيابه أحزن مشاعر الأم، ولكنه أعاد لها قوة الوجود الأنثوي الذي كان سمة أصيلة في شخصيتها.

قال نائل إن تلك العلاقة بين حليمة وسامي ظلت تشغل فكره طول السنوات الماضية، وإنه لم ير قطّ امرأة لها خصال حليمة العظيمة تضعف إلى حدّ الذلّ أمام ابن مثل سامي. وقد رفض رواية أحمد الشايب الذي ذكر لي أن سامي غادر المنارة لأنه لم يستطع في الحقيقة أن يمنع حليمة من أن تعيش بطريقتها. كانت تحكي مع أيِّ رجل في البلدة دون حرج. تقف في أي شارع أو زقاق لتسأل أيّ شخص تصادفه عن أحوال عائلته. قال نائل إن هذا كان جزءاً أصيلاً في تكوينها الأمومي الذي سوف يظهر في ما بعد في احتضان عابد، وليس نوعاً من خفّة الأنثى التي تريد الرجال. وروى لي أن أحمد أراد أن ينتقم من تلك المرأة التي منعت الثلاثة من إيصال رسالة عشق كتبها لابنة غزال شمس. فقالوا له إنهم يخافون، وآل شمس كثيرون وأقوياء، ومنهم المصارع فارس شمس الذي يقدّم حفلات القوة حيث يكسر الناس الحجارة على صدره. قال «الديّ مصادري» إنها سرّية، ولن

يعلم بها أحد، ويبدو أنه وشى بهم لدى الشباب الذين يستولون على منشأة الرياضة، بعد رفضهم. «آ..ها!» قال زيتون أبو طرّة وهو يهز رأسه هزّات منذِرة متوعّدة. «ومن إيمتى بتعرف أنت يا خرا؟». سأله بحقد. فقال: «ما بعرف، ولكن لديّ مصادري». فاكتفى أبو طرّة بلكمة واحدة في صدره، دفعته للخلف نادماً. يتخيّل لدي مصادري أنه إذا ما استطاع أن يمتلك الوقت، وهذا ممكن، فإنه سوف يدمر يوم الأمس كاملاً. تخيّل أنه ليس موجوداً. ولكن ذلك النهار ظل يحوم حول رأسه، زارعاً في ضميره الندم والخوف والحسرة واللعنات على اللسان الطويل الذي لديه. لكن لم يعد ينفع أي شيء، لأن زيتون أخبر الشبان الآخرين، الذين أدركوا بعد سنة من تاريخ رعبهم، أنهم كانوا طيّبي القلوب، ولكن مغفّلين، وبلا حسابات، ولا ظنون، كي تفوتهم مثل هذه المؤامرة الدنيئة من جيل صغير حقير لاحق. قال حسن الشهاب: «والله خطر ببالي أن يكون أولاد الحرام هم يلّي عملوا هيك». قال زيتون «وليش ما قلتلنا يا خرا؟». كان زيتون أبو طرّة رئيساً لوحدة الشبيبة آنذاك، فلم يجرؤ الشهاب على الرد، وشكاه لأنور الذيب في طريقه، وقال: «كنت سأقول له: أنت تعرف من الخرا، ومن شخّ على حاله»، وفي البيت شكا لأمه وقال: «قلت له أنت تعرف من هو الخرا، ومن شخّ على حاله». فقالت أمه: «عافاك الله».

وفي المساء أخبر زيتون أمين الفرقة الحزبية، وزارا مدير المدرسة معاً، وأخبراه بالقصة «من تكتك إلى السلام عليكم»، كما قال زيتون في اجتماع الوحدة الذي عقده على عجل بعد العشاء.

جُلِدوا بالنبريش. وبصق عليهم رتل من مئة وأربعة وعشرين تلميذاً، هم العدد الكلّي للمسجّلين في مدرسة المنارة، من الصف الأول، حتى الصف السادس. وأقسم المدير أن يقطع يد، أو لسان أيّ تلميذ يمكن أن

يفكّر في التطاول على قيادات البلد. وأكرّر: «قولوا لآبائكم وأمهاتكم، والحاضر يعلم الغائب أينما كان. لا نقول هذا الكلام للتجارة، أو للمزاد. بل أمام أعينكم، وسوف ترون الشاهد».

وفي اليوم التالي، أُمروا أن يظلّوا في الباحة، بعد دخول الطابور. وفي الفرصة الأولى، وُجد كل واحد من التلاميذ الثلاثة، يقف على قدم واحدة، وقد ضُرب، وعلِّقت على صدره قطعة كرتون بيضاء، كتب عليها: «لا تلعب بالنار». وكان المدير يسعل، وهو يمشي ذهاباً وإياباً أمامهم ويخاطبهم بما لم يُعرف من قِبل التلاميذ إلا بعد أيام، حين صرح خالد أنهم رفضوا أن يعتذروا عن صيد الأفاعي، وأنهم قالوا للمدير إن الأفعى أحسن من زيتون، وأفضل من النمّام أحمد الشايب. وفي منتصف الصيف التالي، بعد أن استلموا شهادات تخرّجهم من المدرسة الابتدائية، رُمي كيسٌ مملوء بدبابير مخمورة من امتصاص العنب داخل غرفة الاجتماعات المخصصة لوحدة الشبيبة في أثناء الاجتماع الشهري الذي يقوده زيتون أبو طرّة.

لم يستطع أحد أن يثبت أن الرفاق الثلاثة مسؤولون عن الجريمة. لقد اختفى الفاعل في مساء المنارة. وكان خالد في البيت يكتب وظائفه، بينما كان عابد يسرح بالخراف الصغيرة، وكان حامد نائماً بسبب وجع ضرسه. في الوقت الذي كان ثلث أهل البلدة واثقين من الفاعل.

وعجزت جميع المكاتب الحزبية العاملة في البلدة عن استجواب أحمد الشايب، آملة أن يكون لديه، عبر مصادره، أيّ خبر طائش يمكن أن يؤكد اشتراك واحد من هؤلاء الشياطين في تدبير تلك الجريمة المروعة. وفي نفسه كان يقول لزيتون أبو طرّة: «حتى لو رأيتهم بعيني يا منفوخ، ما رح قول لك، أو لأي واحد من أتباعك أيّ شيء». وصار يتعمد المرور مساءً أمام مكتب الشبيبة، ليطلّ برأسه، ويقول بلهجة متخاذلة بريئة مدلّسة:

«الله يمسّيكم بالخير!». ويستمتع برؤية ذلك المشهد• الفريد الذي يضم زيتون وواحداً من زملائه، وهم يكتبون المَحاضر، وقد انتفخوا كالجرار. ليسوا اثنين فقط، بل كان أكثر من ثلاثة وثلاثين شابّاً من أبناء المنارة قد أصيبوا باللسعات السامة، في وجوههم، أو أيديهم، أو أكتافهم، وانتفخوا مثل المعاليف المعدّة للذبح.

وأقسم أحمد أنه حتى اليوم لا يعرف من الذي فعل ذلك، ولكن المنارة كانت تعجّ بروح الثأر التي يولّدها العنف الفالت الذي يمارسه النبريش. قال لي إن البلدة كانت تطفو على مستنقع بليدٍ من الكراهية العميقة المخبّأة في كل صدر من صدور أهلها. وقد بدا عابد وحامد وخالد مثقَلين بالحزن لأنهم كانوا متّهمين بالجريمة. كان عابد أكثرهم غضباً. قال لأحمد: «لو بعرف مين!». وكان متأكداً من أن لدى أحد ما في البلدة رغبة في حشرهم داخل أقفاص لعنات المنارة البشعة.

ولكن زيتون أيضاً كان مؤمناً إيماناً عميقاً، أن الثلاثة هم من أرسل الدبابير. راح يشتمهم في كل مكان. وأخذ يعدّ لخطّة انتقام موازية، تقتلعهم من الوجود إذا أمكن. تنطوي خطّته على عناصر لا تتوفر لحامد وعابد وخالد. وأهمها إمكانية تجنيد قوة السلطة، وأدواتها جميعاً، للتحالف معاً ضد الأعمال التخريبية لهم. وأولى هذه الوسائل هي القوة الإعلامية الضخمة التي تعمّدت الضغط عليهم داخل المنارة: نُبذوا خارج أنشطة الشبيبة إلى الأبد. ووُضعت إشارة حمراء حول أسمائهم في السجلّ الحزبي. وأُرسلت ملفّاتهم إلى الإعدادية محبّرة بلائحة قباحات ورذالات وأعمال مشينة طويلة ملأت أربع صفحات لكلّ منهم. وقد أوصل لديّ مصادري هذا الخبر إليهم فور وروده إليه.

كانوا قد تصالحوا في الشتاء، حين دعاهم إلى «وقعة غمّة» طبختها أمّه. وهناك في بيته، وأمام جاط تتكوّم داخله أحشاء خروف، طلب أن

يسامحوه. فسامحوه. والتهم كل واحد منهم متراً من الأمعاء المحشوّة بالرزّ والتوابل الحريفة.

كلّ ذلك وضعهم في مواقف محرجة، أخطرها العزلة المحتملة من أقرانهم (كان زيتون يقول لأفراد وحدته: تعرفون أن هؤلاء معادون للحزب والثورة، وأنهم زعران بلا أدب ولا تربية، ونفضّل ألا تختلطوا بهم، لأنكم تمثّلون مستقبل البلد). التهديد بحرمانهم من الوظائف في الدولة حين يكبرون. الوعيد بتربيتهم في الإعدادية. ولهذا قرّروا أن يتوقفوا عن متابعة دراستهم. ليس هناك من سيجبرهم على ذلك كما توقعوا. إذ لم يعبأ والد عابد بالأمر، ودبّر له عملاً لدى الكومجي حسن سمعان على طريق السويداء. بينما قالت سهى إنها ستضع خالد في زريبة الجداء إذا لم يذهب إلى الإعدادية. وحدها حليمة، أم حامد، ابتسمت له وأشارت بيدها بلا مبالاة: «عمرها!».

وقبل أن تبدأ الدراسة بأيام، فوجئ أمين سرّ إعدادية الدير بخالد وحامد وعابد يدخلون معاً إلى مكتبه، ويطلبون تسجيلهم في الصف السابع. «لماذا لم يأتِ أولياؤكم؟»، قال بفصحى مجلجلة. «بيّي مسافر»، و«بيّي ما بيجي قبل المساء من الشغل عدا يوم الجمعة»، و«بيّي عسكري. مستنفر». خلص! صرخ أمين السر، وهو ينظر إليهم وقد ضيّق عينه اليسار، ورفع حاجبه الأيمن. وحين أخذ الطلبات، وتصفّحها. سجّل الأسماء، وهو يتفحّصهم واحداً بعد آخر، ثم قال: «انقلعوا الآن، وتعالوا السبت مبكّرين على الدوام!».

ما سيقولونه في ما بعد لأحمد الشايب، الذي غدا مُخبراً لديهم، وكاتم أسرار، ومرشداً في آن واحد، هو أن هيفاء الكافي بعثت إلى خالد رسالة قصيرة مؤلفة من بضع كلمات: «أنا رايحة ع الإعدادية. خلّيك معي. لا تترك المدرسة!». ما العمل؟ كان قرار ترك الدراسة قد اتخذ بعقلانية

نجمت عن فحص دقيق لكلّ الاحتمالات المنذرة التي ستواجههم هناك، في ظل التقارير المسوّدة التي سبقتهم. ولكن خالد بات مستعداً لمواجهة أي عاقبة بعد رسالة هيفاء، وقال لرفيقيه: «لازم روح ع المدرسة. هيفاء ع بتنتظرني». ومع ذلك فقد كان لديه من الثبات المبدئي (هذا ما قاله لرفيقيه اللذين قالا: بل الشجاعة) أن يطلب التصويت على الأمر. وضعوا القرار في التصويت السرّي فعلاً، فنال ثلاثة أصوات من ثلاثة أصوات. ومنذ ذلك اليوم صار في وسعهم أن يتباهوا أنهم يدرسون في الإعدادية بسبب الحب، لا بسبب الطموح إلى أيّ غاية. وفي ذلك اليوم ذهبوا إلى سهل الزرازير، وصرخوا هاتفين: «عاش الحبّ!». وتركوا أصواتهم هناك، آملين أن تبقى إلى آخر أعمارهم. وسيقول أحمد الشايب، في ما بعد، إن السهل كان قد أضحى مستودعاً لأحلام أهل المنارة وأمنياتهم وطلباتهم ومعارفهم وذكرياتهم، منذ أن اكتشف قاسم الفضل أنه يستطيع أن يخزّن فيه صوته. وأن الأصوات تبقى هناك، لا يستطيع أحد أن يزيلها، إلا صاحبها. وقد بقي ذلك الهتاف الثلاثي محبوساً هناك في السهل، دون أن يعرف أحد متى يمكن أن يفكّ قيده.

ما أسعدهم هو أن قامات الفتيان الثلاثة، كانت قد ارتفعت بما يناسب هيفاء، التي لم يزدد طولها كثيراً في ذلك الصيف. وقد بدا أن خالد صار أطول منها بقليل يكفي كي يتمكّن من النظر إليها من الأعلى. وهو ما شجّعه على أن يرافقها طول الاستراحات، فقد كانا يجولان في أطراف الباحة التي تعجّ بالطلاب والطالبات قريباً من سور المدرسة. وسوف يصف حبّه لها بتلك السنتيمترات التي تُمنح له كزيادة في الطول. أحبّها ثلاثة سنتيمترات، أو خمسة. هذا ما أضحى يقوله في الصف الثامن. أو سبعة سنتيمترات. وهي الفارق الذي ضمن أنه سيبقى لهما بعد أن صارا في الصف التاسع.

غير أن ما لم يفهموه هو تلك العداوة المتحرّشة الناقمة التي أظهرها لهم الموجّه المشرف، والمدرّب العسكري في المدرسة معاً. وبسبب الحماسة، والحرص على أن يظل حامد وعابد حارسين، ومراقبين لمشاوير خالد وهيفاء في مضمار الباحة، لم يلاحظا أن الأستاذ حامل العصا كان يبني مرصداً من الوشاة، والواشيات، في أطراف المكان. وأنه ظل طول الوقت يراقب شلّتهم من شرفة الممرّ (الكوريدور) الخارجي المحميّ بشِباك من الحديد في الطابق الأول الذي يضمّ صفوفهم، غاضباً مكفهرّ الوجه، إلى أن حذّرهم لديّ مصادري، الذي كان آنئذ في البكالوريا، من هذا الخطر.

كان نائل يجد دائماً أن الوشاية ليست هي المشكلة، بل الواشي نفسه، إنه كسر في الكيان الإنساني، تهشّم في الوجدان، ضغينة داخلية تتورّم وتتقيّح داخل الضمير البشري بلا أيّ سبب أو فائدة، وأن أولئك المدرّسين الذين كانوا يخلقون الوشاة هم مجرّد أبالسة بلا أيّ وازع أخلاقي. فيما رأى أحمد أن المسألة كانت لامبالاة تتوخى الفائدة العاجلة فحسب. وقد دهش عابد مثلاً من أنه كان يجد في كل منعطف يسير فيه واشياً ما كان قد سبقه بورقة تتبع خطاه.

وحين جاؤوا إلى المدرسة، كانوا قد نسوا التقارير المخمّرة هناك، ولم يعرفوا شيئاً عن الاتصالات الأمنية المتواصلة بين رعاة المدارس في المنارة والدير. وفي الظل، وراء الحرص والدقة التي اتسم بها عمل زيتون أبو طرّة، كان يتابع الاطلاع على أنشطة طلاب الإعدادية الذين صاروا جميعاً أعضاء في منظمته «آليّاً»، بحسب ما كان يردّد أمام الناس، حين كانت أمه تتباهى، وتفخر أن ابنها أضحى قائداً لشباب المنارة.

وقد تمكّن بفضل هذه السلطة الواسعة الممنوحة له، من استلام تقارير

دورية (أسبوعية يا شباب، قال لهم لديّ مصادري) عن أنشطة العدو الداخلي في إعدادية السماقيات. ومن بين تلك التقارير اختار الصفحات التي تتحدث عن العلاقة بين خالد سيف الدين وهيفاء الكافي. من كتب التقرير؟ كانت الأوراق بين يدي زيتون، وكان يشعر أن هذه العلاقة خيانة، وانحطاط أخلاقيّ شامل، استغفال لقضايا البلد، انحلال.

استُدعيت البنت «للتحقيق في وحدة الشبيبة مساء يوم الأربعاء الموافق لـ.../ .../ ...».

عمّ الذعر منزل آل الكافي، أيّاً ما كانت الأسباب والنتائج، خاصة أن استدعاء هيفاء الكافي كان السابقة الأولى في تاريخ المنارة. إذ كانت القيادات التي سبقت زيتون أبو طرّة تتوخّى السرية، والتخفي، والأسئلة المكتوبة في الظل، لا العلنية التي تسير في طريق المحاكمات الميدانية. وفي سابقة أخرى، قال نائل الجوف إن زيتون رفض وساطة برهان العلمي ذاته. وإن الرجل عاد مغلولاً، ومباغتاً من شحّ استقباله، وجفاف الكلمات التي جوبه بها، وروح «الفوقية» التي عامله بها أبو طرّة. كما قال لزوجته. «ابن الخاينة»، قال لنفسه أيضاً، وهو يغادر بيت زيتون مهزوماً. شعر بالعار من أن يكون قد خُذل وأُهين ورُدّ خائباً من قبل شاب نصف متعلم ولا يزيد عمره عن الرابعة والعشرين. «ولكْ يا زيتون، أنا برهان العلمي! - قال له حين رفض جميع رجاءاته - في كل عمري لم يرفض لي أحد طلباً». فابتسم زيتون، وقال وهو يمطّ شفتيه بأنفة: «إلا أنا أبو علاء. طلبك مرفوض. هلّق صار في سجلّك واحد يرفض طلبك!». ولم يدرِ كيف يمكن أن يوصل الخبر إلى فتحية، أمّ هيفاء، ليس بسبب التعاطف مع قضيتها، إذ ما كان يهمه أمر البنت التي يكاد لا يذكرها، بل بسبب الخيبة. كيف يمكن أن يعود برهان العلمي خاسراً من وساطة هامشية مع ولدٍ هشّ عديم الأهلية؟ متأسّف؟ هل يقول لها: متأسف يا أم هيفاء؟ سوف يدعو

على نفسه بالعمى، والفقر، ويتمنى أن تنشقّ الأرض وتبلعه، قبل أن يغمغم بهذه الكلمات في بيت آل الكافي. أجرى عدة اتصالات مع السويداء. ولم يجد أحداً ممن يمكن أن يمون على زيتون. فقرر أن يؤجل النتائج إلى يوم آخر. وترك الهاتف يرن حتى النفس الأخير، ثلاث مرات، وهو يرى رقم فتحية الخطاب أم هيفاء على الشاشة. ثم اتصل بها في العاشرة ليلاً، واعتذر قائلاً إنه لم يكن لديه وقت للكلام مع أبو طرة. ولكن لا يكون لك أيّ همّ. غداً أو بعد غد نحلّ الموضوع. وحين تجرأت المرأة المنكوبة، وسألت لماذا لا يتصل به ويحل الأمر في الهاتف. قال: «هاااا؟ معقوووول؟ بدّك نحلّ هيك مسائل سياسية بالهواتف؟ أم هيفاء. هذا الهاتف يمكن أن يكون مراقباً من السي آي إي نفسها. ولو!».

صمتت المرأة هناك، فقال لها بلهجة فاترة: «لا تتصلي فيّي، أنا بخبّرك». ثم انتظر قليلاً وقال وهو يضيف إلى نبرته بعض العجين: «ارتاحي. خلص. ارتاحي!». وحين أغلق الخط، شعر أنه ذليل ومحاصر، ونذل. ولام نفسه لأنه قبِل أن يكون وسيطاً مع كلب.

هيفاء ظلت تبكي طول الليل. كان رعبها من مواجهة المحققين يزداد مع توغل الظلام، وهي عاجزة عن النوم، راحت تبكي، وترتعش، ولم ينفع اللحاف الإضافي في ردع البرد عن ذلك الدقّ العنيف الذي بدا لها محطماً. وراحت تتخيّل أنهم قد يسجنونها، أو يُركبونها حماراً ويدورون بها في البلدة. وسألت أمها عمّا إذا كانت حبلى من المشي والكلام مع خالد في المدرسة. وماذا ستفعلان بالولد القادم إذا كان في بطنها؟ فصاحت أمها، وهي تنشّف عرقها: «سدّي حلقك! سدّي حلقك! حمارة، وما بتفهمي أيّ شي، وبتحبّي؟ يلعن أبوك على أبو الحبّ!».

أبوها المسافر في الكويت، اتصل وقال لزوجته: «أعطي هذا الواوي مالاً. اشتري له تنكة زيت، أيَّ شيء!». لكن زيتون رفض كل تلك العروض،

وقال: «القانون. ست أم هيفاء. القانون فوق الجميع. تحقيق يعني تحقيق. يعني سين وجيم، وليس زيت وصابون، ولا حتى سيارة ديهاتسو نفسها».

وراح الموعد يقترب، فيما انقطعت هيفاء عن الذهاب إلى المدرسة. وفي حين لم يعد لدى خالد وحامد وعابد أيّ رغبة في الذهاب إلى هناك، فقد واظبوا على ذلك آملين أن تأتي هيفاء التي لم يستطيعوا الاتصال بها. وبدا لديّ مصادري خاوياً طول الوقت. وقال لي إن السطوة تغلق العقل، وتبلّل الإرادة بماء الخيبة والعجز. ولهذا بدا كأن العالم صار مصمتاً مغلقاً بلا أخبار، عدا تلك التي تشير إلى إصرار زيتون، الذي لم يستطع أحد ليَّ ذراعه، على التحقيق مع البنت حول ما سمّي المخالفات الأخلاقية لمبادئ الشبيبة.

وفي تلك الليلة حلم حامد أنه سافر إلى السويداء، واجتمع بأخيه الكبير في سوق الخضار، وشرح له الوضع الحزين لخالد وهيفاء، وأن أخاه جاء إلى المنارة على ظهر رأس من البصل، وأنهى كلّ شيء. وفي الصباح أخبر رفاقه بالحلم. قال عابد: «تعالوا نروح ونجرّب!».

لم يصلوا إلى المدرسة في ذلك اليوم، انتظروا الباص المقبل في العاشرة، وصعدوا إليه، وسافروا إلى السويداء. وهناك وجدوا سامي ينزّل أكياس البصل من شاحنة كبيرة حمراء كانت تقف وسط السوق الممتلئ بالصراخ. ابتسم لهم، ولوّح بذراعه الحرّة، ثم أشار لهم كي ينتظروه ريثما ينهي عمله. وقفوا هناك يشمّون رائحة الخضار والفواكه، وقال حامد: «العمال أحسن الناس». قال خالد: «يا ربّ يساعدونا!». قال عابد: «هذي المرّة رح يتحقق الحلم يا خالد». وحين انتهى سامي، ناداهم، وأخذهم إلى مطعم الفلافل المشرف على السوق، وقدّم لكلّ واحد منهم سندويشة محشوة بالفلافل والبندورة والمخلّل، وعلبة (كولا) باردة. وحين شبعوا،

قال: «تعالوا». ومشوا في الشارع، وسألهم: «ها؟ شو يا حامد؟». عندئذٍ شرح له كلّ القصة. فنظر إلى خالد بعين خبيثة، وقال: «ولا! صرت تحبّ من الصغر؟». استحى خالد، وغمغم وهو يرتعد: «مثل أختي». فضحك سامي وضرب كفّاً بكفّ (وهو تقليد لم يعتادوا عليه بعد)، وقال: «بلا خَرط ولا دجل ولاه، خلص. بتحبّ البنت، وشو فيها يعني؟ بس قلت لي إن زيتون نفسه بدّو يحقّق مع البنت؟»، قال خالد: «اي». قال سامي: «شوف الخرا! اسمعوا. روحوا واركبوا الباص ع المنارة، لا تقولوا إنكم شفتوني. مفهوم؟ وفي المنارة رح تسمعوا كلام ثاني». قال حامد: «رح تاخذ العمال معك؟». «أيَّ عمال؟» قال سامي. «العمال هناك في السوق». فصار سامي يقهقه. «عمّال؟ هذول؟ يعني عم تفكروا أنو رح نقوم بثورة ضد زيتون أبو طرّة؟». فصار الأولاد الثلاثة يهزّون رؤوسهم موافقين. قهقه سامي ثانية، وصار يهز رأسه: «بتعرفوا شو ممكن يعملوا هذول العمال إذا قلتلهم شو عم تخططوا؟ يمكن يحشوا حلوقكم بالبصل، وأطيازكم بالثوم. شو رأيكم؟». تابع وهو يبتسم لهم: «روحوا. خلص. لا عمال ولا بطيخ. ولك أنا سامي أبو الليل!». ثم أعطى كل واحد منهم خمس ليرات.

حين وصلوا إلى المنارة ظهراً، كانوا غاضبين (قليلاً) من سامي الذي عاملهم كأنهم لا يعرفون شيئاً عن العمال. لكن أمكنهم الصفح عنه، تماماً، حين وجدوا أحمد الشايب في انتظارهم عند الجسر. صار يصفق لهم. قال لهم إن زيتون ألغى التحقيق مع هيفاء. ومنذ ساعة خرج يركض في البلدة، فتح المقرّ واتصل بأعضاء قيادة وحدة الشبيبة، ثم اتصل بأعضاء الوحدة، وطلب أن يأتوا إلى المقر. وحين اكتمل النصاب، لم يقل كلمة قبل اكتمال النصاب. المهم ألقى كلمة قال فيها إن البنت بريئة، بريئة ورايتها بيضاء مثل الثلج، مثل جبل الشيخ. وإن الدعوة إلى التحقيق كانت خطأ، خطأ مئة بالمئة. والمطلوب الآن ليس براءة البنت، فقط، بل نسيان الأمر. انسوا

هذه القضية، وأخبروا أهل المنارة أن ينسوها، وأن يضعوا في فراغ النسيان كلمة: بيضاء، وصورة لهذه البنت البريئة التي ظلمها الوشاة كتّاب التقارير.

«لكن مين خبّرك بهذا يا أحمد؟»، قال خالد، وهو عاجز عن التصديق. «خالد! خالد. خالد. خالد! نسيت أنو لديّ مصادري؟!». ضحكوا جميعاً، وقال خالد: «أنتو معزومين جميعاً على أكلة دبس وطحينة». قال حامد: «الخبز من بيتنا». وتفرقوا، بعد أن اتفقوا على اللقاء عند الصخرات. سرق خالد نصف كيلو من دبس العنب الذي اشتروه من قنوات، وأخذ علبة الطحينة الصغيرة، وأحضر حامد خمسة أرغفة من الخبز العربي الملوّح. وفي ظل صخرات العسل، أكلوا الخليط المعشّق بدوائر وخطوط لا نهائية من الدبس الخرنوبي والطحينة السمراء.

ظل السر الذي جعل سامي ينجح في ردع زيتون مخبّأً في الغيب، وسرعان ما نُسي الأمر بالفعل. ولأول مرة قال حامد: «أظن أنو الله معنا هالأيام». وتأكد لهم، بعد هذا الحدث بشهر فقط، أن قوة الله التي اعتمدوا عليها بدأت تجعل زيتون يدفع ثمن هذه الاندفاعة الحمقاء المتحدية، حين جمعهم لديّ مصادري وقال وهو يرقّص حاجبيه إن «النبريش صار أميناً للفرقة الحزبية في المنارة». فصرخ خالد: «يا ويلي! برهان العلمي؟». وانصرف رفيقاه حامد وعابد للتخفيف من أثر الصدمة التي جعلته يفكر أن ارتقاء النبريش إلى هذا الموقع الحزبي الذي يجعله المسؤول الأول في واجهة المنارة كلّها سوف يشكل خطراً كبيراً على تحركاته العشقية. وذلك بالقول إن النبريش يكره زيتون، وسوف ترى ماذا سيفعل به.

غير أن الخلاف لم يحدث بينهم بسبب الموقف من النبريش، بل بسبب الموقف من الله. هل تدخّل فعلاً خلال الأيام الأخيرة، أم أنه اكتفى بالتفرج وترك الناس يفعلون ما يشاؤون، بينما هو يعدّ حساء للمساء، أو

يطلب إمدادات من الحطب لنار جهنم؟ ولم يكن ممكناً حسم الموضوع، وبدا تدخُّل أحمد الشايب فظاً هذه المرة. صحيح أنه لم يكن من الصعب عليه أن يدّعي أن لديه مصادر في السماء السابعة (ومن يستطيع أن ينقض قوله هذا؟) غير أنه حار في الموقف من الخلاف نفسه. وهي حيرة لم يجرّبها من قبل قط. هل الله شاهد، أم مشارك؟ وحين قال إن الله لا يتخلى عن الناس، راح خالد يسأله، ويسأل رفيقيه: «وين كان لما ضربنا العلمي بالعصا؟». النتيجة لم تحسم. وظل أحمد لديّ مصادري يفكر في الأمر طويلاً. وطلب مهلة قبل أن يقرر الانضمام إلى شلّة تحييد الله. وفي اليوم التالي جاء وعرض عليهم أن يتحاكموا عند أبي محمود، ليعرفوا ماذا يقول المعلم.

كانت تلك المناقشات تأتي بلا قصد، غير أنها تلبث في ضمير عابد مثل جرذ. تنخر هناك في المضائق المعتمة المتسائلة عما يحدث له، أو لصديقيه. وكان الله يبدو قريباً منه في أوقات كثيرة حين يشعر باليأس، والخذلان المتكرر، والعجز عن السعادة، والرهبة من البيت، والرغبة في الرحيل إلى تلك الأرض المشمسة البعيدة التي تأتي في الحلم. ثم سرعان ما يبدأ في الشك في أيّ وجود. يلعن حياته الفقيرة المجدبة التي يعجز فيها عن فعل شيء.

ولم يقل أبو محمود شيئاً أكثر من تلك الجملة التي يحفظها. راح يهز رأسه، ثم سحب نفساً طويلاً من الهواء، وقال بصوت رقيق دامع: «سأعمل صلحاً بينكم وبين ربّكم. فما هي شروطكم؟».

قال نائل إن أبو محمود، واسمه إسماعيل جرّار، كان يحفظ ميخائيل نعيمة كاملاً، وكان يحتفظ في بيته بمؤلفاته الكاملة وحدها دون أيّ كتاب آخر. وقد ذهب إلى لبنان أكثر من مرة حين كان نعيمة حياً، وزاره في دارته

في بسكنتنا. وعلى الرغم من أن جيل النبريش، ومن جاء بعده من الشبان، لم يحفل بنعيمة أبداً، واعتبروه واعظاً رومانسياً متخلفاً، فقد كانت عباراته المنقوشة على جدار عقل إسماعيل جرّار، وخياله الغريب، يثيران غيظهم، ويرعبان وجودهم بخبرات الحياة التي تحتشد بداخلهما. وهكذا كان الرجل هو أول من تصدّى للنبريش حين أشاع مقولة العصا لمن عصى، قائلاً: «المعلم يقول يا أستاذ: من أطاع عصاك فقد عصاك». فقال له برهان العلمي غاضباً: «ما بيتجرّأ ابن مره أنو يعصاني لما يشوف العصا!». فحدجه إسماعيل جرّار من حاجبيه السميكين، بعينين ساخرتين، وغمغم: «أترضى أن تكون عصاك أوفر كرامة منك في عيون الناس؟».

وقال لي أحمد في ما بعد إن عابد وحامد وخالد كانوا يشعرون يوماً بعد آخر أن الله يتخلى عنهم، ولم تنفع كلمات إسماعيل في تهدئة العطب المبكر الذي أصاب أرواحهم، وهم يرون كيف يجتاح زيتون البلدة، وسوف يأتي من بعده النبريش أيضاً، فيعتم العالم، ولا يظهر في الطريق أي بصيص.

كانوا حينئذ في الصف الثامن. وقد ظهرت في وجوهم شعرات سوداء ناعمة، تركت حسب الاتفاق كي تنمو وتصبح غامقة وخشنة أكثر. تلك هي تعليمات أحمد المجرّب الذي كان يحلق ذقنه. وقد أفضت بعد ثلاثة أشهر إلى مسح وجوههم الفتية بمسحة من شحوب غامض غريب محذر جعل الفتيان الآخرين عاجزين عن فهم سر التشابه المنذر الذي بدأ يشمل الثلاثة معاً في هذه السن.

وفي الزمن نفسه تقريباً بدأ صوت عابد الجوف يخشن ويمتلئ برعشات رجولية تفسخ العقد مع الطفولة، أكثر من اللحى المبدّدة على الذقن والسالفين. لماذا؟ لم يطرح حامد السؤال عن التبدّل، بل عن أسبقية

التبدل. عن الأسباب التي أدت إلى تقدم عابد في مضمار العمر. فالاشتراك في سواد شعر الذقن، كان يجب أن يترافق باشتراك مماثل في تغيّر نبرة الصوت. ولم يجد الأصدقاء أيّ سندٍ علميّ يمكن أن يدعم تفسيراً يحلّ فيه قصة التناقض الجديد، لا في الكتب، ولا في مصادر أحمد الشايب. غير أن أحمد أوضح لخالد وحامد وعابد أن ما يحدث هو نوع من التناقض الثانوي الذي لا قيمة له في الحياة، وأن عليهم أن يتجاهلوا الأمر تماماً، ريثما يحلّ الزمن هذا التناقض، ويأتي خالد وحامد إلى جنة الأصوات الرجولية المنعشة آمنين سعداء، في حين يتربص بهم أعداء خطرون من أمثال زيتون أبو طرّة، وبرهان النبريش.

خامر عابد شعور بالغربة وسط الصحبة التي كان صوته يخترق فيها الرِّتم المشترك. صار يبدو حزيناً، ويظل صامتاً عاجزاً عن الكلام أو الرد على حوارات صديقيه. وحين يمشي في الشارع يكلّم نفسه، ويحاول أن يبرّد صوته في الهواء قرب المستنقعات المائية التي تشكلها الأمطار في مجرى الوادي الشتوي أسفل التل. وهو حائر في أمر تلك النبرة الرجولية المباغتة الثقيلة التي تهيمن على حبال صوته وتمنعه من المشاركة في اللعب، أو الكلام مع خالد وحامد. وأكثر ما أرعبه أن ظنّ أنهما لن يلحقا به، واعتبر أن الصوت يمكن أن يفرّق بينه وبين صديقيه، وقال نائل الجوف إن حامد وخالد شعرا بخوفٍ مماثل، بينما كان عابد مذعوراً من الظن أنهما لن يلحقا به أبداً. فقد مرّت خمسة أشهر تقريباً من السنة الدراسية، وما زال خالد وحامد آمنين في نعمة الأصوات التي لم تكن تشير إلى أي شيء. وصار يسأل نفسه: هل الحياة هي التي تبدل الصوت، أم أن الصوت هو الذي يغيّر الحياة؟ وفكر أن يسأل لديّ مصادري عما إذا كان يستطيع أن يكشط الطبقة الخشنة كي يعود إلى طفولة صديقيه؟ لا لأنه يحب ساعات الطفولة وأيامها، بل

لأنه يحب خالد وحامد. ولكنه لم يفعل. كيف يمكن أن يفسر الشايب هذا السؤال؟ وهل يستطيع أن يفشي المشاعر التي تشغل باله لواحد من خارج دائرة الصداقة؟ لا.

وذات يوم استُدعي إلى غرفة التوجيه. كان في الغرفة أستاذان من أولئك الذين يروّعون الطلاب في الباحة، أو في الاصطفاف الصباحي. وكان على الطاولة سكين وعصا وسوط مجدول من أشرطة الهاتف ومحبرتان وقلم رصاص كبير الحجم وجمجمة من البلاستيك محمولة على خازوق فضّي متصل بقاعدة من الخشب. «سؤال». قال له الموجه الممتلئ الذي يجلس على كرسي من الخيزران، ويرفع قدميه فوق الطاولة إن صوته يشبه جرش البرغل، بينما اتهمه الآخر النحيل الطويل بأنه حشاش. ثم وجّه نحوه نظرة ازدراء وقال، وهو يشير إلى أسفل بطنه بالعصا: «عم تلعب بهذا الشيء ولا؟». أحس عابد أنه بات مكشوفاً الآن، وظن (سوف يلعن الشيطان في ما بعد الذي ورّطه في هذا الظن) أن أحمد الشايب سرّب إلى التوجيه المدرسي قصة اللعب. فرفع رأسه وقال بثبات: «نعم أستاذ». صفعه النحيل على خدّه، وضربه الممتلئ بالعصا على قفاه وفخذه وذراعه. ثم قرر الاثنان تحويله إلى الصحة. كتب الموجه النحيل في الإحالة يقول: «كذا وكذا وكذا و.... خشونة صوت مبكّرة».

كان البناء ذو اللون القرميدي المستقر في تلة محاطة بالصخور غربي السماقيات، المكتوب على واجهته بالخط الكوفي الأزرق، مديرية الصحة، يبعث في أرواح الطلبة شعوراً بالتعب والملل. ولهذا اشترى خالد في المساء نصف كيلو سكر نبات، وأعطاه لعابد آملاً أن يساعد في تليين مخارج الحروف، وتسكين خشونة الكلمات، كي يستطيع مواجهة لحظة الصحة المقبلة. فأمضى عابد الخميس بعد الظهر، ويوم الجمعة

كاملاً، وهو يمصّ تلك القطع البيضاء الشاحبة واحدة وراء أخرى، وهو يكاد يختنق من الطعم الحلو الفاتر الذي يتغلغل في أنحاء حلقه بلا نفع.

وفي يوم السبت، مضوا منذ الصباح الباكر إلى الصخرات. وهناك راح خالد وحامد يصرخون وهم يركضون على حواف بركة الزعتر الجافة. كانت أصواتهم تملأ الفراغ الصخري وتعود إليهم صدئة مكسورة محطمة وحادة مثل حواف سكين. قال لي نائل إن حامد شرح لهم إن الصخور تعيد الصوت إليهم بعد أن تقسمه وتنحته. لهذا لا فائدة منها. وقال إنه يظن أن التراب أفضل. التراب يمتص الصوت. فذهبوا إلى سهل الزرازير وأعادوا الركض والصراخ ابتداء من أرض الجوز حتى حدود أرض العسل. وعدا تلك الجروح والخدوش التي ظهرت في بلعوميهما، لم يتغيّر في مستوى الصوت، أو في إيقاعه، أو في نبرته أي شيء. ظل صوت خالد قريباً من صوت شبّابة حزينة مثقوبة، وظل صوت حامد رفيعاً مثل خيط. وبدت الأمور تسير في طريق عبثية لا معنى لها، خاصة حين نقل إليهم أحمد الشايب أن المرأة التي تسيطر على الصحة لا تتهاون أبداً في أي أمر يمكن أن يضر بالدولة. وهي في الحقيقة تفكر بطريقة مختلفة عن جميع الذين استلموا رئاسة تلك الدائرة، بحيث يمكن تلخيص سياستها هكذا: «الباب يلّي بتجيك منو الريح سدّه واستريح!» وهو أخطر قانون تمت صياغته في العهد الأخير لبرهان النبريش وزيتون أبو طرّة وغيرهما من قادة البلد، إذ يعمل الموظفون الكبار على قاعدة الضرب بيد من حديد، ومنع التجاوزات المحتملة، وعدم الأخذ بالأسباب المخففة للجرائم السياسية. قال لديّ مصادري محذراً عابد الجوف: «أمامك خطرين: الأول هو 'الموضوع' ذاته يلّي يمكن يكون سبب خشونة الصوت. والثاني هو الخشونة نفسها».

هذه المرة عمَّ الثلاثة حزن رمادي مسوّر بألم دفين عاجز عن التعبير

العلني، والمواجهة الرافضة. والأمر الوحيد الذي استطاعوا التوصل إليه، هو أن يترك خالد وحامد المدرسة إذا ما تعرّض عابد لأي ضرر من الصحة المدرسية. وما خفف من ذلك الحزن هو أن أبا عابد بدأ ينهره كلما غضب منه، وصار يشبّه صوته بصوت التيس. فتسللوا إلى زريبة محمود لفتة وراقبوا التيس إلى أن عطس وهمهم. همهم عابد، وقال: «العمى. فعلاً يشبه صوتي صوته». ضحكوا حتى انقلبوا على ظهورهم، وهي حركة محبّبة إليهم جميعاً، من هذا التشابه. فيما كان التيس ينظر إليهم غاضباً من وراء حائط الدبش المسيّج بأشرطة حديدية شائكة.

ولمواجهة المحاكمة في الصحة المدرسية قرر عابد أن يصمت. قال حامد إن الصمت فاتر وسوف يغضب السيدة المشرفة على الدائرة. قال خالد إن الصمت أقوى من الموجّه النحيل. قال عابد إن الصمت شجرة. قال خالد: صمت الحجارة. قال حامد: صمت القمر. صمت الليل. صمت الحمار. قال عابد: العصافير ثرثارة لهذا يصطادونها. صمت الفخاخ. صمت المرايا. صمت القبور. وقد حماه الصمت في اليوم التالي من المضايقات. رفض أن يتحدث مع أي بنت من التلميذات اللواتي اقتربن منه في الباحة: «صباح الخير». فيومئ برأسه ويبتسم. «يا عابد» تناديه إحداهن، فلا يرد، بل يقترب من ناحيتها ويستفسر منها بهزّات من الرأس عما تريد قوله. وحين شعر الثلاثة أن مجموعة من البنات يردن إرغام عابد على الكلام، راح خالد وحامد يجيبان عن الأسئلة: «صيد الطيور؟». عابد يستطيع اصطياد أي طائر بالمطاطة أينما كان. السباحة؟ سباق الركض؟ صيد الدبابير والأفاعي؟ وفي الفرصة الأخيرة من نهار المدرسة عرض عابد بصمت أمام البنات المندهشات زجاجة دواء شفافة ممتلئة بالنمل الطيار. كانت أجنحة النمل المعدّ للوضع في أفخاخ صيد العصافير تلمع في الضوء الشمسي الساطع الذي جعل البنات يشهقن مسحورات.

ومع ذلك كله فقد اعتبر الأصدقاء أن هذا السلوك المتحرش يعبّر عن انحراف أخلاقي مقلق. هل يعقل أن تنضم بنات الصف الثامن إلى حملة الموجهين والصحة المدرسية؟ يعرف الثلاثة أن زيتون يستطيع الضغط على جميع الطلاب، بفضل وجوده في قيادة الشبيبة. ومن النادر أن يعترض أحد الطلاب، أو يرفض الطاعة، أو التنفيذ. إذ كان زيتون يسرع إلى والده أو والدته قائلاً: «ربِّ ابنك يا خال. ترى مستقبل الولد أو البنت على كف عفريت». لا ضرورة لشرح أي شيء آخر. يعرف أبناء المنارة، والسماقيات، العفريت الذي يهدد به زيتون. ولهذا شكك الثلاثة في تحركات البنات حول عابد. ولم تستطع هيفاء معرفة الحقيقة. قالت لهم إنها لم تلاحظ أن أحداً دفعهن لإرغام عابد على الكلام. ثم اتفقوا أن يستمر عابد في صمته، دون أن يفكروا في أسباب الذين يريدون إرغامه على الكلام. وصاروا يعودون معاً من السماقيات مشياً، في الأيام الدافئة، مبتعدين عن صخب أولاد المنارة الذين يعودون في سيارات الشحن. يستمتعون بصوت عابد الثخين، ويضحكون كلما تحدث أو أجاب عن سؤال لخالد وحامد، ويقولون: «حكى التيس». ويضحكون مرة ثانية، حين يظهر ذلك التباين المحبب بين صوتي خالد وحامد الطفوليين، وصوت عابد الجهير.

في ذلك اليوم برز أمامهم من وراء الصخور التي راكمها البلدوزر على جانبي الطريق الزراعية، مجموعة من عشرة شبان ووقفوا ينتظرونهم. كان من بينهم شبان في الصف العاشر، والحادي عشر والبكالوريا، بدؤوا يشيرون نحوهم بأيديهم ساخرين. قال خالد: «تعالوا نرجع». قال حامد: «ما بظنّ أننا رح نقدر. طلّع ورانا». كان أربعة آخرون قد نفذوا من الأرض المحروثة شرقاً وصاروا يمشون نحوهم في عرض الطريق. وحين اكتمل الحصار. تقدَّم شابّ اسمه شاكر الطيار بدا كأنه يقود العصابة: «ها. ليش

عم تضحكوا؟». «وشو علاقتك أنت؟» قال عابد بحزم. أمسك خالد يده. كان يعرف المعنى وراء تلك الأصابع الدافئة الطرية التي تشد على يده. فاستقام أكثر في مواجهة الشاب الكبير. «هه!» قال الشاب بسخرية. التفت نحو عصابته. فانقسموا إلى فريقين، أمسك خمسة منهم بحامد، وأمسك الباقون بخالد، بينما ظل عابد في مواجهة الشاب. لا يعرف ما الذي حدث. فقد وجد نفسه مرمياً على أرض الطريق الترابية، بينما كان وجهٌ غاضب مكشّر يضربه على فكّيه ورأسه وكتفيه وجنبيه وهو يأمره: «قول: عاش زيتون أبو طرّة». كان عليه أن يحمي جسده من الضرب، ولن يهتف لزيتون أبداً. في البداية بدأ يصرخ، ويشتم. لكنه أخيراً حين رأى أنه لم يعد قادراً على فعل أي شيء، صمت. صار يتلقى الضرب كما لو كان يريد أن ينام. أو يتذكر شجرة. أغمض عينيه كما تعوّد في زمن برهان النبريش: يذكر أنه رأى جِمالاً تسير الهوينى على درب النحل في وسط اللجاة. رأى سرباً من اللقلق. رأى طائر حجل يتسلل إلى شوكة شبرق كي يطعم أولاده. رأى أباه يضرب أمه. رأى النبريش يعضّ على لسانه وهو يصرخ: افتح إيدك. رأى ديكاً يحفر بحثاً عن الديدان. ثم تلاشت الرؤية، اختفى الأولاد وخالد وحامد والكون والنهار البارد. وعمّت ظلمة رقيقة طفا فيها على سحابة.

حين أفاق كان خالد وحامد يهزّانه وهما يبكيان: «يا عابد! لا تروح!». سيذكر هذين الصوتين مرّة ثانية وأخيرة، حين سيرغب في النوم الطويل، كي يلتقي بهما في العالم الآخر الذي رحلا إليه، بعد سنوات من هذه اللحظة. حينئذ سوف يسمع مرة ثانية صوت خالد، وصوت حامد، وهما يهتفان به: «يا عابد! لا تروح!». استيقظ متعباً، كأنما يفيق من نوم طويل غريب. كانت الشمس تسطع على حواف الحجارة الزرقاء التي جرحتها أسنان آلات الحفر العملاقة، وكانت أعشاب الطريق تتمايل بجانب وجهه

الملطخ بالدم. أراد أن يعرف ماذا يفعل صديقاه هنا، حين تذكّر وجه الشاب من آل الطيار. اجتاحته موجة من الألم، في لحم وجهه وكتفيه، وفي عظامه. كان شعور بالخزي يوجع روحه أكثر من آلام الجسد. تمنى لو أنه ظل متمدداً على التراب ولم يستيقظ مثلما فعلت الجدة فاطمة في ذلك المساء. هكذا زعلت من أبيه، وقالت: «هه. أنا رح روح». ثم نامت ولم تستيقظ. لا يستطيع أن يفرّ من اللحظة مثلما فرّت الجدة، كان عليه أن يسألها قبل أن تغادر هذه الدار وتنجو بنفسها: «كيف يمكن أن نروح متى شئنا يا جدتي؟». شعر أنه مثقل بهموم العالم وهو يسير بجانب خالد وحامد متجهين نحو المنارة. وحين بدت بيوت البلدة التي في أعلى تل القواسم، طأطأ رأسه وأخذ ينشج. بكى دون أن يتمكن من التوقف عن البكاء.

كانت الطريق خالية تماماً من البشر. فقد وصل جميع الطلاب قبل أكثر من نصف ساعة، ولم يكن أحد يلعب عند الظهر من تلاميذ الابتدائية، كما أغلق أبو النواس دكانه الكبيرة عند مدخل الساحة الكبيرة. ماذا يحدث يا ترى؟ أما الساحة فلم تكن خالية تماماً فحسب، بل كانت صامتة مترقبة كأنما تنتظر العاصفة... ما الذي يحدث هنا يا ترى؟ شعروا بالرعب من الصمت، من غياب البلدة، من المراقبة المتلصّصة التي يمكن ملاحظتها إذا ما تطلّع أيّ واحد من الثلاثة نحو النوافذ. لماذا؟ وهذه اللماذا طرحت بينهم بطريقة مختلفة عما سبق. ليس لماذا يتلصصون، بل لماذا نضطر نحن إلى أن نتلصص على المتلصصين؟ وهي قضية جديدة خشي الأصدقاء أن تسبب لهم المزيد من العداوات في المنارة. يجب أن يتركوا كامل الحرية لكل متلصص، أن يوارب ستائر نافذته، وأن يراقب الساحة، وأن يستنتج من مشيهم المرتبك الحائر ما شاء من الاستنتاجات. وكان هذا الأمر مخيفاً جداً لهم. ظاهرة جديدة لم يعهدوها من قبل في

المنارة. أن يتلصص الجميع على الساحة الفارغة. وأن يتفقوا على إزاحة الستائر بمقدار واحد. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يشعرون فيها أنهم خائفون من أن يبادر أحد المتلصصين لتقديم شكوى ضدهم. امتنعوا في البداية عن المشي، شكّلوا حلقة صغيرة وراحوا يتهامسون بداخلها عن الحل. وعن السبب الذي يدفع أهل المنارة، لإغلاق النوافذ والتلصص على مشيهم في الشارع. قال حامد: الحقيقة هي أننا لا نعرف لماذا، ولن نعرف. قال خالد: أكره أهل المنارة اللعينة. وفي تلك اللحظة خرج فتى يرتدي لوناً زيتياً، من بيت آل الساقي وراح يهتف لزيتون، فساروا في اتجاه دكان أبي محمود. وجدوه جالساً على مصطبة الدكان الترابية، يقرأ في كتاب عتيق ممزق ويتفرج على سرب حمام في الجهة المقابلة. طوى الكتاب، بعد أن وضع قلم رصاص بداخله كي يعلّم الصفحة، ثم دسّه في عبّه. قال لهم: «تعالوا. شوفوا. يطير الحمام اليوم مثل موج البحر». قال حامد: «نحنا ما شفنا البحر في حياتنا. صحيح أنّو الموج مثل سرب الحمام؟». قال أبو محمود: «هل تصالحتم مع الله يا أولاد؟». وكان في الدكان سالم السابح فسأل عابد وهو يضحك: «صحيح ضربوك لأن صوتك صار خشن يا ولد؟». قال عابد: «لا. ضربوني لأني ما قلت عاش زيتون». قال سالم: «هه هه. اهتف يا ولد. الشاب يضرّك إذا ما هتفت له. وينفعك إذا هتفت. قول عاش زيتون في الشارع، وفي بيتكم قول شو ما بدّك». صار أبو محمود يهز رأسه أسفاً، وقال: «رأت الشاة قصّابها يشحذ سكينه، فقالت له: احترس يا سيدي من أن تجرح يدك». فأشار سالم بيده، في حركة يبعد فيها الكلمات عن نفسه: «خلّي السيد نعيمة ينفعكم».

قال عابد: «رح أقطع لساني قبل هذا». قال أبو محمود كأنما يهمس لنفسه: «سيقطعونه لك قبل هذا». ثم أضاف بصوت ضارع: «اقعدوا سأحكي لكم عن مدفع ضاهر... هل تدخنون يا أولاد؟». قالوا: «لا». فراح

يهز رأسه، وينظر إلى الأفق البعيد. قال لهم إنه كان في كتيبة الدبابات في أثناء الحرب، وإنهم انسحبوا من تل الفرس في الصباح. وأنهم تركوا هناك دبابة وبداخلها عسكري من الكتيبة. راح الملازم يقهقه وهو يتخيّل كيف سيفاجئ نور الدين الأعداء الذين يحاصرون دبابته. يقهقه ويضرب كفّاً بكفّ. لأنه يعلم أن نور الدين ظل داخل الدبابة لأنه لم يقبل أن ينسحب. قال: سأموت هنا، قبل أن يعرف أبي أنني هربت. لا يجرؤ نور الدين على الذهاب إلى بيت والديه ليقول إنه ترك دبابته؛ لأن نور الدين يعرف من حكايات أبيه أن جدّه ضاهر ظل يحرس ذلك المدفع الوحيد الذي تركه الثوار كي يوهم الجيش الفرنسي أنهم ما زالوا هناك. عشرة أيام وهو يرمي القنابل، يجرّ المدفع من خلف صخرة إلى خلف صخرة ثانية. ثم يرمي قنبلة، ويختفي. هناك في صخرات العسل. أشار أبو محمود وهو يلفّ جسده بالمعطف العسكري الدافئ الطويل الذي ورثه من أيام الجندية. اختفى المدفع، وقال أبناء قرية السمان إنهم استيقظوا ذات يوم ولم يجدوا الرجل أو المدفع. ظنّ بعضهم أنه لحق بالثوار، ولكن كيف يجرّ رجل مدفعاً في طول الصخرات؟ وقال شيخ قديم إنه رآه في الحلم يعِد بالعودة، وإن المدفع سيظلّ بخير. تعرفون يا أولاد؟ أنا أصدّق العجوز، هذا المدفع يحرسنا دائماً، وحين يأتي الخطر سوف يظهر ليدافع عنا.

قال لي نائل إن لديه كتيِّباً صغيراً أصفرَ مطبوعاً في الثلاثينيات على الأرجح في أول مطبعة أنشئت في المنطقة. يسرد حكاية «مدفع ضاهر». كان الخط الذي كتبت به الكلمات فريداً. قال إن المطابع لم تعد تستخدمه إلا في طباعة الكتب التذكارية. والظاهر أن أصحاب المطبعة وجدوا أن الحكاية تتضمن رمزاً، يمكن أن يجعل الروح الوطنية، التي خبت قليلاً في تلك السنوات، حيّة، وليس لدى نائل علم بالنتائج التي أثمرت عن طباعة الحكاية، وتوزيعها، في المنطقة، ولا بمن هو الذي كتبها. والطريف أنه

ليس بين أحفاد ضاهر أيّ شخص يؤمن بهذه الحكاية. يبدو أنهم ملّوا من تكرار الكلام عن سلفٍ لم يخبّئ سوى مدفع، في وقت تنتشر فيه الروايات عن مخابئ الذهب التي تظهر في حفريات البيوت القديمة. ولدى نائل الجوف شكّ في أن يكون زعيم آل الخشاب نفسه وراء إشارات عن خرافة الحكاية. لا وجود للمدفع ولا لضاهر ولا لغيره. ولكن الكتيّب يحوي قدراً كبيراً من الشغف بتلك الشخصية، ومن الواضح أن كاتب النص قد استهواه لغز الاختفاء الذي يكشف عن أمنيات العودة. وهي تشير في رأي نائل إلى رغبة دينية أيضاً تشبه سلالات الرغبات التي توزعها جميع الأديان عن المنقذ والحامي والمخلص... الخ.

نور الدين اختفى أيضاً. وقد سُجّل هنا في لائحة حزينة يضعها أبوه على طاولة صغيرة في ركن المضافة: مفقود. يقول. هذا يعني أنه لا يزال حياً. وسوف يعود يوماً ما، حين يعود المدفع.

حزن الأولاد الثلاثة على ذكرى نور الدين الذي اختفى من بلدتهم منذ منتصف السبعينيات. تمنَّوا لو كان حيّاً وحاضراً في المنارة، وتخيّلوا أنه لن يسمح لبرهان العلمي أن يستخدم النبريش في جَلد التلاميذ، ولن يترك زيتون يدور بأنذاله في حارات البلدة. هتفوا لنور الدين وضاهر وهم عائدون. وقرروا أن يذهبوا إلى الصخرات ليبحثوا عن المدفع الضائع، كي يعيدوا نور الدين إلى أبيه الذي صار أعمى.

ومن هناك ذهبوا نحو الوعر، وبكوا قليلاً. ثم لعبوا «الغمّيضة»، ثم تفرجوا على الطحالب الرمادية العجوز وهي تكتسي لوناً أخضر مبهجاً برّاقاً عميقاً يمكن أن يزيل الخيبة والكمد، (كان حامد يبول عليها في الصيف فتخضرّ أيضاً). ثم راقبوا البراعم الضئيلة التي كانت تنمو في ظلال الحجارة، ثم تجوّلوا بين الصخور، واستمعوا لصوت الدرغلّ المختفي وسط كتل الصخور الغريبة المترقبة. جاء الربيع إذاً. وبفضل الربيع سيكون

في مقدورهم أن يستقلّوا عن المنارة. هذه هي فكرة حامد: «خلّينا نظلّ هون بالوعر. يلعن أبوهم كلهم. من صغيرهم إلى كبيرهم!». وعدا شوقه إلى أخيه سامي، فقد بدت المنارة خربة غربان. قال خالد إنه يكره وجوه أبناء المنارة العابسة، المتجهّمة، بألسنتهم الخائفة التي تقول في الشوارع شيئاً، وفي البيوت المغلقة أشياء أخرى غيره. أختي سهى تقول دائماً: «ملّيت. فقعت. طقّت روحي. ما في شي يا الله!». لا أعرف يا شباب. قال حامد: «أنا بظلّ أسمع أمي ع بتقول: سقى الله. سقى الله. ما بعرف شو بدها!».

جلسوا جميعاً يفكرون ويحسبون وينتظرون.

وحين وصل عابد إلى البيت، أخذه أبوه من أذنه، وقال له: «ليش قبلت أنّو يضربوك؟».

- ما قبلت.

- بس ضربوك.

- اي.

- وبتعرف ليش؟

- لا.

- لأنك حمار. شو كان بيصير لو قلت عاش زيتون؟ الحمار وحده هو يلّي بياكل العصي وما بيحكي.

ثم لطمه على قفا رقبته، وهو يقول: «روح من وجهي!». لم يغضب من قبل مثلما يغضب الآن. تمنى لو يغادر هذا الرجل المدكوك باللحم والقوة الدار والبلدة، وصار يدعو قائلاً: «انشالله يموت!». شعر بالحزن. حزنٌ مثل كدر التراب، يتفتّت، ويتناثر طول الوقت في حياته. وراح يبكي وحيداً خلف حائط البيت المطلّ على الوادي. ولكنه حين دخل إلى البيت شعر

بالشفقة على أبيه الذي نام الآن، ظهرت خروق في ثيابه الداخلية، وفي جواربه السوداء. كانت أصبع رجله الوسطى تبرز من ثقب دائري في رأس الجورب الأيمن. وهو يشخر متعباً فقيراً ضجراً من شيء ما غير معروف له. لا يعرف أيضاً لماذا لا يحب هذا الرجل، وهل هو أبوه حقاً أم ذلك الرجل الغائب الجميل الذي يشتاق إليه؟ فكّر أن العالم كله يكرهه، ولا يعرف لمَ يخزّن هذا العداء والتطرف والوحشية ضده. ماذا فعلت؟ اشتهى أن يفرّ بعيداً عن هذه القرية البغيضة الممتلئة بالنفاق والكذب. ولكنه يعرف أنه فقير ولا يملك مالاً يكفي لأيّ شيء. فماذا يفعل؟ وفي كل مرة يسأل نفسه هذا السؤال، ثم يجد هذه اللاشيء تتحرك أمام عينيه، يعاوده الشعور أن أحداً ما يجلس في انتظاره على أحد المفارق. أين أنت؟ جميل الصخري مثلاً؟ أين أنت يا جميل الصخري؟ يا أبي. أين أَراضيه؟ لا أحد يعرف أين أراضيه. ولكنه رآه في بيتهم. بالطبع رآه، وابتسم الصخري له، ولوّح بيده، ومسّه بكفّه الدافئة على رأسه، كما لو كان ملاكاً يمسح رأسه.

وفي تلك الليلة حلم عابد ذلك الحلم الطويل، هكذا يظن نائل الجوف، الذي رأى فيه حياته من جديد:

كان كلّ واحد من الثلاثة يحمل في حقيبته المدرسية المحمولة على الظهر زوّادة من الخبز والأطعمة الناشفة التي استطاع أن يأخذها من منزل والديه... ساروا في اتجاه الوعر، حيث تبدأ صخرات العسل من جهة الشرق، وبسبب الخشية من أن يستطيع أيُّ واحد أن يلحق بهم، بعد أن ينتبهوا لغيابهم عن المدرسة، توغّلوا مسرعين في طريقهم... ساروا حتى الضحى. ثم توقفوا قليلاً حين قال حامد إنه جاع. تناولوا لقماً من الخبز ودهنوها باللبن المصفى، وملؤوها بهندباء برية كانت تنبت حولهم. ثم استلقوا على الصخور التي تبلّط الأرض. لم يعد في العالم الآن سوى دائرتين وحيدتين: سماء زرقاء صافية، تشغلها عصافير الربيع المجنونة

الخرقاء التي كانت تصاحبهم منذ أن ولجوا الوعر. وكتل لافات بركانية مقوّسة تسدّ المحيط كله من حولهم. لم يخشَوا أيَّ شيء. كانوا يعرفون أنها أمّ. وأن في الحجارة روحاً خفيّة تستطيع أن تحرس وجودهم، دون أن يهتفوا لها. وحين اكتشفوا ذلك البويب الصغير المختفي وراء عرائش البطم المتسلق، دخلوا فيه. كانت مغارة طيبة، فيها ثلاثة أسرّة حجرية لها وسائد منحوتة في الصخر. وأرضها مفروشة بحصى صغيرة ملونة، وكان الضوء، ضوء شحيح، يأتي إليها من جهاتها الأربع.

وكان في الطرف الداخلي منفذ صغير، وحين خطَوا منه إلى الجهة الثانية، فوجئوا أن الطريق بدأت تتسع وهي تتجه نحو الداخل، وسرعان ما ظهرت في آخر الدرب قناطر، وأعمدة مكلّلة بتيجان مزخرفة. في النهاية بانت الشمس، وهي تنير الساحة المستديرة التي كانت تحيط بها غرف عتيقة مبنيّة من حجارة زرقاء مغسولة. كانت الواجهة المقابلة لهم من طابقين، وقد ظهرت في الأعلى أبواب خشبية متداعية، ونوافذ مكسورة، وفراغات معتمة، وعلى يسارهم ظهرت أجران ماء وأصص صخرية مليئة بالتراب، وكانت الحجارة كلّها منحوتة مثل قوالب من الراحة، أو علب من البسكويت. وفي الغرف الجنوبية وجدوا فرشاً وأغطية مخبأة في صناديق خشب لم يمسسها أيُّ سوء. كان الخشب قد اسودّ من الخارج، فيما ظلّ نظيفاً وأسمر محفوفاً في الداخل. وقد اصطفت في إحداها وسائد من قشر القمح، وأخرى من الصوف الملون، وثالثة من القطن. فيما وضع في الآخر فرش سميكة وأخرى رقيقة ولحف كبيرة وصغيرة. كانت الثياب محفوظة في جراب من الطين له باب خشبي محكم فوق حمايات من الكاوتشوك السميك، ولها رائحة صابون وأدوية غسيل. قال خالد إنه رأى أمه تضع برش الصابون بين الثياب كي تحميها من العثّ والفئران. وكان في الطرف الآخر من الغرفة باب صغير أفضى بهم إلى خزانة وجدوا فيها

برغلاً وعدساً وقمحاً وطحيناً وقليلاً من الرزّ وزيتاً وسمناً. بدا المكان معدّاً لثلاثة فتيان، أو بدا كأنما ينتظرهم وسط الوعر الصخري. أحسّوا أنهم متعبون، وصار النوم لذيذاً في ظلال الحجارة.

وحين أفاقوا كانت الشمس تملأ الحجرة وهي تدخل من نافذة عريضة لم تكن موجودة من قبل. سمعوا زقزقة عصافير، وشقرقة حجل، فخرجوا راكضين إلى الفناء. هناك رأوا امرأة عجوزاً تجلس قرب رحى، وتطحن قمحاً. ابتسمت لهم، وقالت وهي تدير الرحى بيدها اليسرى، وتضع كمشات من القمح في وسطها: اجلسوا هناك! سأحضر لكم طعام الفطور. كانت لها أسنان منخورة، وكانت إحداها ملبّسة بذهب رخيص من صنع النَّوَر الذين يخيّمون قرب القرى، ويدورون وهم يهتفون بأصوات غنائية: سنااان دهب. شعروا بالجوع وهي تخرج لفّات خبز مقمّر من تحت الكارة السميكة، وتضع صحن زيتون لامع، وخلطة من اللبن والزيت. ثم وضعت أمامهم خبزاً سميكاً له رائحة يانسون. حزن الأولاد. سألوها إن كانت تعرف شيئاً عن مدفع ضاهر المخبّأ في الصخرات. فصارت تهزّ رأسها. وقالت: كلوا الآن. فأكلوا. ثم ناموا. وحين استيقظوا لم يجدوها، فظنّوا أنها جنّيّة، وخاف خالد وقال إنهن يسحرن الأولاد، ويمكن أن يجعلنهم حميراً، أو خنازير، أو أرانب. وعندئذ سوف يأتي زيتون ويصطادهم. من سيخبر هيفاء أنني صرت أرنباً؟ قال عابد إنهم قد يستطيعون التسلل إلى بيتها ومخاطبتها من وراء الحائط. قال حامد وهو يكاد يبكي: لماذا لا نطلب منها أن تجعلنا مثل عقلة الإصبع؟ اعترف لخالد وحامد أنه استعار القصة من ابن النجار، وأنه كان يحلم أن يصير مثل ذلك الولد الصغير. قال إنه يريد أن يختفي من هذا العالم، أو يصغر حتى لا يراه أحد، بينما يستطيع هو أن يرى الجميع. قال خالد إن الصغار لا يمكن أن يحموا أنفسهم، وسوف يكثر

الذين يستطيعون التغلب علينا، وسوف تأكلنا العصافير أو القطط أو الجراد وحتى الحراذين يمكن أن تأكلنا.

كان أحد الرعاة يحلب عنزة، وكان شعره طويلاً، وله جدائل تشبه جدائل هيفاء. وابتسم لهم، ثم شرب من الوعاء الذي كان تحت ضرع العنزة. فجأة وقف عابد وقال لهما: تعرفان؟ أحسُّ أنني مشيت في هذه الطرق من قبل، أو أنني سوف أمشي فيها. أعرف ماذا يوجد أمامنا الآن: إنها شجرة لوز. ثم شعر بالرعب؛ حين رأى أنه يعرف ما سيحدث في المستقبل، لا ما حدث. وأن شجرة اللوز كانت تظلل جثامين ثلاثة رجال. وقال عابد: سوف أموت هنا بعد ثماني سنين وشهرين. بكى حامد، ثم عانق عابد، وقال: أنت تعرف أننا سنزعل كثيراً، وأننا سنبكي عليك، وأننا لا نريد أن تتركنا.

قال لي نائل إن عابد مات بعد ذلك الحلم بثمانية أعوام وثلاثة أشهر، لا شهرين كما ادعى، وإن خالد وحامد قد ماتا قبله. كان هذا من أكثر الأمور صعوبة في التصديق. سألت نائل إن كان يؤمن بما يرويه لي، فقال: «لا. بس هذا يلّي صار». وحين روى عابد الحلم لصديقيه في النهار، قال حامد إنه سمع أباه يقول إن الصخور تأكل الرجال الذين يختبئون تحتها. قال عابد: «هذا كلّه خيال». فقال حامد: «وأنت كنت ع بتتخيّل؟». عندئذ أغمض عابد عينيه، ثم قال: «لا، أنا كنت ع بشوف».

وفي تلك المرحلة من رحلتهم، بدا متأثراً جدّاً بالرؤيا التي استجدّت في حياته. ومنذ تلك اللحظة أخذ يفكر، أو يتصرف وفقاً لما تمليه عليه. ولم يفعل أي شيء، «أيّ شيء بالمطلق» (عبارة يرددها نائل الجوف) لتغيير المصير. وهكذا فإن الرحلة التي كان من المقرر فيها أن يبحثوا عن المدفع المجهول أو المختفي لضاهر، ذهب إليها في نومه وحيداً.

غير أن عابد لم يعش في ظلال ذلك الحلم في ما تبقى من السنوات، ويرجح نائل الجوف (سوف يؤيده أحمد الشايب في ذلك) أنه نسي الحلم تماماً، في ما بعد، ولكن قراره بعدم المشاركة في الحرب السورية لم يكن ناجماً عن الخوف من الموت، بل اعتراضاً على الموت اللاحق الذي بدأ يحصد أرواح الشبان من المنارة والسماقيات والدير وغيرها، كما لو كانوا مجرّد قشّ، ورفضاً لحرب يديرها هنا برهان النبريش وزيتون أبو طرّة. وروى نائل أن عابد وقف وحده ضد النبريش، وقد استطاع أن يردّ على أي كلام يطلقه، بعد بداية الثورة ضد من يتظاهرون في المدن السورية. وفي تقدير نائل أن غياب الخلفية الحزبية والسياسية لعابد كانت تساعده في الدفاع عن الحرية مثلاً. وكان كلّ موقف من مواقف الحياة التي عاشها يظهر في الكلام بين شبان المنارة مثالاً على الظلم.

في الصباح التالي ليوم الحلم، أخبرهم حامد أنه أخبر سامي بكل شيء. كان سامي هنا في زيارة وأخبره بكل شيء. وأن سامي صار يهزّ رأسه، ويهمهم، ويزمجر، ويقول: «هيك لكَن؟ صار زيتون صاحب عصابة؟». وبعد ذلك أمسك يد حامد، وسأل: «ضربوك أنت؟». وأن حامد أراد أن يكذب، كي يجعل أخاه ينتقم لعابد، ولكنه لم يستطع، وقال إنهم لم يضربوه. عاد سامي يهز رأسه. ثم اختفى بعد الظهر. وحين جاء عند غياب الشمس قال له: «السبت بتروحوا من نفس الطريق، وكل يوم بتروحوا كمان».

لا يعرف الفتيان ماذا حدث بعد ذلك، وقال نائل الجوف إنه عمل كل ما يستطيع كي يعرف ما الذي بدّل الرأي في المنظمة، ولكنه لم يصل إلى أيّ نتيجة. قال لي إن هذا الشكل من التعسف في الإجراءات يحتاج إلى فعل آخر موازٍ له لإسكاته. ولكن ما هو ذلك الفعل؟ وما الذي يفعله سامي أبو الليل في الخفاء مع زيتون؟ وبم يهدّده؟ فالشبان الذين ضربوا

عابد بدوا مسالمين. وأشار ابن الطيار لهم من بعيد، في الصباح، محيّياً. لم يردّ أيٌّ واحد من بينهم، فأنزل ابن الطيار ذراعه المرفوعة، واستبدل بها ابتسامة. فقال حامد وهو يشدّ صدره، ويضمّ قبضتيه: «شفتو؟». كانت أصداء تعليمات سامي تضفي على لهجته دفعة طارئة من جرأة الطاووس: رفع رأسه، وشدّ قبضتيه، ونفخ صدره وذراعيه، وابتسم. ثم أخرج شبّابته من حقيبته، وبدأ يعزف. هزّ الطرب رأس عابد، وبدأ يغنّي: «يا حيف ما ردّت عليّ العصافير!».

صمت حامد وقد عجز عن المتابعة حين داهمه الصوت، وقال: «يا ربّي». وهمس خالد: «ياااا الله!». لم يكن صوت عابد، ولا نبراته، ولا كانت لهجته، ولا طريقته. كانا الآن أمام كمد قاحل يفلت ندبه بلا أيّ قيد. لم يسمعا تلك الكلمات من قبل، ولا خيِّل إليهما أن في العالم كله شخصاً يمكن أن يعاتب العصافير. الآن خيِّل إليهما أن في وسع ذلك الصوت أن يغيّر العالم كلّه من حولهم، أن يبطئ برد الصباح الربيعيّ، أن يمشط الزرع، أن يراقص الماء في الوادي، أن يحوّل المدرسة إلى مزرعة حمام.

وجدوا الموجّه السمين في انتظارهم عند بوابة المدرسة الخارجية، وهو يحمل في يده حقيبة سوداء ضخمة. بدا متعباً، وفقيراً حين ظهرت جواربه الصوفية الممزقة عند نهاية البنطلون، وكان وجهه قد ازداد احمراراً، وليناً لم يطُل كثيراً، حين شزر عابد بنظرة حقد. بدا غاضباً من المهام الثقيلة. أمر حامد وخالد أن يدخلا إلى باحة المدرسة. كان الجرس الكهربائي الضخم المعلّق على جدار المدرسة يقرع بلا توقّف، مختلطاً بالضجيج والهمهمة الغامضة للطلاب والطالبات.

أحسّ عابد أنه يودّع هذا المشهد، ويمضي نحو نبوءات الحلم الذي رآه منذ يومين، وتمنّى لو كان في وسعه أن يرسل الصورة إلى جميل الصخري، أو يترك له رسالة، أو خبراً صغيراً مرفقاً بنداء استغاثة: «أنقِذْني!». تذكّر

حين مضى إلى الصخرات في ما بعد، أن حامد وخالد لم يلتحقا بالصف، وتسلّلا من وراء السور، كي يرافقاه إلى المبنى الأصفر.

قاده الموجّه من يده في البداية، ثم أفلتها، ودفعه ليسير أمامه، حين صارا وحيدين، يمشيان في الدرب الترابية، وهما يصعدان التل الصغير الذي يظهر في قمّته بيت قرميديّ وحيد. فكّر عابد وهو يرتعش: بيت الرعب. لم يكن قد تخيّل حتّى تلك اللحظة أيّ صورة. فخلال الأيام السابقة ظلت المديرية راكدة في جفاف الخوف والانتظار، فيما أخذت تبدو الآن، وهما يقتربان من البناء، الذي أخذ يكبر، ويمتلئ باللون والنوافذ المغلقة، وأبواب الحديد المحزنة التي يأكل الصدأ أطرافها.

قال نائل الجوف إنه استعاد هذه الذكرى حين أحضروه إلى هنا مصاباً بعيار ناري في كتفه، بعد هذه الزيارة بأكثر من عشر سنوات. كانت الممرضة المشرفة على المركز الأصفر لا تزال هناك. وكانت أجزاء من السور تختفي خلف شبكة من أغصان يابسة لنبات ضخم متسلق. أراد أن يقول لها من هو. ثم عدل عن ذلك، وقد أعاد نائل هذه الرواية أكثر من مرة كي يرسّخ لديّ فكرته عن المسار اللولبي لحياة عابد التي لا يتبدّل فيها شيء. وهي ملاحظة كان قد ردّدها أمامي أحمد الشايب أيضاً، لا بسبب إيمانه بها، بل لأن عابد هو الذي قال له بعد عودته من المشفى: «ما عدا الموت، كل شيء باقي على حاله».

عند الباب الخارجي، وقف الموجّه. كان وجهه منقّطاً بقطرات عرق تعب الصعود، عبّ الهواء بقوّة، وقال وهو يلهث: «ادخل وحدك. أنا أوصلتك وخلصت مهمّتي!». ثم سحب ورقة بيضاء، وعلبة معدنية فيها قماش باللون البنفسجي، وأمسك إبهام يد عابد اليسرى، وغطسها في القماش، ودفعها إلى الورقة. هناك ظهرت خطوط السرّ البشري الخفيّ مطبوعة على البياض. فقال وهو يلوّح بها: «بصمتك في يدي. لا تحاول

الهرب!». «فوت من هون!» أضاف وهو يشير إلى باب حديدي ضخم في الواجهة.

بطيئاً، خائفاً، تقدّم نحو الباب. كان مصفّحاً بحديد عتيق سميك انمحى الطلاء الأسود عنه كما يبدو من القشور المتبقية على أطراف النقوش النباتية التي تزيّنه. وقبل أن تصل يده إلى القبضة الثقيلة التي صُنعت على شكل يد، انفتح الباب على مهل.

حزّ الصرير الرفيع المعتّق في البهو المعتم، أضلاعه. لم يرَ أحداً، فقال بصوت مخنوق: «مين في هون؟». وحين اصطدم صوته بالمكان، محدِثاً ضجيجاً قصيراً، تلاشى قرب الحائط، سمع صوتاً يشبه الرنين، يأمره: «روح يمين. شمال. يمين». هناك وجد نفسه أمام باب موارب، وسمع الصوت يقول: «ادخل!». وراء الطاولة الخشبية المقوّسة، كانت امرأة الصحة الشهيرة التي يسمع عنها في السماقيات والمنارة. امرأة عادية تشبه معلمات المدارس، بشعرها الخرنوبي، ووجهها الممتلئ، وعينيها العسليتين، وأنفها الصغير المنمش. صوتها وحده بدا زائفاً ومصنوعاً من جلد عتيق مشدود، حين سألت: «اسمك؟ صفّك؟ أبوك؟ أمّك؟ عمرك؟». (وقت للتفكير بين السؤال والآخر تتخلّله عضّات قصيرة على طرف قلم الحبر الناشف). ضحكت السيدة الجالسة وراء الطاولة، وراحت تعضّ طرف القلم، فظهرت نابها المقلوبة التي تركب فوق سنّها الأمامية، ثم سألت وهي تقرأ من ورقة أمامها: «لماذا تكره مديرية الصحة؟». شعر عابد بالرعب، حين أدرك أنها تعرف ذلك السر الذي لم يبح به لأحد. فقال دون تفكير: «أنا؟ لا». «لا؟ ماذا تعني بكلمة: لا؟». «ولا شي. هاي كلمة بتطلع من بين أسناني». «اللا تخرج من تحت اللسان!». قالت بلهجة تأنيبية. «انظر إلي: ل.ل.للا. هل رأيت؟». بدا لسانها عريضاً وأرجوانياً. «لكن». تابعت: «لا تخرج عن الموضوع. كلكم تخرجون عن الموضوع. جيل

كامل لا عمل له سوى هذا. قل لي إذاً: لماذا تخاف من الصحة؟ أقصد من مديرية الصحة؟». «كل الطلاب بيخافوا منها». «هذا ليس جواباً عن لماذا، بل عن مَن. بالعربي: ليش بتخاف من الصحة؟». «ما بعرف». أراد أن يقول: «سامحيني»، ولكنه لم يستطع لأن السيدة وراء الطاولة قالت له ألا يتكلم. ثم نهضت عن كرسيّها واقتربت منه، وقالت: «اسمع، نحن هنا لا نأكل الأولاد. بل نعتني بصحّتهم»، ثم قادته إلى غرفة ثانية. كانت يدها ساخنة، وعرقانة، وناعمة.

وفي الداخل رأى كرسياً وطاولة أخرى عليها أوراق وقلم أزرق. قالت السيدة: «اجلس هنا واكتب لنا بصراحة». «شو بدّي اكتب؟». «ماذا؟! أنت تسأل؟! اكتب. أنت تعرف تماماً ماذا ستكتب. كن صريحاً. إيّاك أن تكذب!».

بعد خروجه من المديرية عند الظهر، كانت تمطر رذاذاً ناعماً، تتسلّل شمس ربيعية ناعمة من بين الغيوم الشفافة. كان أبوه ينتظره هناك، واقفاً تحت مظلّة قرميد صغيرة تحمي نافذة إحدى الغرف. «ها. تعال!». كانت السماقيات تظهر في الأسفل صغيرة، ومتكوّمة مثل قتيل، حين أمسكه من ياقة سترته الجلدية العتيقة. «كتبت مليح؟» وفي الطريق عرف أن الصحة أرسلت نموذجاً من الأسئلة إلى والد عابد، حين بدأ محسن الجوف يسأله: «ما اشترينا حصان من قبل. كتبت غير هيك؟ ما شاركنا بزراعة الشجر في حقل عثمان. كتبت أننا شاركنا؟ ما انتسبنا لأيّ حزب، ولا أيّ جمعية، ولا أيّ فندق؟». ثم صفعه على قفا رأسه، حين قال إنه لم يعرف كيف يجيب عن السؤال الأخير: «ماذا تتمنّى؟». «في عشرة آلاف أمنية يا حمار. يمكن يتمنّاها الإنسان. ما عرفت ولا وحدة؟».

وسوف يخبرهم لديّ مصادري أن زيتون أبو طرّة بدأ يقول إن جامد وخالد وعابد صاروا خطّاً أحمر. ولذلك لم يسمح لأيّ واحد من أعضاء

وحدة الشبيبة في المنارة بالمساس بخالد وحامد، حين كانا ينتظران عودته. وكانت عبارة «خطّ أحمر»، بحسب لديّ مصادري، ونائل الجوف، قد بدأت تنتشر في وادي الحصى أولاً، قبل أن تتسرّب إلى لغة المنارة. وأول من استخدمها كان سلفاً لزيتون في قيادة وحدات الشبيبة، دون أن يعلم أحدٌ المصدر الأول المبتكر لها. ويرجح نائل الجوف أن عقاب الطيار، وهو سلف زيتون في القيادة، استعارها من أحد المسؤولين في اجتماعات الحزب، وادّعى أنها من تأليفه. وقد ورثها زيتون من بين الأثاث، والدفاتر، والسجلات، التي كانت في المكتب. ومما يسخر منه نائل، أن زيتون استخدم العبارة ذاتها من قبل في أحد اجتماعات الوحدة ليقول إن الأولاد الثلاثة عبروا الخطوط الحمر في المنارة.

وحين اعترض شكري الطيار، الشاب الذي استخدم العنف تجاه عابد الجوف، (لم يكن اعتراضاً، بل استفساراً دمثاً تعلوه ابتسامة استرضاء)، قال زيتون بصرامة: «اليوم مطلوب منّا أنو نتسامح تجاه هذا الموضوع. خلص. اترك الخبز لخبّازته!». غير أنه في المساء أوضح للمجموعة الحاضرة في المقر، أن التسامح لغة الضعفاء والمذلولين، وأنه يستبدل بها كلمة أخرى هي: الغفران. نغفر لهؤلاء الأشرار التافهين أخطاءهم تجاه المنارة، ولا نسامحهم. هكذا نظهر قوّتنا.

رافق الولدان صديقهما عن بعد. فوجود محسن الجوف، وحده، كان كافياً لإبعاد أيّ مخلوق عن طريقه. وظل عابد يمشي قرب أبيه، ويشير لهما بيديه من خلف ظهره، إشارات التعارف بينهم: «أنا بخير. ما جاوبت عن الأسئلة، وخربشت على ورقة الصحة، وشفت بزاز المرة يلّي بتشتغل هناك، وشفت فخذها لمّا حاولت ترفع جواربها».

2

كان المأمول لدى الموجّهين في المدرسة، أن تتمكن الصحة من ضبط صوت عابد، وإخماد نزعته البارزة في الطول، وثخانة العظام. غير أن درجاته في امتحانها كانت دون الوسط. كما أن السيدة هناك أرسلت تقريراً تحذّر فيه من قدرته على إخفاء ما في داخله، لا عن الناس من حوله فقط، بل عن أعضائه ذاتها: لا يمكن لمن ينظر إلى وجهه أن يعرف إن كان حزيناً، أم غاضباً، أم مسروراً، أم حائراً. فلا تتحرك ملامحه، ولا تتبدل، وفقاً لمشاعره.

لم يفهم الموجّهان في المدرسة مغزى إشارة السيدة في مديرية الصحة، ولم يكن يهمّهما أن يبتسم إذا كان مبسوطاً، أو يبكي إذا كان حزيناً، بل كل ما كان يعنيهما هنا هو أن يكون مطيعاً. وعندما وصلهما التقرير الجديد الذي أرسله زيتون أبو طرة من المنارة، جحظت أعينهما، وراح كلٌّ منهما ينظر في وجه الآخر مربكاً عاجزاً عن الحساب. كان الكلام هناك متناقضاً تماماً مع تقرير الصحة. وقد أفسد يومهما المشمس، إذ كانا يعملان معاً على تجفيف المشمش الذي اشتركا في إعداده معاً أوقات الفراغ خلال الحصص الدراسية، بعد قرار المدير إدماج كل حصتين معاً لتقصير زمن الدوام الفعلي.

لم يترك زيتون صفة طيّبة وجميلة دون أن يضيفها إلى تقريره الجديد عن عابد وصديقيه.

قال النحيل إنه يتذكر تقرير زيتون الأول، ويعجب من هذه الآراء الخنفشارية التي يكتبها الآن. فتح الملف، وقلب الصفحات، ثم قال: «شوف. طلّع. صحيح أنو الكذب ملح الرجال!».

3

وفي تلك الأثناء، زار برهان العلمي مقر قيادة زيتون أبو طرّة مساء يوم الخميس حيث يعقد اجتماع الوحدة. فتح الباب ودخل. وبسبب المباغتة - المقصودة على الأرجح كما يقول نائل - ظل زيتون جالساً وراء الطاولة. راح ينقر بالقلم الأزرق الناشف على الخشب، نقرات إيقاعية متساوية، فيما ارتبك الشبان الحاضرون، ومنهم من وقف احتراماً للأمين الجديد، ومنهم من خاف حتى الموت من أن يبدي أي مشاعر. وقد حلّ العلمي الإشكال سريعاً، حين نهر زيتون بصوت راعد: «قوم وقاف، رفيق!». وقف الشاب وسط ابتسامات خفيّة بدت على وجوه شبّان متفرّقين في الغرفة.

4

لكن حياة حامد أبو الليل تضعضعت، في ما بعد، فقد عاد أبوه من ليبيا فجأة إلى البلدة. لم يقل له أحد شيئاً، ورأى أهل المنارة وهم يأتون لتهنئته بالسلامة، وتناول الحلويات من العلبة الخضراء التي أحضرها من السويداء. ثم انتهى ذلك كله صباح أحد الأيام: فتح أبوه المضافة، ثم انتظر بلا جدوى. وحين عاد حامد من المدرسة وجده يجلس نائماً على كرسي بلاستيكي أبيض بمسندين معوجين. كان يشخر وقد أمال رأسه الصغير على كتفه الأيمن، وسال لعاب خفيف على جانب شفتيه. كانت العلبة الخضراء لا تزال مغلقة، وقد عرف من صفوف الحلوى فيها أن أحداً لم يأتِ اليوم لزيارة أبيه. أخذ ثلاث قطع من البتيفور، وحشاها في جيبه، ثم مرق إلى البيت. شلح ثيابه، وأسرع إلى الصخرات حيث كان عابد وخالد قد سبقاه. جلسوا معاً يتأملون مياه الوادي الشتوية الضئيلة التي كانت تنشف في المجرى الصخري، ويأكلون البتيفور.

عند العصر سمع زعيقهما: «أنت ما بتنفع لأيّ شي. بتترك الرزق وبترجع منشان تعمل قهوة مرّة». كان يردّ عليها بصوت شحيح خالٍ من أيّ نبرة.

وفي تلك اللحظة لم يدرك تماماً محتوى تلك النبرة المشحونة بوجدان حزين محبط.

في ما بعد راح أبوه إلى السويداء، وعاد عند الظهر متجهّماً، ولم يقل أيّ شيء. ولكنه في المساء تشاجر مع زوجته. لا يعرف حامد من الذي بدأ الشجار. ولكنه سمع أباه يقول لها: «تفضّلي! هذا أنا وقفت بالطابور. رتلاً وحاديّاً.. ترااادف! وعيش يا كديش حتى يطلع الحشيش!». وعرف في ما بعد أنه اضطر إلى تسجيل اسمه في مكتب العمل الذي أحدثته مديرية الشؤون، في انتظار أن يجد وظيفة. وبكثير من الاحتقار والعجرفة (سيعرف هذا في ما بعد) ردّت أمه قائلة: «رح تتوظّف غصب عنهن». لم يكن في جملتها أيّ تعاطف، أو أمنيات، أو رسائل مؤازرة، بل مجرد حكي ممتلئ بعجرفة خفيّة ممزوجة بشحنة من الاحتقار (سيعرف هذا في ما بعد أيضاً).

وابتداء من ذلك اليوم سوف يرى أباه كلّ يوم واقفاً عند الساحة المشرفة على النهر، بين أكثر من عشرين رجلاً وامرأة، ينتظر قدوم الباص الذي سيقلّهم إلى السويداء. وفي المرة الوحيدة التي سأله فيها لماذا يغادر البيت كل يوم وهو بلا عمل، عضّ على أسنانه، ورمق المنزل البعيد الذي كانت تظهر منه أطراف شجر السرو، وقال: «تُفرج». غير أنهما تشاجرا في الليلة ذاتها، وكانت تقول له: «رح تروح كل يوم ع المديرية. إجباري. فهمت ولّا ما فهمت؟».

وفي المنام رأى أباه واقفاً في ذلك الرتل اللانهائي من الرجال المترادفين الواقفين على باب حديدي ضخم أسود اللون، عليه زخارف من الحديد الذهبي. كان زيتون يقودهم هناك، وكان لديّ مصادري يجبرهم على الصمت. بدا الرتل بلا نهاية، ولكن زيتون استطاع أن يمطّ جسمه كلّ مرّة كي يصل إلى نهاية الخط. ثم يعود ليلقي خطبة فيهم. صفق أبوه مرة أو مرتين، وراح لديّ مصادري يحمل له يديه عالياً.

وحين استيقظ في الصباح، شعر أنه بدأ يحبّ هذا الرجل. فكّر أن

يسأله عن زيتون لفرط ما بدا ذلك الشاب حيّاً في المنام. فيما نسي أمر لديّ مصادري تماماً، إلى أن رآه بعد الظهر. فقال له: «شفتك بالمنام، وكنت زلمة زيتون!». قال أحمد: «لا إهانات يا حامد. هذا اتفاقنا من زمان!». وفي المساء تشاجرت أمه مع أبيه مرة أخرى، رمته بصينية قشّ كانت تعمل بها، فأصابت جبينه. قال «آخ» ربما، أو هكذا خيِّل لحامد، فخرج راكضاً من البيت، وجلس خلف حائط الدبش الذي يسيّج المنزل، وأخذ يشهق. رأى الله في سماء المنارة مختبئاً خلف غمامة خريفية أخذت شكل جبل. «ليش هيك؟». سأله مستفسراً عن حال أبيه الذي يُرغَم على الخروج كل صباح كي يقف في رتل المنتظرين أمام مكتب العمل، ثم يُضرَب بصينية قشّ، ولا يفعل شيئاً سوى أن يقول: آخ. ربما. يجوز. يمكن ألا يكون قد قالها. وعندما لم يُجبه أحد من وراء الغيمة، فكر أن عليه أن يلتحق بسامي. سيقول له كل شيء عن أبيه الذي يحبه لأنه ضعيف ومهان، ويكرهه لأنه مستسلم وجبان. «لا تقول عن والدك هذا الكلام. عيب». «أعرف». سيقول لسامي: «كنت قبل ما بعرف بيي. أما اليوم فصرت ما بدي أعرفه. مش هذا يلي كنت استناه ليجي ويظل بيننا. وهلق بدي ياه يفل، يسافر، ويبعث مصاري بس . هيك بتظل أمي مبسوطة».

5

وفي منتصف الصيف بدأ عابد يعمل في المنطقة الصناعية في السويداء عند ميكانيكي سيارات مسنّ قال إنه من أقارب جميل الصخري. وقال لي نائل الجوف إن أحد أخواله هو الذي ضمن وجوده في المشغل. كان المعلم صابر البستاني من باب مصلّى في دمشق، وقد جاء إلى هنا بفضل شراكة بينه وبين أحد سكان الحي من السويداء، أقاما ورشة تصليح سيارات في الطرف الجنوبي من المدينة. ثم نقلا الورشة إلى بناء ضخم من طابقين، في المنطقة الصناعية الجديدة شمال المدينة، بعد افتتاحها في التسعينيات. كان المعلم نحيلاً، وعيناه غائرتان في وجهه. وكانت السيجارة تظل عالقة بين شفتيه، وهو يحدّق في أحد أجزاء العمل بين يديه. وكانت له ابتسامة طيبة، تظهر حين ينزع اللفافة، ويضحك لأي نكتة. يضحك وهو يسعل، ويجبر الشغيلة على العودة إلى العمل. وقال لعابد: «أجرك هو الصنعة. موافق؟».

وفي تلك السنة بدا أن الأفق بدأ يحمل لهم بشائر تغيير ما في أحوال البشر، وقد ظهر الأمر في سلوك سهى تجاه خالد، قال أحمد لديّ مصادري إن البنت أخذت تتبدل فجأة دون أن يكون الأمر مفهوماً لأحد، وظن خالد أن السبب هو التقدم في العمر، واليأس من الحياة الرتيبة الخالية. وصار

يقول لصديقيه: «سهى مسكينة»، وقد بدأت تهرم سريعاً، وأخذت تظهر على خديها وشفتيها شكائر شعر أشقر يزداد كثافة شهراً بعد آخر. في تلك الأيام فتحت خزائنها له: «تعال شوف!». كانت إحداها ممتلئة بعلب البسكويت، والشوكولاته، والكراميلا من جميع الأشكال والألوان، لكن خالد لم يُبدِ أيّ حماسة، وقال دون أي تردّد: «بدّي مصاري!». قال أحمد إن الفتاة عانقته فجأة، وقالت: «كبرت يا حبيبي؟». قال أحمد إنها كانت تظن أنه يريد المال كي يشتري السجائر.

كان سعيداً بهذا حين التقى عابد وحامد مساءً، وقال لعابد: «فرجت يا صديقي». وصار يدفع له كلفة النقل إلى المدينة ريثما يبدأ في العمل وتحصيل النقود.

كان صيفاً مضجراً. وقد فرغت فيه البلدة من أيّ حسٍّ في النهار، بسبب الحر أولاً، ثم بسبب الذباب الذي اجتاح المنطقة كلها. كتل هائلة من ذباب طنّان لاصق هاجم الطرقات والأشجار والمنازل والبشر. صار أهل المنارة يخرجون ملثّمين، أو كانوا يرتدون المناخل والقفازات والثياب ذات الأكمام، وقال أبو محمود الدكنجي إنه ذباب الجثث. رأى مثل ذلك في أثناء الحرب، ويجوز أن تبدأ الحرب في مكان ما. وقد تابع البعوض في الليل مؤازرة الذباب الطنان. هاجمت أسراب أخرى منه المنارة والسماقيات والدير وسهل الزرازير بلا توقف. وكانت تحمل في إبرها سمّاً يحوّل وجوه المصابين بها إلى حقول محروثة بدمامل تنزّ دماً.

وفي أحد الأيام لم يعد عابد من العمل، ولم يستطيعا السؤال عنه في البيت، إذ كان محسن الجوف يرعبهما. وحين رجع في اليوم التالي قال إنه كان نائماً في بيت جميل الصخري، جاء الرجل بنفسه إلى الورشة، وأخذه إلى بيته. كان البيت، كما وصفه لهما، مؤلفاً من شقّتين متجاورتين. وقد هدم الجدار الداخلي بينهما. بدت مثل قصر صغير معبّأ بالزخارف

والكراسي الفخمة والصور الكبيرة المؤطرة بالذهب. وإنه تناول اللحم المشوي، وشرب كولا باردة، والتهم قطعتين من الشعيبيات. قال نائل الجوف إن تلك الأيام ظلت غامضة في الحكاية، وعلى الرغم من تفاهة المكاسب التي عدّدها عابد لرفيقيه، فإن مصادر الخيال ظلت مجهولة. ولم يطل الأمر كثيراً بعد ذلك قبل أن يعلن لهما أنه سيبقى في المدينة، قال إن جميل الصخري طلب منه أن يسكن معه هناك، كي يسلّيه وينتبه إليه في الليل، حين يمكن أن يمرض. وإنه سيدعوهما لزيارته حين يشفى.

لكنه لم ينفّذ وعده أبداً. لا في ذلك الصيف، ولا في الشتاء أيضاً. وهذا يعني في رأي نائل أن الرواية لا تتضمن أي واقعة صحيحة، وأن المسألة مجرد حلم صبياني يراوغ الفتى فيه نفسه وأمنياته. وحين سألته عمّا إن كان يشك بوجود جميل الصخري، قال لي إنه لم يلتقِ بهذا الرجل قط. وأن المنارة آمنت به بفضل عابد وحده. ويبدو أن الصداقة نفسها قد اهتزّت قليلاً بسبب الصخري. فأحمد الشايب يروي لي أن خالد وحامد لم يذكرا عابد كثيراً في تلك الأيام، وصارا يذهبان إلى الصخرات، ويمضيان الوقت الضائع من أيامهما هناك. ولكن نائل الجوف قال إن ذلك لم يحدث، وإن الشابين كانا مؤمنين أن الصخري هو والد عابد الحقيقي، ولهذا لم يبديا اعتراضاً على الغياب.

قال نائل إن العثور على الصخري كان يعني عهداً جديداً من الخلاص والسلام والأيام الدافئة، فمحسن الجوف ظل يكسر قواعدهم الجديدة، ويخرب نظام الحياة الذي بدؤوا في بنائه معاً، عبر تدخّله الفظّ في شؤون عابد. كان يتجول في المنارة بحثاً عنه بعد الظهر حين يستيقظ من قيلولته. يرعد صوته الخشن المجفف على دخان السجائر التي يبتلعها بلا توقف في شوارع المنارة، وهو ينادي، ويسأل عن عابد. وحين يكونون في الصخرات، أو عند أحد المناقع التي ينصبون حولها الفخاخ، يخبرهم

أحد شبان البلدة. أما حين يكونون في دكان أبي محمود، فإنهم يتسربون من هناك مسرعين، مختبئين وراء حيطان الحجارة، والدبش، وأشجار الزيتون، بعيداً عن عينيه.

وفي ذلك الزمن كاد حامد يخسر حليمة. ربما هذا هو التعبير الأفضل، الذي استخدمه نائل، بدلاً من القول إنها هي التي كادت تخسره، كما قال أحمد. ويقول نائل إن حامد اختار أن يعمل مع أولاد السرجان الذين برزوا في أعمال الحجر. كانت تلك المهنة آخذة في الصعود، وقد تعلّمها أولاد السرجان في الخليج، حيث تُغلّف الأبنية بالحجر الأبيض. وفي رأي نائل إن حامد أراد أن يفرّ من سلطة الأم في تلك المرحلة. كان والده لا يزال يتردد بلا توقف على المدينة، مثل بندول عبثيّ، وكان رجل من أقارب حليمة يأتي لزيارتهم اسمه حسين المر. وعلى الرغم من أن الرجل قد اختفى من البيت بعد زمن قصير، غير أنه كان سبباً في هروب حامد. إذ لم يفهم ماذا يحدث هناك. لا يعرف لمَ يأتي حسين المر إلى بيتهم في غياب أبيه؟ ولم يجلس مستنداً إلى الوسائد البيضاء في غرفة القعدة؟ ولمَ يأتيه الشاي أو النعناع محمولاً على صينية نحاسية تظل مركونة على الرف طول الوقت من أجله؟ لا يفهم لماذا يضحك دائماً.

وحين يبدأ في المزاح معه، فإنه يكاد يفقد عقله. تنتابه رغبة وحشية في تمزيق تلك القباحة المعبأة في قميص أزرق وبنطلون بني ورائحة عرق. وحين نهرته أمه: «ليش ما بتسلّم ع خالك مثل الناس؟»، كان يعرف أنه من أقاربها، ولكنه لم يجب. فكّر فيما إن كانت الرائحة هي التي تمنعه. رائحة غامضة، ولكنها مريعة وفاسدة. شيء ما رطب وقديم يترك فيه شعوراً بالملل والرغبة في مغادرة المكان. أين هي؟ ما هي؟

لهذا بدا أن اختيار أولئك العتاة من معلّمي الحجارة هو الرد الوحيد لديه على سؤال حليمة. صار يستيقظ باكراً، ويرتدي ثياب الشغل، لينتظر

أولاد السرجان الآتين من الشمال حيث منازلهم في أول الوعر. ولا يعود إلا في المساء. يتناول عشاءه صامتاً، ثم يخرج ليلتقي بخالد. وحين سألت نائل عمّا إذا كانت حليمة قد لاحظت ذلك، قال: «بالطبع». قال إنه لا يعرف ما العلاقة بينها وبين حسين المر، ولكن المرأة حسمت أمرها سريعاً وأبعدته عن المنزل. وفي أحد الأيام رأى حامد حين عاد مساء أن بيتهم كان كلّه مغطّى بالغسيل: الشراشف الزرقاء ووجوه الوسائد والملاحف والسجاجيد والستائر. وفي الداخل كانت قد بدّلت كلّ شيء. لم يجد قطعة واحدة مكرّرة من بعد حسين المر، ولم يرها بعد ذلك أيضاً. بدا البيت كأنما أريد حشره في عالم آخر لا يمتّ لعالمه السابق بأية صلة. كان أبوه يجلس في فناء البيت، يدخّن ويشرب الشاي، وكانت حليمة تجلس على كرسي قشّ صغير بلا مسند قرب الباب كعادتها. وكانت تلك الجلسة تدل على أن الرسالة موجهة إليه، وقد قبلها باعتداد. قبّل أمه على خدّها الأسمر الممتلئ، وتناول عشاءه، ثم خرج. وحين سيأتي عابد إلى منزلها بعد ذلك، لن يجد والد حامد هناك، ولن يلتقي بحسين أبداً. وقال نائل إن مصطفى أبو الليل غادر المنارة بعد يومين راجعاً إلى طرابلس في ليبيا. وفيما قال لي إنه لا يعرف من الذي خاطبه من هناك كي يعود، فإن أحمد الشايب همس: إنها المرأة. ابحث عن المرأة. قال لي.

خالد هو الوحيد الذي ظل بلا عمل. وعلى الرغم من أن سهى أخته كانت تضمن مصاريفه، فقد قال لي أحمد إنه رأى ظلال حزن عميق يتسرب إلى كيانه. قال إنه يشعر بالوحدة والملل، وإن كل شيء في المنارة صار يحدث أو لا يحدث بطريقة عشوائية لم يعد يفهم منها شيئاً. يحس أن لا أحد يحبه هنا، وأنه لا يحب أحداً أيضاً. ويشعر أنه غريب، ومتعب، في أثناء اللعب مع الأولاد في ساحة البلدة، أو خلال الجلوس على حافة الجسر لتأمل المياه الراكدة في النهر الشتوي.

قال أحمد الشايب إنه يعتقد أن خالد لم يعد يلتقي بهيفاء في تلك الأيام، بسبب خوفه من عصابة أولاد جديدة في الحي الذي تقطن فيه. وهذا هو سبب يقينه أن الدنيا تصبح ضيقة وتافهة وغريبة عنه. وفي بداية العام الدراسي تلقى الخبر القاتل من أخته سهى، حين أعلمته أن أسرة هيفاء ستنتقل إلى السويداء. قالت إنهم اشتروا شقة هناك، وسجلوا البنت في ثانوية البنات. الأمر الأكثر خطورة مما لم يفهمه في كل تلك الإجراءات، هو أن عينيه كانتا مليئتين بالدموع.

وفي المساء جاء حامد مرتدياً ملابس جديدة، وكان في جيبه مئة ليرة، ودعا خالد إلى دكّان أبي محمود لشرب الكولا. ولكنه لم يذهب. «ما بحبّها» قال له. «اشرب أيّ شيء. يمكن نشتري سجائر». «ما بشتهي الدخان». غير أن يد حامد الحانية أرغمته على السير في اتجاه الدكان. كان محمود هناك، وكان يعرض لثلاثة من جماعة زيتون القديمة أنواع المشروبات التي بدأ يأتي بها إلى محله: عرق وبيرة وجِنّ وويسكي. كانت «فِترينة» السجائر تعجّ بكل أنواع الدخان السوري والأجنبي. وكان يقول إن البلاد بدأت تتغيّر. اشترى حامد علبة دخان أمريكي، ثم فتح العلبة وسحب لفافة وأشعلها بقدّاحة ذهبية مستطيلة. لم تخفَ حركاته الاستعراضية على المجموعة، غير أن أحداً منهم لم يُبدِ أيّ ملاحظة. وللمرّة الأولى يرى خالد تلك العضلات المدبّبة التي كانت تتحفّز في أكمام حامد. وقال له وهما يمشيان في الشارع، وينفثان الدخان، جملة حزينة كانت تشغله: «بتعرف؟ كل مرّة واحد منكم يسبقني في طريق». قال حامد: «لا يا صديقي، أنت سبقتنا كلّنا».

6

حين عرض عليه المعلّم صابر المكان، وافق بلا تردّد. لم يَعنِه أنّ الغرفة صغيرة، فالنافذة الوحيدة التي يغطّيها شبك حديد أصفر يمكن أن تمنحه هواء كافياً للتنفّس، ليلاً، وبعض الفرجة الطيّبة نهاراً، إذا ما أراد أن يرى ما يحيط به. كما أن السرير كان مريحاً، وقد فُرش بإسفنج مضغوط مكفّن بقماش أزرق. وفي الجانب الثاني خزانة خشبية يمكن أن يستثمرها للحفاظ على الأطعمة والخضراوات. ومنذ تلك اللحظة صار في وسعه أن يقول لنفسه إنه صار حرّاً وبعيداً عن يد محسن الجوف. ولن يذهب إلى المنارة إلا في آخر الأسبوع حين تغلق المنطقة. وفي أول ليلة، ظل ساهراً حتى العاشرة، يستمع إلى الأغاني من راديو صغير تركه المعلم لديه. تعشّى، ثم اغتسل، ونام لأول مرة منذ أن ولد دون أن يسمع كلمات التوبيخ الخالدة، أو يتلقى إحدى صفعات التربية الواجبة. وقال لرفيقه في الشغل مرهف الشكر إنه سيبحث عن أبيه كل مساء حين ينتهي من العمل. «أبوك؟ ومين الرجل يلي عايش معه؟». قال له: «هذا زوج أمي. رجّال بلا رحمة. وبيكرهني!». وقال لمرهف شكري زميله في العمل إنه لا يعرف أين يبدأ. فسأله مرهف عن أبيه الحقيقي وكيف يبدو؟ قال إنه طويل القامة، وجميل الوجه، ويسرّح شعره جيّداً، ويلمّعه، وله ذقن حليقة، ويرتدي بذلة

وقميصاً أبيض وكرافة. قال مرهف إن المواصفات تناسب تجّار العطور والملابس النسائية. اسأل أصحاب هذه المحلات.

في مساء اليوم الأول اغتسل وارتدى ملابسه، ومضى مشياً.

تلك كانت المرة الأولى التي يمشي بها في المدينة وحده. وفي كل خطوة يخطوها يشعر أنه كان يمزّق خيطاً هنا، أو يكسر حلقة من قيد غامض يكبّله. وفي اليوم التالي أخبر مرهف أنه سأل جميع محلات العطور وأدوات زينة النساء عن جميل. لم يعرفه، أو يسمع به أحد. قال مرهف سنسأل في المساء أصحاب محلات الألبسة أيضاً. لكن عابد اعتذر عن ذلك، وطلب منه أن يدعه يبحث عن جميل وحده. فقال مرهف بلا مبالاة: «مثل ما بدّك».

بعد ظهر الخميس التالي، وصل إلى المنارة، بعد أن غاب أسبوعاً كاملاً. وحين جاء أبوه مدّ له يده ليقبّلها. كانت تلك أول مرة يشمّ فيها رائحة الأب: خليط من الدخان، والزيت، وورق اللعب. «وكم يعطيك هذا الوغد؟». «المعلم صابر آدمي، وابن حلال». فأدار أبوه وجهه جانباً، وقال لأمه باحتقار: «كأنّو ابنك صار يرد الجواب». فراحت تعتذر عنه، وتشرح لمحسن الجوف أن الولد لا يقصد أن يردّ عليه، وإنما كان يريد أن يوضح طبيعة صاحب الورشة فقط. فقال: «إي خلص. اخرسي. سدّي حلقك!». والتفت إلى عابد وسأل: «كم يعطيك؟ ما هو أجرك؟». «لا شيء. مونة بطني، ومنامتي. وأنا أتعلّم الصنعة». ضحك محسن، وراح يسعل سعالاً متواصلاً، كاد يختنق في آخره: «إذا تعلّم حمارنا القراءة، أنت تتعلم الميكانيك». ثم تابع قهقهته في الغرفة الثانية، خلف سحابة الدخان.

وفي تلك اللحظة ازداد إيمانه بأن من غير العادل أن يكون هذا الرجل أباه فعلاً، ولا يمكن أن يكون قد منحه نطفته، ثم يتخلى عنه ويزدريه بمثل

هذه الاستهانة والخفّة. وشعر بالشوق إلى جميل الصخري. وسوف يحكي له هذه المرة حين يلتقي به كل ما في خاطره عن محسن الجوف، وعن أمه، وعن شعوره بانعدام الصلة والحب بينه وبين المنارة كلها.

ولكن عابد عاد يوم الأحد التالي إلى المنارة. أمضى بعد الظهر جالساً تحت شجرة التين، يرمي الدجاجات بالحصى، أو يراقب المنارة الهاجعة في الحرّ. أكل قليلاً من الطعام برفقة أخيه، ورفض أن يكلّم أمه، أو أخته الصغيرة التي كانت تدخل الصف الأول.

وفي المساء التقى خالد وحامد، وحاول أن يكون طبيعياً، وذهبوا معاً لتهنئة أحمد لديّ مصادري بانتهاء الخدمة العسكرية. وقبل أن يصلوا إلى داره في وادي الحصى رأوا النار تشتعل في دوائر على سطوح بيته، وكان أحمد واقفاً على الشرفة في انتظارهم، وأخذ يضحك ويقول: «هذا هو النذر يلّي بستحقه. بدل ما تذبح لي أمي خروف، شعّلت النار في الزبل».

عندئذ فقط بدأ عابد الجوف ينشج.

لا يرى نائل الجوف أيَّ غرابة في أن أحداً من الشبّان الثلاثة لم يسأل عابد أي سؤال. لا استفسروا منه عن سبب البكاء، ولا حاولوا أن يهدِّئوا نشيجه. تركوه يبكي، كما يشاء. وهو لم يبكِ كثيراً. كأنّ النشيج العتيد المتدفق السريع قد ضغط الأحزان والكآبة في صياغة سريعة واحدة، أزاحت من صدر عابد ما تراكم من صدأ الحزن. وقال لهم وهو يبتسم: عملية حفّ وقشط فقط. وتخيّل نفسه وسط دوامة من الأيدي القادرة على كسح الرماد والذكريات المحروقة باستخدام مواد التنظيف، وماسحات الزجاج، ورشاشات الماء.

قام وغسل وجهه في مغسلة الشرفة، وعاد وجلس وقال لهم: «طردوني من الشغل».

«ليش يا معلّم؟»، لم يكن لدى المعلم صابر أي سبب يضعه بين يديه. «بلا سبب. ما عدت بحاجة إلك. بتقدر تطلع ع غرفتك وتأخذ أغراضك». وقف شبه تائه، وقد بدّد المعلّم أيّ فرصة أمامه للسؤال أو الاستفسار، فيما ظلّ عمال الورشة يشغلون أنفسهم بالعمل في أي شيء. وحين عاد من الأعلى يحمل صرّة الثياب، لم يدرِ ما يفعل. فكّر أن يجلس في الشمس كي يعطي المعلم فرصة لتبديل قراره. ثم فكّر أن يرجوه، أو يشرح له ماذا سيحدث في البيت الآن. ثم عدل عن ذلك كله، ومشى في اتجاه الكراجات القريبة.

«هيي... عابد!». سمع صوت مرهف وهو يناديه، كان يركض نحوه. فقال ملهوفاً: «شو؟ غيّر رأيه المعلم؟». «لا، مش رح يغيّر رأيه أبداً. ترك الورشة بعد ما رحت. وأنا لحقتك. تعرف؟ أبوك أو زوج أمك ما بعرف إجا اليوم وطلب أجرك. قال للمعلم أنت حرامي ومستغلّ وتأكل تعب الأولاد. وقال إنه رح يشتكي عليه للتأمينات وغيرها. صوتهما وصل للسما». كان عابد قد ذهب برفقة شغّيل آخر لجلب قطع تبديل مستعملة من أحد المحلات البعيدة. «المعلم خاف كثير. خاصة لما ذكر الأمن والشرطة. أبوك بلوة!». «مش بيّي. قلت لك». «بعرف. بس قال إنك ابنه. وإنه مش رح يسمح لحدا يستغلّك». ثم أمسك معصمه بحب: «شو بدّك تعمل بخصوص بيّك الثاني؟». «رح لاقيه. والله لَلاقيه شي يوم!».

7

سافر والد حامد إلى ليبيا مرة ثانية، ملتحقاً بسامي ابنه. وهناك دبّر عملاً أفضل من عمله السابق. وصار يرسل المال إلى مكتب تحويلات افتتح حديثاً في المدينة. فيذهب حامد برفقة أمه إلى هناك، ويعود مرتدياً ثياباً جديدة. وكان صدره يزداد اتساعاً، وتظهر عضلاته داخل القميص الملون. وصار في وسعه أن يهدّد أي شخص يمكن أن يشير إلى من يزورون بيتهم في غياب أبيه. ومرة واحدة صفع زكريا الجرس على خدّه حين أراد أن يمازحه، وسأل: «ليش ما بتنام أمّك من غير ما توتّره؟». سمع كل من في صالة البلياردو صوت الصفعة. وقال زكريا الذي أدرك تلك اللحظة خطورة خصمه المباغت: «كنت ع بمزح. هذه حزّورة، والمقصود بها مفتاح البيت». قال حامد: «حتى ولو. مفتاحنا نفسه محرّم!».

رسالته التي سمعت بها المنارة كلها في اليوم نفسه، لم تنجح في تحصين بيته من احتمالات الشطط الكلامي من أبناء المنارة، تجاه أمه، فحسب. بل أسّست لمواقف جديدة، سرعان ما ظهرت تجاه عابد وخالد أيضاً. وقال لي أحمد الشايب إن زيتون أبو طرّة اختفى من المشهد كله في تلك السنوات، وانتقل إلى السويداء، حين صار موظفاً في مديرية الهاتف. بينما أرسل ابن الطيار الذي يدرس في الجامعة، رسائل الاعتذار

عبر الوسيط الأبدي أحمد لديّ مصادري. لم يجرؤ على عرض الصداقة، بل مجرد البحث عن إعفاء من عقاب انتقامي محتمل للرد على ما قام به من قبل.

وحين عاد إلى البيت، وروى لأمه عمّا حدث في الصالة، لم تعلّق على ذلك. وسألته فجأة:

– شو بيشتغلوا هالولدين اليوم؟

– ماما! صرنا شباب.

– رح تظلّوا ولاد بنظري. قول لي.

– ولا شيء. ما بيشتغلوا. ولكن عم يدورواع شغل.

– وكيف بيدفعوا حق الدخان، ولعب البلياردو؟

– ما بعرف. بِدبّروا حالن. أخت خالد بتعطيه المصروف.

– وعابد؟

– ما بعرف.

– لا تكذب عليّ حامد. أنت عم تدفعله مصاريفه.

– صحيح. ولكنّه رح يرجّع كل شي دفعته.

– ليش عم تخفي عينيك وأنت ع بتحاكيني؟ بتفكّر إنك قادر تخدعني؟

– ما بيهمّني هذا أبداً ياما. مش رح أخدعك.

وكان جادّاً في هذا، ومستعدّاً لخوض أيّ نقاش، أو عراك، أو تحدّيات، في سبيل الدفاع عن استعداده لتقاسم الحصص المالية مع صديقيه، ولم يعبأ بما إذا كانت أمه تريد اتهامه بالتبذير، أو الإسراف في التخلي عن المال الذي يرسله أبوه. وفي رأي نائل الجوف أن شعوراً خفيّاً ناقماً توغل في أعماقه، وجعله يقرر أنه يمكن أن يفسخ العقد السري الذي أجراه مع أمه

التي اشترت صمته وتواطؤه بالمال. لن يقبل أن تقول له: إنه مال أبيك. ولا يتمنى ذلك أبداً. وتضرّع إلى الله ألا تفعل ذلك. لأنه كان مستعدّاً للردّ عليها بلا تأخير: «ولكنك مش ع بتوفري أيّ قرش كمان».

وبسبب البطالة، والعجز عن إيجاد أي عمل، واظب الثلاثة على القيام بروتين يومي صار شبه مقدس بعدِ تكراره: صباحاً يجب أن يزوروا أحداً ما من القرية (وقد تنوّعت صداقاتهم بعد أن تجاوزوا مصائد زيتون) ليلعبوا الورق. كان الشبان الذين تركوا المدارس الثانوية يزداد بلا توقف كل عام، ولهذا فإن فرصة العثور على الشريك الرابع ظلت متاحة في أي مكان من المنارة. وفي الغالب فإن ذلك اللعب لم يكن مبهجاً، فاللاعب الشريك كان يظل مغلولاً وسط عقد الصداقة الثلاثي دون أن يتمكن من إبداء أي احتفال بفوز الفريق الذي ينضم إليه. ولهذا فإن التوقيت الصباحي ظل في حدود تزجية الوقت الفارغ الخالي من أيّ رطوبة أو ذكرى للصخب. ظهراً كان كل واحد يذهب إلى بيته للغداء، إلى أن قال عابد ذات يوم (كان نهاراً ماطراً، وكانوا خارجين من بيت زاهي الذيب): «ما بدّي ارجع ع البيت. ما بحبّ بيتنا!».

ففي صباح اليوم نفسه استيقظ من نومه على صراخ أمه. وبلا تفكير وجد نفسه فجأة وجهاً لوجه مع محسن الجوف: اكتشف تلك اللحظة أنه صار أطول من محسن بقليل، وأنه قادر على التحديق في عينيه اللتين كان يفرّ منهما، وأنه يستطيع أن يقول له، في لحظة طافحة برعد الغضب، والحقد المتراكم، والطيش، والاستهتار بكل شيء، وهو يرفع سبابته أمام عينيه المتوقدتين: «لا تمدّ يدك عليها قدّامي بعد اليوم! تسمع؟». رأى عيني أمه الدامعتين المحيّرتين بين ردّ فعل أبيه المتوقع، وتهديده.

«وشو عمل بيّك؟». قال خالد.

الراجح، بحسب نائل، أن يد محسن الجوف يبست في فضاء الغرفة

الحجرية المعتمة. لم يدرِ ماذا يفعل في الموقف المباغت. راقب الفتى الطويل صاحب العضلات، والصدر المنتفخ. وأشار بيده اليسرى إشارة تساؤل غامضة. ثم حرّك حاجبيه، وكتفيه، وشفتيه، حركات عشوائية تحاول أن تسأل عن المواجهة الطارئة التي لم تكن في حساباته أبداً. ثم انتعل خفّه، وغادر الغرفة. وحين خرج عابد، نظر نحوه مرة واحدة، ورآه يدخّن مقرفصاً قبالة كومة الحصى من الحجارة المكسرة، ثم ينفث من منخريه ضباباً شفافاً من دخان يتلوى في الفضاء فوق رأسه.

ومنذ ذلك اليوم صار يتناول فطوره في بيت المؤونة، ثم يرتدي ثيابه، ويخرج. وإذا ما التقى بمحسن، في أيّ مكان، كان كلٌّ منهما يدير وجهه إلى الناحية الأخرى، دون أن يلقي التحية. وبدا أن الصدام المعلن هو الذي استطاع أخيراً أن يحلّ بينهما سلاماً قائماً على عرف خاص تم الاتفاق عليه بالتهديد وحده. وقد ظل عابد يشكر الله في ما بعد أن محسن الجوف لم يتقدم خطوة واحدة في اتجاه الاستهتار بوعيده، بينما اعترف محسن لنائل، أن وليّاً شفّافاً كالطيف تراءى له في ظلال الغرفة، وغمز له بعينيه كي يسفح ما تبقى من غضبه خارج ذلك المكان، بعيداً عن احتمالات العراك مع ابنه. (كذّاب - قال لي نائل - فمحسن الجوف لم يعد يترك فرصة غضب دون أن يفرغها في جسد زوجته).

وفي ما بعد صار عابد يتناول طعام الغداء في بيت خالد يوماً، وفي بيت حامد يوماً آخر. وعند العصر يذهبون إلى محل محمود، ويجلسون على كراسي القش الواطئة، وهم يتأملون الجزء الغربي من المنارة، في الأيام المشمسة، أو يقعدون داخل المحل، ويدخن كلٌّ منهم سيجارة واحدة. قبل أن يبدؤوا البحث في احتمالات السهر.

تعجّ المنارة بلاعبي الورق في أيام الشتاء، وهم في الغالب من أولئك الذين تُضجِرهم سهرات الأقارب التي تقتصر على مشاهدة المسلسلات

المكسيكية، أو المصرية، قبل أن تقتحم الدراما السورية رتل النسق السائد. يحضر هناك في أماكن اللعب، التي تتنوّع وتتبدل، شبّان وكهول وعجائز في الثمانين من العمر، يتحلقون في دوائر داخل إحدى المضافات، وهم يتصايحون، ويشتمون، أو يضحكون. فيما تخيّم فوق رؤوسهم سحب دخان السجائر. وحين تنتهي السهرة، كان الثلاثة يتعمدون الخروج معاً. ولم يخالفوا هذا التقليد أبداً، ولم يعرف أحد في المنارة قطّ لماذا يذهبون في اتجاه الشمال نحو بيت خالد أولاً، قبل أن يعود حامد وعابد، ويذهب كلٌّ منهما إلى بيته. ولم يقل أحمد لديّ مصادري أيّ معلومة حول هذا التقليد الغريب. في حين أن نائل الجوف قال لي إن خالد سيف الدين ظل يخاف من الليل طول عمره، وأن هذا الخوف عالجه صديقاه دون أيّ غضاضة بالسير معه حتى يصل إلى البيت، ويشير لهما مودّعاً.

وفي بداية الربيع (كان عابد في السابعة عشرة) وجد برهان العلمي ينتظره في البيت. وبلا أيّ مقدمات قدم له ورقة بيضاء، وقال قبل أن يسمح له بقراءتها: «وقِّع اسمك الثلاثي تحت الكلام. وبعدين اقرأ». «ما هذه؟». «طلب انتساب للحزب». ثم أبدى أسفه لأن أحداً لم يخبره أنه (أي عابد الجوف نفسه) بلا عمل. ثم أخذ يشرح له أن الوظائف في الدولة قليلة جداً، وأن الناس مثل الكلاب الجائعة، أو مثل الجمال. «تعرف قصة الجمال يا بو علي. كل واحد يريد أن يقضم وظيفة، ويأخذ حصة ويترك غيره ليموت من الجوع». في هذه الأثناء كان محسن الجوف يهز رأسه، وينقل بصره بين النبريش وعابد. وكان يشير بيده، أو يرفع حاجبيه، أو يشدّ صدره، كلما بدرت من العلمي عبارة مشبعة بالتعاطف تجاه عابد.

لم يوقّع في الحال، وقال للنبريش: «خلّيني فكّر». وحين غادر العلمي البيت، قال محسن: «ليش ما وقّعت؟ الرجَّال عم يعرض عليك وظيفة مضمونة». فقال عابد: «هه! أمس كان ببيت حامد أبو الليل يقول نفس

الكلام. هذا بيشتري ذمم، وببيع وعود». «ابن حليمة قال لك هذا؟»، فقال عابد بجفاء: «حليمة وابن حليمة خبَّروني. تغدّى عندهم، وعبّا كيس خضراوات من حاكورة أم سامي». «ورفيقك وقّع الطلب؟». «لا. طبعاً». «وأنت؟ شو عم تعمل ببيت حليمة؟». «حامد صديقي. وما بيسأل عن سبب وجودي ببيتو». «ولكن حليمة.. مثل ما بتعرف!».

كان يعرف تقريباً، أو يشعر بالمرأة التي تنفرد ببيت أبو الليل كله. وكانت تسحره نضارة منزلها من الداخل. ثمة لون أزرق متدرّج يغطّي أثاثها كله، فالسجادة بلون زرقة البحر، والستائر بلون السماء، بينما نجّدت الفرش الممدودة على أرض الغرفة الداخلية بزرقة منتصف الليل. ووضعت وسائد رقيقة بلون الياقوت على الكراسي البلاستيكية ذات المسندَين، ووسائد نيليّة على الكراسي التي بلا مساند. وفي كل مرة يذهب فيها إلى بيت حليمة يحسّ أنه يدخل متاهة. فيما قالت حليمة إن الأمر يتعلق ببرج الدلو الذي يشدّها إلى عالم الأزرق. لم يكن يعرف أيّ شيء عن الأبراج، غير أنه يظل متعلّقاً بذلك المكان، صار يشتهي العودة إليه دائماً، ولا يتردّد في قبول أيّ دعوة من حامد لزيارتهم. غير أنه لم يربط في أيّ لحظة، بين الشبق الذي كانت المنارة تصف به حليمة، بعيداً عن قبضة حامد، وذلك التنضيد اللوني الذي كانت حليمة تتباهى به.

قال نائل إنها لم تكن تصادق أيّ امرأة من المنارة، وقد سمعها عابد تقول إنها لن تصادق نساء يضربهن الرجال في أول النهار، ويضاجعونهن في الليل. ومن هم هؤلاء الرجال؟ كانت ترفع إصبعها الوسطى، وتدفعها وسط الهواء وهي تقول إنهم حمقى وطائشون ورعاديد يحكمهم رجل حقود تافه مثل النبريش. طأطأ رأسه، حين أحسّ أن السهم قد نفذ إلى قلبه. فكلا الوصفين اللذين توبّخ بهما رجال المنارة ونساءها، كان ينطبق على أمه وأبيه.

ما أدهشه، أنها تلقفت علامة العطب التي أصابته فوراً (هل فاحت رائحة الحريق من لحمه ودمه وعظامه؟). فعانقته، وضمّته إلى صدرها، وهي تقول: «يا ميمتي!». دون أن تعتذر عن رأيها، أو تنسحب من التبجّح في موقفها. تلك اللحظة شمّ الرائحة المدعّمة بثديين يفوح منهما عبق الأنثى والأم (التي لم تعانقه قطّ منذ أن بدأ يعي الدنيا) والأخت التي تكاد لا تنظر إلى وجهه. اشتمّ العبير المخزّن في السمرة المتأجّجة. فأخذ نفَساً طويلاً من الهواء الذي هبّ نحوه من بين ثدييها العظيمين، قبل أن تبعده عنها، قليلاً، وتقرص خدّه، وهي تبتسم.

«حليمة تعاملني مثل أمّي». قال لأبيه بحزم. «أمّك؟ مثل أمّك؟!» قال محسن وقد اجتاحه غضب مكبوت مدمّر. فانتصب عابد، ورفع رأسه، وتطلّع في عيني أبيه، وسط السواد الذي بدأ يعتم، وقال: «اي».

كانت تلك ثاني محادثة ندّيّة بينه وبين محسن الجوف. وعلى الرغم من أنها لم تتضمن أي نضارة، أو مشاعر، فقد احتوت على عصارة ضئيلة يمكن أن تغذّي احتمالات الصلح بينهما. هذا ما تكهّنت به أمّه التي راحت تضرع إلى الله أن يديم ذلك الوئام الذي تراءى لها في حديثهما السلمي الوحيد.

وفي تقدير نائل فإن محسن المهزوم في تلك اللحظة كان يخطّط للانتقام، لا لتوضيح السلام. ولكن الوقت لم يساعده. والراجح أن نوعاً من الدهاء الممسوس ببعض الخشية، هو الذي دفعه لتحاشي الصدام مع الولد الذي بدا الآن أكبر بكثير من حساباته. ودليل ذلك أن سلطة الأب لم تكن قد تبخرت أو زالت، ولم يكن في منظور أيّ أحد أنها يمكن أن تتلاشى في أي وقت قريب. وأيُّ صدام بين الاثنين، حتى لو كان موقف عابد صحيحاً، وكان على حق، سوف يؤوّل لدى الجميع على أنه عقوق ولد ضالّ أرعن لا شرف له تجاه أبيه. ومع ذلك فإن الغريب في الأمر هو

أن محسن الجوف الذي كان حبه للسيطرة على أبنائه، أو على أي شخص أقل قوة وسطوة منهم، لم تكن له أيُّ فاعلية في تلك اللحظة. وأنه لم يستخدم أيَّ واحدة من الإمكانيات التي يمنحه إياها وجوده كأب في بلدة المنارة. ومن المستحيل، بحسب نائل، أن يكون قد تغيّر في لحظات، فهذا أمر مثير للسخرية تماماً في ما يخصّ محسن الجوف بالذات. ولكن الرجل بدا، في كل حال، ضعيفاً ومتهاوياً إزاء التحدي اللامبالي الذي أظهره ابنه. وقد بوغت، وارتخى، وابتلع الغضب ومضغه كما لو كان جملاً يلوك أكثر الأشواك لذّةً في مسيرته.

ولا يمكن أن نتأكد من صحة هذا التقييم من أيٍّ جهة، غير جهة نائل الجوف القريب من العائلة من ناحيتي الأب والأم. فمحسن الجوف كان فقيراً وبلا أمل، في حين كان يقترب من عام التقاعد في الستين، في تلك الأثناء. وعمله في المالية لم يحقق له أيّ تقدم. وقد ظل دائماً مجرّد كاتب يسجل الصادر والوارد في ديوان المديرية. وكان في وسعه أن يرى، أو يلمح حزم الأموال وهي تتدفق في الدائرة، ويحصي الملايين منها على صفحة دفتره الكبير، بلا أي معنى. كان حزنه، وحنقه، وفقدان الأمل الذي يغزو روحه، يجعله هائجاً ومستعداً للعراك في أي مكان. وبفضل بنيته القوية، كان خصومه (وهم باعة المفرّق من تجار الخضار والسمانة والخرداوات) يفضّلون امتصاص غضبه، أكثر من تغذية نيرانه بأيّ حطب من الكلام. سرعان ما يخرج مهزوماً من مثل تلك المعارك الفارغة، حين لا يجد المنافس المحترم الذي يمكن أن يعاركه. وفي الباص الذي يقلّه ظهراً إلى المنارة، كان يشتم أولئك الباعة اللصوص الذين يرفعون الأسعار ويستغلون الفقراء. فلا يجرؤ أحد من الموظفين الذين يروحون ويجيئون كل يوم إلى السويداء والمنارة، على معارضته. ويمكن لأحدهم أن يضيف إلى كلامه اتهاماً بالفساد لمديرية التموين، ولموظفيها. فيقول محسن

الجوف، بأسى، واحدة من العبارات التي صارت معتادة: «الله يعينهم على هذا البلد!». «متى سنصير بشراً؟». «نحتاج خمسين عاماً لنلحق بفورموزا».

وغالباً ما كان يطفئ غضبه في البيت، يضرب أحد أولاده، أو زوجته. وكان يجد كلّ يوم سبباً مناسباً لإشعال المشاحنات: ففي كل ليلة كان ينشغل حتى الإعياء في ترتيب علب الشاي والقهوة والكمّون والفلفل والورس وغيرها من التوابل في أنساق محسوبة بالميلّيمتر على رفوف المطبخ الخشبية، ويرتّب الصحون في الحمالة المعدنية، ويصفّ الملاعق في أماكنها كالجنود من الأكبر إلى الأصغر، وبجانبها شُوَكُ الطعام، وسكاكين المطبخ. وفي درج آخر يمكن أن يكون قد رتّب المناشف وقطع التنظيف، بينما تصطفّ الجوارب والألبسة الداخلية بانتظام قاتل في الخزانة. وفي كل يوم يجري عملية مسح واستقصاء يراقب خلالهما التغيّرات المحتملة على النظام المعدّ. سوف يتدفق الغضب بحسب حجم المخالفة، وفي كل يوم ثمة مخالفة أكيدة، في غياب العناية العائلية بأشغاله، أو نقص خبرة الأسرة، أو اللامبالاة. كان محسن يستمر في تنفيذ ما يسميه التدريب على الحياة، وهو يدخن بلا توقف إلى أن يفطن إلى الغداء: «تأخرت يا ستّ زبيدة. تحشين خرفان يعني؟». وفي المساء يمكن أن يمرّ على العلميّ في المقر الحزبي، ويحيّي جهوده العظيمة، أو يؤدي التحية العسكرية لصورة الرئيس المعلقة في صدر المكان. ثم يذهب لزيارة أحد أقربائه من آل الجوف.

ولهذا كله يصرّ نائل في سرده على القول إنه يعتقد أن هذا الشخص الممتلئ بالتوجّس والغيظ المكبوت والغضب المخزّن تحت الجلد والأظافر لا يمكن أن يكون حواره الهادئ مع عابد سوى همهمة حقد مبيّت. وسوف يقدّم لي عدداً من الوقائع الغامضة التي تثبت في رأيه ما سمّاه: انتظار الحقد. أو الحقد المنتظر. غير أن الأيام القادمة لم تقدم

لمحسن أيّ فرصة لتنفيذ وعيده المكظوم. وبدل ذلك أخذته هو شخصياً في سياق الأحقاد الخفية.

الموضوع الوحيد الذي ظل عالقاً في حلق عابد هو جميل الصخري، إذ كان يبدي حماسة استثنائية في أحد الأيام لزيارته في السويداء، ثم يتراجع عن ذلك في صباح اليوم التالي، متذرعاً بأن لدى الرجل كثيراً من الأشغال، وأنه لا يجوز أن يحرجه تجاه محسن الجوف، أو أن أولاده مشغولين بالتحضير للامتحانات، أو أن زوجته مريضة. سلسلة من الأعذار التي قلّما تشغل صديقيه. بل بالعكس فقد كان عدم ذهابه هو الأمنية التي يخبّئونها تحت ظلال الكلام المشجّع له.

في تلك الأيام انتسب خالد إلى الحزب، وقد أرغمه أبوه على ذلك، بكل الضراعة المتاحة بين يديه، كي لا يتسبّب بخراب الأسرة. فالافتراض شبه الوحيد الذي وضعه أمامه، قبل مجيء برهان العلمي لزيارتهم (كان خالد قد بدأ يتباهى أمام عائلته بالرفض الذي واجه به عابد وحامد زيارات العلمي)، هو أن رفض العرض سوف يقدَّم في تقرير مؤكّد إلى القيادة. ومن القيادة السياسية تُحوَّل التقارير إلى القيادة العسكرية، وعندئذٍ سنبدأ من سين وجيم. وقد ينبش القادة قصة الكابلات الضائعة في صحراء الكويت، ويمكن أن يعتبر الأمر مقصوداً. سلسلة من المخاوف (قال خالد لرفيقه إنه شعر أن أباه كان يظهر مذعوراً كأنه ارتكب ألف مخالفة) التي يستحيل عليه أن يتجاهلها دون أن يشعر أنه يتسبب في حزن أبيه، وهلع أمه، وشقاء سهى.

ولكن، بدءاً من ذلك اليوم لم يعد في وسعه أن يتخلص من رقابة النبريش. أمسك به الرجل داخل دفتره ذي الغلاف البلاستيكي الأسود، وراح يلاحق خطواته بلا توقف: الاجتماعات الدورية الأسبوعية. مهام

حفظ الأنظمة. الاشتراك الشهري. (تبرّع الوالد بدفعة كاملة لمدة سنة).
وبعد أيام جاء الخال عباس، وهو يرتدي الزيّ الديني. كان قد سُرّح من الجيش حديثاً، و«استلم دِينَه». وحين عرف أن خالد انتسب إلى الحزب، قال: «خلّي برهان يعمل شو ما بدّو... أصلاً ما بقي معنا الكثير من الوقت». «شو بتقصد؟»، قال الوالد. «آآآما شفت الفيلم الجديد؟». «وأنت ع بتشوف أفلام؟». تجاهل الخال السؤال، وقال: «رح تقوم القيامة قريباً ويتجمد الكون». لم يستطع تقديم المزيد من الإيضاحات عن المصير المنتظر. ولكنه بدا خائفاً حين لحق به خالد بعد مغادرته البيت. «خالي. هذا الفيلم عُرض من زمان في السينما». «جَدّ؟». «أي جدّ». «طيّب». «لا تناقش بيّي بموضوع الحزب. أنت بتعرف. لا يريد أن يقترب من أيّ خطر». بدا الخال منشرحاً، وسعيداً، وقال: «مليح إنّك نبّهتني لهذا». وحين اقتربا من جسر الوادي شمال المنارة، قال خالد: «خالي، أنت ما شفت الفيلم. صحيح؟». «صحيح خال». قال عباس بما يشبه الحشرجة. ثم ودع كل منهما الآخر.
قال لي نائل إن فيلم «اليوم التالي» الأمريكي، الذي لم يره أحد من أهل المنارة، خلق جوقات من المندّدين بالدنيا، والمنكفئين إلى أزياء الدين، واللاهثين الراكضين إلى مرضاة الله. وإنه لا يعرف من الذي يلوك تلك الأحاديث، ويعمّمها في البلدة. فسألته: «ما رأي النبريش بهذه الدعوات التي تخالف مشروعه القومي؟»، فراح يضحك، وقال: «أنت تسمّيه النبريش أيضاً؟ برهان العلمي لا يسمع ولا يرى سوى البيانات والتعليمات واللوائح التي تأتيه من المركز».

وفي أعماق خالد كانت المشاعر متضاربة تجاه الولاء الجديد الذي أضحى داخله، فمن جهة كان يرغب فعلاً في العثور على عمل ما يضمن له الدخل الشهري الذي يستطيع من خلاله أن يجرؤ على خطبة هيفاء، والحصول على قرض من العقاري لبناء بيت في الكرم الغربي المجاور

لمجرى الوادي، ومن جهة ثانية فإن هذا الانتساب يضعه في إحراج يفتقر لأي حصافة بين صديقيه الرافضين.

ولكن انتسابه الجديد فتح أمام الفريق بوابة جديدة، كما ظن خالد. فبعد يومين من زيارة برهان المظفرة إلى منزلهم، اتصل به نورس الأعرج، وقال: «أنا رئيس وحدة الشبيبة الجديد». لم يقتربوا من تلك الوحدة منذ زمن زيتون أبو طرة، وكادوا ينسون وجودها بسبب عدم الحاجة إليها. واستغرب خالد الهاتف في البداية، إلى أن جاء نورس لزيارته، وعرض عليه أن يشارك في تدريبات فريق البلدة لكرة القدم. «كرة القدم؟». «نحاول إنشاء الفريق لخوض المباريات في المنطقة. ومن يعرف؟ يمكن أن نصل إلى النهائيات والفوز على مستوى المحافظة».

وفيما كان نورس يعدد المكاسب التي يمكن أن يربحها المشاركون في الفريق الرياضي، كان خالد يصرفها في حقلين آخرين: حقل هيفاء التي ستكون فخورة بنجاحاته، ومستعدّة لتقديمه إلى أسرتها من جديد، كشريك عمر. وقد ظل هذا في المساحة المتخيّلة الصامتة من تفكيره. وحقل عابد وحامد اللذين رشّحهما لاحتراف اللعب معه علناً. «لكن عابد وحامد ما انتسبوا». اعترض نورس، مبدياً استغرابه من دسّهما بهذه السرعة في المخطط. «هذا شَرطي» قال خالد دون أي ظِلّ من التواضع، أو الرجاء. قال نورس: «القرار مش بإيدي يا زميل. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، عدم المؤاخذة، أنت بعدك نصير بالحزب، وتقول هذا شَرطي؟! يعني، عدم المؤاخذة، ما إلك بالقصر من مبارح العصر».

ومع نهاية كل يوم، يمضي الثلاثة الوقت المتبقي بين النعاس، والرغبة في السهر، في استعادة الوقائع البارزة من أحداث اليوم. وقد قدّم خالد لصديقيه قبل أن يودّعهما أمام باب بيته عرض اللعب بكرة القدم، دون أن يفصح عن حواره مع الأعرج. هل كان واثقاً من موافقة العلمي على

الاقتراح؟ ومن أين جاءت تلك الثقة، إذا كان لا يزال غضّاً وطريّاً في مجال العمل السياسي والحزبي؟

قال نائل إن خالد تعرّض فيَ تلك الليلة لما يسمّى «هزّة بَدن». لم يكن يقصد أنهما مثّلا به جسدياً، بل استخدما الكلام بحيث لم يتركا كلمة فظّة، ومهينة، يمكن أن تحطّ من الكرامة، دون أن يلصقاها به. و«تفو عليك يا جبان أيضاً». هل كانا معاديين للحزب؟ لا يعرفان أيّ شيء عن الحزب سوى أنه يحكم البلد. كانا يحتقران برهان في الواقع. ويظن نائل أن العلمي حاول مرّة، أو مرّتين، التحرّش بحليمة، وعلى الرغم من أن تلك المرأة كانت تستطيع خصي أيّ رجل بيدها اليمنى، فيما هي تدخن الأركيلة بيدها اليسرى، فإن ما كان يقوله حامد لخالد بدا كأنه انتقام بالوكالة من برهان وتابعه الجديد نورس الأعرج.

8

وفي بداية السنة الدراسية الجديدة، حين كان الشبان الثلاثة يلجون سن الثامنة عشرة، حدث مشهدان يعتبرهما نائل الجوف حاسمَين في مصير الأصدقاء الثلاثة.

هذا هو المشهد الأول: كان خالد سيف الدين يغادر المنارة في الحادية عشرة من صباح كل يوم اثنين، على متن أحد الباصات التي تشتغل على خط السويداء المنارة. يتجول قليلاً في المدينة، حيث بُني الجسر الجديد الذي يربط بين هضبتيها، ثم ينتقل إلى الأسواق التي بدأت تغزوها «حضارة البوتيكات»، وتصاحبها حضارة موازية أخرى هي ألبسة البنات الضيقة: بنطلونات الجينز التي تشدّ الخصر والوركين والفخذين والساقين، والبلوزات الضيّقة المشدودة الصدر، والماكياجات العصرية، والصخب. ثم ينتظر جالساً على حافة درج حجريٍّ صغير قبالة ثانوية البنات وهو يأكل البزر. وفي المكان نفسه، الذي ينفتح على أكثر من شارع، يبني شبان آخرون متاريس الحب في انتظار خروج البنات من المدرسة: طلبة الثانوية، أو الجامعات، أو من الزعران غير المتعلمين. وحين تدق ساعة الصفر وتبدأ البنات في التدفق من باب الثانوية الحديدي، يقترب خالد أكثر، بحسب الدروس التي استقاها من الفرجة على المشهد نفسه من قبل، ليرى هيفاء،

ويلوّح لها تلويحة صغيرة، ويمشي في اتجاه الغرب. هذا هو اتفاق العشق بينهما منذ أن جاءت إلى هنا في العام الفائت. وفي طريقهما يشتريان بعض المكسّرات، ثم يمضيان إلى الشارع الجديد الذي عُبِّد أسفل المدينة تحت الجسر. هناك كان يحوم فيه عدد من العشاق الصغار في ساعات الضحى، حين تكون بعض الفتيات قد استطعن الخروج من مدارسهن.

وهذا هو المشهد التالي: حين تخرج هيفاء من الثانوية، في الأسبوع التالي، وتجيل بصرها في المكان المزدحم بالمارّة والشبّان باحثة عن خالد، سوف تراه واقفاً بين حامد وعابد وهو يشير لها. بدا طافحاً ببهجة جوّانية فخمة لم ترها من قبل. في البداية ظنّت أنهما كانا يحرسانه في انتظارها. وقال نائل الجوف إنها أبدت ترحيباً طاهراً بهما، وأنها قدمت لهما اشتياقاً صادقاً بلا أي رتوش. إذ كانت قد مرّت أكثر من سنة ونصف دون أن تراهما. وردّدت أمام الشابّين كلمات عن سحرها وإعجابها بهما، وربما قالت: «يا ألله شو صايرين حلوين؟». وقد تلقّى خالد من جهة، والشابّان الزائران من جهة ثانية، تقريظها، بفرح صاخب أثار انتباه المارّين من هناك، دون أن يكون له أثر في اللقاء. ولا بدّ من أن هيفاء قد تباطأت قليلاً وهي حائرة في مواجهة الوجود الطارئ للشابين اللذين كانت تعرف جيداً قوة حضورهما في حياة خالد. وكان انتظارها ناجماً عن إحساس قديم عائد إلى زمن الطفولة بالجميل تجاه ما فعلوه أيام الدعوة للتحقيق أمام زيتون. ولهذا فقد آثرت أن تنتظر مبادرة الوداع التي توقعت أن يقدّمها حامد وعابد بعد أن أوصلوا خالد إلى الموعد. وما خذلها هو أن خالد أشار برأسه، لرفيقيه، في اتجاه الطريق التي سارا فيها قبل أسبوع، وهو يقول: «امشوا!». وأن صديقيه مشيا فعلاً، فيما كان يدعوها، وقد ظهرت علامات غرابة وحيرة على محيّاه تتساءل عن سرّ التباطؤ.

وقال نائل إن البنت سارت كالمخدّرة بين الشبان الريفيّين الثلاثة،

الذين كانوا قد حلقوا ذقونهم، وقصّوا شعورهم، وارتدوا أفضل ما لديهم من الثياب، وملؤوا جيوبهم ببزر اليقطين الأبيض، والسكاكر، وعلكة النعناع، وقطع الشوكولاته المحشوة بالمكسّرات، تكريماً لهيفاء الجميلة.

وفي الطريق التي ساروا فيها، ظلّت البنت مضطربة وشبه محطّمة من هول المباغتة التي أعطبت أحلامها باللقاء مع خالد، ومشت شبه ذاهلة، وقد بلبلها خجل كاد يزهق نَفَسها، فتذرّعت بالتعب والإرهاق الناجمين عن التحضير للمذاكرات في الأسبوع التالي، وهي تفكر في وسيلة للتخلص من مأزق الحصار الثلاثي الذي أربكها، في حين راح كلٌّ واحد منهم يهب البنت ما لديه من النكات، والطرائف التي يحفظونها عن المنارة، أو عن المعلمين في زمن المدرسة، أو عن قصص الأولاد التي لا تعرفها، وهم لاهون تماماً عن العكر الذي أصابها. لا يستبعد نائل الجوف أن خالد نفسه لم يلاحظ شيئاً من ذلك، فوجوده برفقة صديقيه يحوّل انتباهه إلى أدائهم وزخم وجودهم، والرونق التام الذي يجب أن يظهروا به أمام حبيبته. فيما لم يُعِر هيفاء أيَّ انتباه تقريباً، إلا في اللحظات التي كان عليه فيها أن يرى كيف تستقبل مشاركات حامد وعابد في الحديث. وهكذا فإنه يبدي فيضاً من الفخر (يمكن أن يعبّر عنه برفع الحاجبين، وهزّ الخصر ورفع صوت القهقهة) حين تضحك لنكتة قالها حامد. أو يظهر تكشيرة أسىً سريعة، تعويضاً عن خيبة، أو فتور، أو كسل ما يظهر في سلوك هيفاء تجاه حديث أيٍّ منهما.

غير أن الجوّ كله تغيّر بعد ربع ساعة من المشي، والكلام. صارت هيفاء تضحك بلا حرج، وتمشي إلى الوراء، فيما يكون الشبان الثلاثة سائرين في نسق، إذا كان الشارع خالياً من السيارات، كي تستطيع أن تراهم جميعاً. تقهقه لأي كلمة أو نكتة أو إشارة، وسرعان ما بدا أن

ضحكها بات مُعدياً. وراح الشبان يضحكون بسبب ضحكها، ويرفعون أصواتهم بالغناء والصخب.

دام ذلك المشوار أكثر من ساعة، تجوّل فيها الأربعة في المدينة القديمة، وشربوا عصائر، وبيبسي، وأكلوا فطائر ساخنة، قبل أن تقول هيفاء إن عليها أن تعود إلى البيت، فصديقتها التي تمشي الآن مع حبيبها ستكون مستعدّة للعودة أيضاً.

وليس من المؤكد لدى نائل الجوف، أن الجملة التي نطقت بها بعدئذ هي السبب في ما سيحدث لاحقاً، أم أنّ كلّاً من عابد وحامد قد فُتن بالحضور السماوي الموهوب للبنت. كي يقرروا أنهم سيعودون فعلاً لتكرار هذا المشوار جواباً على دعوتها لهم: «عيدوها، لا تنسوني!».

لا يمكن لأحد أن ينسى فتاة جميلة تضحك، وتتدلّل في الشارع، وتعانقه، وتشدّ قميصه، مثلما فعلت مع عابد، وقطعت زرّ القميص. وتغنّي لراغب علامة، أو عبد الحليم، أو تذكر أسماء ممثلات شهيرات، وتقول عن البنات اللواتي يمشين في الشوارع: هذه تشبه فاتن حمامة. وهذه سعاد حسني. وكان الشبان الثلاثة يوافقون بلا نقاش، ولا أحد منهم يتذكر تماماً ملامح أي واحدة من الممثلتين، إذ كانوا في تلك السنوات مشغولين بمشاهدة أفلام البورنو في بيت أحمد لديّ مصادري، الذي اقتنى تلفزيوناً صغير الحجم من نوع «توشيبا»، وجهاز فيديو مناسباً. كانت تلك واحدة من الأساليب التي استطاع لديّ مصادري أن يحافظ بها على صداقة الشلّة، كما كان يسمّيها. وكان خالد في البداية يخشى الفرجة على تلك القناة خوفاً من برهان العلمي الذي قال في الاجتماع الحزبي إن مثل تلك الأفلام الخلاعية المنحطّة تزعزع الشعور الوطني. ويمكن أن يحاسب أي شخص من الرفاق الذين يشاهدونها. «منحطّة؟». قال لديّ مصادري وهو ينكش

أنفه: «ليلة الأربعاء ترون الشعور الوطني». كان بيت العلمي في الجهة الشمالية من المنارة، محاطاً بجدار واطئ من الحجارة، وله بوابتان، تفضي الأولى الكبيرة منهما إلى مدخل المضافة، بينما تذهب الطريق المتصلة بالبوابة الثانية الصغيرة إلى الغرف الداخلية. لكن لديّ مصادري قادهم من ناحية الوادي، وصعد بهم التل الصخري التي يطل عليها بيت العلمي من الشرق، ثم زحفوا قليلاً، ودبّوا على الأرض، وتسلّلوا بلا صوت إلى البوابة الصغيرة، ثم إلى الشرفة الداخلية: هناك جلس برهان على وسادتين من الصوف، قبالة تلفزيونه الجديد الملون، وهو يحملق في الشاشة. قادهم عائداً، وقال في الطريق ناقماً: «شفت سيد خالد؟». لم يكن يقصد أن يريهم أن النبريش يشاهد أفلام العراة، أو يحملق في أجساد النساء، بل أراد تشجيع خالد على البقاء، خوفاً من مغادرة المجموعة كلها تعاطفاً معه. لم تكن تلك الأفلام غايته، بل مجرد وسيلة إغراء وجذب للشبان الثلاثة الذين باتوا اليوم قادرين على حمايته في حال تعرّضه لأي اعتداء، أو مضايقات من أيّ شخص. ففيما كان الأولاد يكبرون بسرعة، كان أحمد في حبس جسدٍ ضئيل ناحل عاجز عن المواجهة مع أي تحرّش أو عدوان محتمل من عصابات المنارة التي أخذت تتكاثر. وكان وجهه يشبه القنفذ، وله شعر لم يعد يصلح للتمشيط بعد أن أنهى خدمته في الجيش. وكانت السنوات الثلاث التي قضاها في الخدمة الإلزامية قد قلّصت لائحة أصحابه وأصدقائه، حين لم يجد أحداً من أبناء جيله في المنارة بعد هذا الغياب. ولكنه لم يكن معادياً للنبريش، وقال لهم: «خلّوا السرّ بيننا». وهو رأي خالد الذي كان بدأ يدعو إلى ضرورة تحاشي الاصطدام مع برهان العلمي علناً. فما يزال الرجل يملك مفاتيح الخير والشر، المنفعة والضرر، القوة والحظوة أو التنكيل والإبعاد. فظنّ عابد أنه لا يريد أن يبقى معهم في صحبة أحمد ليلة الأربعاء، ولكنه نفى ذلك. وكان صوته يخلو من الحس

والليونة والشغف الذي يظهر به عادة في المناخ المعتدل. قال: «أنتو بتعرفوا أني ما بقدر عيش بدونكم».

ارتعد عابد الجوف. وسرت رعشة دبيب نملي قارص، مسحت قدميه وفخذيه وخصره وصدره وكتفيه إلى أن استقرّت في لبدة شعره السميك الخشن، حين سمع تلك الجملة. امتلأ جبينه بقطرات عرق كثيف رطب، وصار شاحباً مثل الغبار، وبدأت ضربات قلبه مسموعة في أذنيه مثل دفّ مثقوب. أراد أن ينهض من جلسته وهو راغب في الفرار والركض، لكنه لا يدري إلى أين يمكن أن يهرب أو يرحل. لقد رآه تلك المرة قريباً منه، وبدا كأنما كان يناديه.

كانت الكلمات تتآكل، وكان عابد يحس أن المشاعر تضيء وتتوهج وتطلق ضوضاء وتصخب، ثم تخزّن في مستودع رقاد معتم يعجز عن الوصول إليه. ولكنه يقول لنفسه دائماً إنها مسألة وقت. سوف تأتي أخيراً، ويتمكن من قول الكلمة، أو وضعها في مكانها الملائم لوجبة العواطف التي يشعر بها. وكان هذا الأمر يعذّبه كثيراً، إذ يظل جوفه فارغاً خاوياً في انتظار ذلك المجهول الذي يحبه، ويشتاق إليه، ويبحث عنه، دون أن يستطيع التأكد من ماهيته. هل هو الموت؟ أم هو جميل الصخري الذي لم يره سوى مرة واحدة حقيقية. ثم اختفى؟ من منهما يمكن أن يصل إليه قبل الآخر؟

9

في الأشهر التالية اتفق عابد وحامد مع خالد على التناوب في الذهاب إلى السويداء للقاء هيفاء. يوم في الأسبوع له ولهيفاء، ويوم في الأسبوع التالي لهم جميعاً ولهيفاء. لا خالد - الذي أقرّ الاتفاق معتبراً أنه يتضمن كثيراً من العدالة - ولا هيفاء، اعترضا. وفي أول يوم حصريٍّ مخصص لها ولخالد استغرقت ثلث الوقت في السؤال عنهما. «احكيلي!». وبسبب الحيرة والالتباس، لم يعرف في ذلك اللقاء أيّ الحكايات يمكن اعتبارها أسراراً، وأيّ الأحداث يجب أن تروى، أو تخفى. تلعثم قليلاً، وشكا من لثّته، ومن أسنانه، للتخلص من مأزق الحيرة الذي ازداد عتمة، حين قالت له: «خالد احكي لي كلّ شي إذا بتحبّني!». وبحسب نائل الجوف فقد كان خالد سيف الدين أخلاقياً متشدداً في التعامل مع ما يؤمن به، وبدا أن من الصعب عليه أن يختار بين الطلب والشرط، دون أن يخلَّ بمبادئه أو بيقينيّاته. كان يحبّها بحماسه الأخلاقي نفسه، وصدقه اليقيني الذي قد يجد أن الإخلال بأيّ قسَم، أو شرط، لا يمكن التهاون تجاهه، سواء كان نافعاً، أو ضارّاً. وكانت عبارة «إذا بتحبّني» تعني أنه لم يعد يستطيع أن يخفي أي موضوع، دون أن يقول لنفسه: «أنت تكذب يا خالد».

وفي اللقاء الجماعي الأول بعد المعاهدة الجديدة، فوجئ عابد وحامد

أنها كانت على علم بكل ما يفعلونه في المنارة، وراحت تسخر مثلاً من انزلاق عابد ووقوعه في جمّة من نبات القرّيص قبل أيام. وكيف تسلّقوا جدار حاكورة علي الأبيض وسرقوا الخوخ الأخضر. ومن غلب في كرة القدم، ولعبة الطرنيب، وكيف سكروا في عيد الفصح مع أولاد شمس. وصارت تعرف أشياء كثيرة عن لديّ مصادري، وعن علي تفاح الذي طُرد من بيت طلال الأصفر وهو يخطب ابنته. ومع ذلك فقد ظل لديهم كومة من الحكايات الأخرى التي تجمّعت في السنوات الماضية كي يروياها لها، وعلى الرغم من أن حامد هدّد خالد سرّاً، من وراء ظهر هيفاء، بإجاصة أصابعه المضمومة، وأن عابد همس في أذنه: «بتشوف!». فقد قرّرا، حين شاهدا عينيها المخضلّتين بدموع فرحها المخصب بالحكايات، أن يُعدّا خلال الأسبوعين القادمين رواياتهما عن تاريخ المنارة في الزمن الذي عاشوا فيه.

وسرعان ما تخلّيا عن فكرة التناوب الأسبوعي، وقرّرا ألا يسمحا لخالد بسرقة الحكايات مرة ثانية أو الاستئثار بالزمن الأسبوعي. وهكذا وجدهما خالد صباح يوم الاثنين يقفان على الجسر، في انتظار الباص الصباحي، قبل أن يصل إلى هناك. لم يغضب من مجيئهما، بل من الكذب والتواطؤ. وهدّدهما دون أي ظلٍّ من الرأفة، بالحرمان من لقاء هيفاء إذا ما كرّرا تلك الخديعة مرّة أخرى.

ولكي يتمكنوا من السفر الأسبوعي إلى المدينة دون أن يحمِّلوا حامد التكاليف، أخذوا يبحثون عن أي أعمال يومية ممكنة: تنزيل سيارات الخضار، أو البطيخ، رفع أحجار البناء، أو حمولات سيارات الرمل إلى الطوابق العليا، نقل عفش البيوت، تحميل البلاط أو الأسمنت، أو تنزيل سيارات البلوك.

وصف لها عابد عشّ الحجل. كيف تأتي الأنثى وتبيض بين أغصان

إحدى أشواك الوعر أو السهل، بعد موسم البذار، هناك تدفئ بيضها وفق معايير الطير، حيث تعرض عليها سنابل القمح، أو الشعير، ظلّاً مديداً حارساً ريثما يفقس البيض. وهذا حلف طيّب مجاني لا يستفيد منه سوى الحجل. إياك أن تتأخر في وقت البيض، فالملاعين من أبناء المنارة، قد يأتون لسرقة البيض، قبل أن يحصد الفلاحون الزرع. قالت: «كيف بيكون البيض هناك؟». «بتعرفي؟ بيكون هناك مثل أولاد نائمين مع بعض على فراش من الحصير. مثل حصى بحر نظيف. مثل قلوب أربع خمس ولاد بيحبّوا بعض». هامت هيفاء في فضائل الوصف، الذي أضاف إليه عابد صورة ديك الحجل المخطّط بألوان التراب والصخر. وصوت الأنثى وهي تشقرق في سهل الزرازير، أو عند تل الهوى، أو وراء صخور الدحنون. تعرفين الدحنون؟ سألها حامد. قالت: «شويّ.. أمي كانت تمنعني من لمسها». قال خالد: «أنا بعرف السبب». «قل لي يا خالد». «لأنك إذا لمست الدحنون مش رح تحبلي بعدين أبداً. أمي بتقول إنّو الدجاج ما بيبيض إذا أكل الدحنون».

فقالت هيفاء: «كنت من زمان فكّر أنني ممكن أحبل من الكلام معك».

وطول ذلك الشتاء واظب الثلاثة على زيارة هيفاء يوم الاثنين، والغريب في رأي نائل الجوف، أن البنت لم تبدِ أيّ نفور، أو ضجر، من هذا التمادي من قبل الصديقين، في الاستيلاء على وقت الحب. كما أن حبّها وتعلّقها بخالد بدا أنه يرتقي بلا توقّف إلى ذرا شغف لا متناهٍ، كان يظهر في حركاتها، وضحكاتها، وكلمات العشق التي لم تعد تتردّد في قولها له أمام صديقيه.

وكاد شتاء تلك السنة يعطّل دوريّة مشاويرهم، لولا أن حامد أحضر مظلة سوداء كبيرة، تتسع للأربعة معاً فيما إذا أمطرت فجأة. لم يعد للبرد أي مفعول معطل أيضاً، وقد احتاط الجميع تجاه ذلك، حين توفرت في

المدينة ألبسة البالة الأوروبّية. كان كلّ واحد من الأصدقاء يستطيع أن يرتدي ثياب الآخر دون أي مشاكل في قياسات الجسم. ولم تترك ضآلة جسم خالد، الذي كان أكثر نحولاً من صديقيه أي أثر في ترتيب الأمر، فقد اكتمل طوله، حتى ضاهى رفيقيه تماماً. كانت تلك الميزة تتيح لكل واحد أن يظهر في رداء جديد مختلف، إذ كانت أجسادهم هي التي تخرق الزي، وتتكهّن بميزاته، لا العكس. حتى أن هيفاء نفسها لم تلاحظ تلك التغيّرات، إلا حين أبدت إعجابها بسترة جلدية كان يرتديها خالد. فقال بغيظ: «كان عابد لابسها من يومين». فأطرقت، وفكرت، ثم التفتت نحو عابد وهمست بضراعة وحب: «كانت حلوة عليه. عليك أنت بتخلّيني حبّك أكثر!».

ويقول نائل الجوف إن مثل تلك العبارات البسيطة كانت تهزّ وجدان الأصدقاء الثلاثة، شعر عابد الجوف بالحياء، واحمرّ خدّاه وهو يواجه الكلمة السحرية التي وضعت شمائله كلّها في ميزان الحساب. ولكنه لم يقل لها شيئاً في الحقيقة. طأطأ رأسه وقد نشف ريقه، وراح يتطلع نحو الرصيف المقابل، أو يتطلع إلى ساعته.

أما ما حدث بعد ذلك فقد أضاء حياتها.

كان يوم اثنين، وقد فوجئت بعد يومين فقط، أنهم كانوا ينتظرونها في الساحة المقابلة. لم تكن قد رتّبت لهذا الموعد، مع أيّ واحدة من صديقاتها، غير أنها لم تنكر فرحها بهم. فارتجلت لنفسها حكاية سريعة، يمكن أن ترويها لأمها، عن عمل مدرسيٍّ ما يجب أن تستعيره من إحدى زميلاتها (سوف تجد أكثر من بنت مستعدّة لتقديم إعانة الحب دون تردّد)، وقالت لنفسها إنها ستتدبر أمر التفاصيل حين تعود إلى البيت.

وفي واحدة من لحظات الفرح التي ستظل تجوب ذكريات عمرها

في ما بعد، غمر الشبان الثلاثة، هيفاء الكافي، بأزهار ربيع برّية قطفوها من أطراف المنارة، قبل يوم. وفي ثوانٍ كانت البنت تقف ذاهلة، بشعرها القصير الذي يشبه قصّة الصبيان، وسط مهرجان من أزهار السوسن البري والبابونج والعطرفان وشقائق النعمان والأقحوان وزهر الزعرور. كانت تلك هي أربعاء البراقطة التي تسبق فصح المسيح، وقد عرفت هيفاء الكافي أن أكبر كمية من تلك الأزهار التي اشترطوا عليها أن تنقعها في الماء، ثم تستحم به، قطفها عابد من البرية، يوم الثلاثاء، حين خرج باكراً عند مطلع الشمس، ليجوب الوعر ويحضر لها زهر الحدندوق الأزرق.

بكت من السعادة، وقالت إنها تحبّهم. وفي اللقاء التالي أحضرت لكل واحد فيهم، فرشاة أسنان، مع المعجون الملون، وعلبة حلاقة جديدة، وفرشاة، وشفرات أجنبية، إذ كانت قد لاحظت أن خطوط تظليل حمراء كانت تجرح خدّ حامد، وذقنه، وأعلى عنقه، وعلب عطر، و«ديودوران» لرائحة العرق. وتبيّن لهم أن البنت لم تكن قد تفهّمت بعد موضوع الملابس حين قالت إنها تشعر بالأسف بسبب عدم معرفتها ما اللون المفضّل، في ماكينات الحلاقة، أو العطر المميز لدى عابد وحامد. وفيما قابلا ملاحظتها بابتسامة، أكّد خالد لها أنّ الأمر لا يهمّ. ليس لدينا لون مفضّل، بل ثلاثة ألوان، ولا أيّ عطر مميز، بل جميع عطور الأرض.

غير أن الأوقاتْ تغيّرت في ما بعد، وبدا أن البنت صار بمقدورها أن تخاطر بالحديث عما تحت اللون الموحد، أو تركّز على الإضافات التي لا تشبه أحداً لدى كل واحد فيهم. وبدا أيضاً أن سلطتها أخذت تمتد، ويصير لها أذرع أو أجنحة، دون أن تشتبك في أيّ وقت مع الخاص الفريد الذي كان يجمعهم. لم تكن هذه فلسفة واضحة لديها، بل مجرد رؤيا عفوية ربانية تغلغلت في روحها بفضل المحبّة البريئة التي كانت تكنّها لكلّ واحد منهم.

وسوى هذا فقد دأب الثلاثة على الوفاء بالمشوار المقرّر، دون مخالفات، أو ثغرات. وقلّما كان يتغيّب أحدهم عن الموعد، إلا إذا كان مريضاً. وعندئذ فإن الحرص على هيفاء، والخشية من أن تصلها العدوى، ينقضان عهودهم بلا أيّ أثر تأنيبي. ولم يبالوا بأي تفصيل آخر من تلك التفاصيل التي بدأت تحاصرهم، وتبتزّهم. فإذا أرادوا أن يحكوا لها عن أبي محمود، فإن المطلوب التالي هو أن يزوّدوها بفكرة مُرضية عن ميخائيل نعيمة. وبسبب ذلك اضطروا إلى استعارة كتبه. وقد رحّب بهم إسماعيل جرّار الذي بات الآن متقاعداً، بعد أن سلّم المحل (هذا هو الاسم الجديد البديل لاسم الدكان) لابنه محمود. كانت مكتبته في المضافة المطلّة على الدكان في قمة التل الأبيض، وهو أحد تلال المنارة الأربعة، مؤلفة من طبقتين خشبيتين، مثبتتين إلى الحائط، في ركن المكان، وفوقها صورة لنعيمة مبتسماً وهو يسند ذقنه الناحلة إلى يده. فيما بان اسمه متكرّراً في عشرات الكتب الصغيرة والكبيرة، برفقة كتب قليلة لنسيب عريضة، وإيليا أبو ماضي، وجبران خليل جبران.

لا شروط لديه، إذ بدا أن فكرة استعارة كتب نعيمة وحدها، خميرة كافية لعزائه عن غياب الناس من حوله. ولهذا لم يسأل عن سبب مجيئهم المفاجئ، ولا عن سبب غيابهم الطويل، وكلّ ما قاله، وهو يتأمّل قاماتهم الطويلة، هو: «وقت الدرس كل وقت».

وإذا ما أرادوا الحكي عن زيتون (رعبها في الطفولة)، استعادوا الماضي والحاضر في محاولة لمعرفة الحقائق عنه. ولهذه الغاية زوّدهم لديّ مصادري بمصير زيتون الحالي. ففي صباح يوم اثنين في نيسان، راقب من الرصيف المقابل حركة العاملين في مؤسسة الهاتف. ومن هناك تتبّع سير زيتون، حين ركب دراجته النارية، وانطلق من أمام البناء الأصفر، مستقلّاً دراجة نارية مثله، ومقنّعاً بشماخ أحمر.

وفي الساعة الحادية عشرة، وقف أمام الثلاثة، وقال لهم كي يذهبوا إلى حي المزرعة، ويبحثوا عن أعمدة الهاتف المنصوبة، وهناك سوف يرون زيتون معلّقاً إلى الخشب، في الأعلى، بأرجل من المسامير المعوجة.

لكن هيفاء أفسدت الوشاية. ووبّختهم لأنهم اعتقدوا أنها يمكن أن تكون سعيدة حين تشاهد الضعف، أو أنها تفتقر للتعاطف البسيط مع البشر، وقالت إنها لا تكره زيتون، ولن تقبل أن تسخر من وجوده في أعلى عمود هاتف لأنه يريد أن يعيش ويأكل.

وأصعب ما لاقوه أنها بكت، ولم يجرؤ أيُّ واحد من بينهم على الاقتراب منها، بعد أن قرأت عليهم لائحتها الاتهامية، بلا تردّد. وسرعان ما قالت إنها تريد العودة إلى البيت. لم يعترضوا، وظلوا واقفين دون حراك، إلى أن صرخت بهم تقريباً: «خذوني ع البيت!». وقبل أن تتركهم، في ساحة الزنبقة، قالت بصوت مهدّد: «لا تنسوا تجيبوا حكاية حلوة الأسبوع الجاي!».

وفي أول الصيف افتُضح عشق سهى ومنذر أبو ليلى. لم يكن هذا مكتوباً بعد في أي صحيفة من صحائف المنارة، لم يسمع أحد قبل ذلك عن علاقة الحب بينهما. وقد تخلّى منذر عنها في الحال، حين بدأت يمنى الأسمر في نشر الحكاية. كانت قادمة من حصاد العدس، وهي تحمل صرّة ثياب، ومطرة ماء فارغة، وتمشي متمهّلة ومتعبة مساء يوم حارّ، في بداية حزيران، حين خطر لها أن تختصر طريق البيت، وتمرق من حواكير آل سيف الدين. عبرت مجرى النهر الجاف، وبسبب الصخور لم يكن لها وقع أقدام. كان العشب اليابس يغطّي ساقيها، حين سمعت خشخشة غامضة وسط العشب. لاحظت أنهم لم يحسنوا حراثة الحاكورة، وفكّرت أن في وسع زيد أخيها أن يفلحها بعزّاقته الجديدة. ثم شعرت بالكراهية تجاه هؤلاء الذين يرفضون أن يفيدوا شقيقها، إلى أن وجدت نفسها فجأة،

فوق الجسدين المتعانقين الساكنين كالموتى. قالت يمنى، في ما بعد، إن سهى سيف الدين توسّلت إليها: «دخلك، استريني!».

لا تحتاج المنارة إلى الشهود في مثل تلك المسائل. وفي رأي نائل فإن الشائعة هي الحقيقة. إذ تبدو تلك البلدة الساكنة مثل مستنقع، وكأنما تنتظر يوماً بعد يوم، شهراً بعد آخر، سنة إثر سنة، لحظة انكسار ما في مسارها المتحجّر كي تنبثق حيّةً من جديد. رأي نائل أن الحياة لا تتضمن بالضرورة أمجاداً أخلاقية. بل مجرّد مجرفة، عصا تحريك. ولهذا لم تستر يمنى الأسمر السرّ الذي رأته، وإذا كانت تلك البنت تحتاج أيضاً إلى ما يخرجها من ضجر التكرار الذي تتألف منه أيامها - قال نائل - فإن أسباب الوشاية، أو إذاعة السر، لا تعدّ ولا تحصى إلى جانب ذلك: شجار قديم في إحدى ألعاب الحجلة، حسد بسبب ربطة شعر، كراهية ناجمة عن سلطة ممنوحة لسهى، وقهر يلتهم حياة يمنى من قبل الإخوة. هذه هي الأسباب التي ذكرها لديّ مصادري لعابد وحامد، بينما كان خالد غائباً. فقال عابد: «ما إعراب هذه المعلومات يا أحمد؟».

لزم خالد البيت، حبس نفسه في الغرفة الداخلية، وسط عتمة المكان الذي تفوح منه روائح المؤن. ولم يجرؤ على سؤال شقيقته الكبرى، فسهى ظلّت دائماً، على الرغم من تبدّل مزاجها وطباعها وسلوكها تجاهه، تحتفظ بحضورها المسيطر الذي ظل يخلق العقبات في طريق الألفة بينهما. وطول الأيام الثلاثة التي أعقبت الشائعة، لم يستطع أن يحسم فكرته عن الأمر. لا في تفهّم سهى، ولا في إدانتها. لا في كرهها، ولا في التعاطف معها. ولم يستطع أن يتجاوز الباب إلى ساحات المنارة، كان شعور بالخجل، أو بالحرج، أو بالتردّد، أو بالعجز، أو بالخفّة، يمنعه من الحركة. شعور غامض مظلم محيّر يعطب كيانه. ولم تفلح نداءات عابد وحامد، في إخراجه من الحبس، إلا في اليوم الثالث حين أخبرته أمه بما حدث.

فرّ منذر من المنارة في اليوم نفسه، وبات من الصعب على أيّ شخص في البلدة أن يؤكد حضوره أو غيابه. لم يعرف كثير من الناس ما إن كان في المنارة ذلك اليوم، أم لا، فالشاب الذي كان يعمل في الشام، كان يأتي إلى المنارة زائراً عابراً. وقد التقى بسهى في خطبة مجيد الفحل. وسرعان ما تمكّن من التعرّف إلى حرمان الجسد والروح اللذين كانا يظهران في بطانة نظراتها، ولهفتها المخبّأة. وقد اعترف لأحمد ذات يوم: «ولكنّي حبّيتها فعلاً»، ولكن أحمد لم يسأل عن صدق الرجل، اكتفى بمهمة الرسول الذي أبلغ منذر أبو ليلى توصية حامد أبو الليل: «غادِر المنارة الليلة، ولا ترجع. وإلا فإنك مش رح تغادرها أبداً!».

وحين ضمنوا حجّة الغياب، صار ممكناً أن ينكروا واقعة الحب. تبخرت الحكاية بعد اختفاء منذر. ولكن تفكيرهم كان منصرفاً، حسب ما يقول نائل (وأنا أؤيده هنا) إلى خالد، لا إلى سهى. إذ لم يفكّروا فيها بتاتاً، ولم يراعوا مشاعرها، وقد بدأت تظن أنها لم تكن موجودة فعلاً بين الأعشاب اليابسة، وأنها لم ترَ منذر، ولا احتضنها، ولا باسها. وقد زاد هذا في مشقّتها، بقدر ما ساهم في راحة خالد، واستقرار حالة الجذب العنيفة التي كادت تحطمه وهو يسمع رشقات الكلام عن علاقة سهى بمنذر.

لم يكن الصيف ملائماً لدورية اللقاء كما كان في أوقات المدرسة. وقد تباعدت لقاءاتهم مع هيفاء آنئذٍ. وحين التقوا بها في آخر حزيران، كان جرح خالد قد شفي تماماً، وبدا أن في وسع الشابين أن يرويا لهيفاء تفاصيل الواقعة التي استطاعوا إزاحتها من طريق خالد.

صمتت برهة، وقالت بصوت راعش: «وسهى يا خالد؟ ومنذر أبو ليلى؟ ما فكّرتوا فيه؟ كأنّك ما رحت ولا جيت. في أيّ واحد منكم سأل منذر إذا كان بحِبّ سهى أما لا؟ المهم يرتاح خالد ونطفي الحكي،

ونلملم الإشاعة، وتخرس يمنى؟». «وحضراتكم؟»، قالت لعابد وحامد: «حرّاس؟ لكن السؤال مش هون. السؤال عندي أنا. أنا مين بنظركم؟ سهى ثانية؟ بس ما عندي إخوة يدافعوا عني إذا صار في شي نميمة. شو بعمل؟ وكمان ما قلت رأيك بسهى يا خالد؟ ما بدّك ياها تحب، أما ما بدّك ياها تنكشف؟».

انتحبت في ذلك اليوم الصيفي، أحست أنها تقبر شيئاً ما غالياً، في جورة الحماقة والطيش واللامبالاة والحقد والتعصب. وأن براعة الشبان الثلاثة في إخفاء الشهود، وطمس الآثار، بدت لها مثل مبضع جارح يزرع في قلبها احتجاجاً صارخاً ضد مصير غامض مجهول.

ومنذ تلك اللحظة بدأ يخامرها سؤال شقيٌّ معذّب عن قيمتها في عين خالد وعابد وحامد. وكان السؤال مخيفاً بقدر ما في قلبها من الحب لهم، أو بقدر ما بدأ يتكوّم فيه من الشكوك المباغتة الطارئة عن مدى حقيقة الأشياء التي كانت تراها.

ولم تقل شيئاً بعد ذلك، ولكنه بدا مثل قول صارخ عميق مهدّد قادم من الغيب. وقد كان لدى الشبان من الحصافة (هذا رأي نائل الجوف) ما جعلهم يصمتون تجاه الأسئلة المريرة. كانت الأجوبة الجاهزة غواية ممكنة، ومتاحة، ومجربة. لكنهم، دون اتفاق مسبق معدّ، آثروا أن يجرّبوا الصمت. مجازفة الصمت، كما قال نائل، هي التي صبّت قليلاً من الماء على حديد الموقف. وهو ما أتاح لهيفاء أن تودّعهم، أو تتركهم هناك، بعد نصف ساعة من اللقاء. وهي تقول: «عَ فكرة.. هذي أسوأ حكاية بسمعها بحياتي!».

10

ومنذ ذلك اليوم بدأ خالد يرى.

قال نائل الجوف إنه حين عاد إلى البيت في تلك الظهيرة، لم يجرؤ على النظر في عيني سهى. كانت البنت لا تزال رهينة محبسٍ استمرّ منذ أن عبثت يمنى الأسمر بعلاقتها مع منذر. ولأنها لم تعرف ما الذي حدث، فقد اعتبرت أن اختفاءه تعبير عن خوفه. وقد عذرته في أعماقها، وهي التي تعرف إفراط المنارة في رسم الطرق، وتحطيم السلالم. هذا هو رأيها الذي أفضت به لخالد في ما بعد.

- «شو بك؟».

قالت له حين لاحظت التغيّر الذي طرأ على حاله. ففي الأسبوع الماضي بدا شديد الحماسة لكل شيء، بعد يومي الكآبة اللذين أمضاهما جالساً أمام الباكة. كان يردّد وهو هناك: «هذا مطرحي. مع الحمير». لكنه انتفض وتبدّل بعد وصول عابد وحامد بدقائق. طلب شاياً، وبدّل قميصه، وبنطلونه، وغادر البيت بصحبتهما. فماذا حدث اليوم؟ وما هذا التبدل الشبيه بشباط؟

خالد الذي كان مصعوقاً بلمسة هيفاء الكاوية، قال لها إنه يأسف على كل شيء، وإنه مستعد لفعل أيّ أمر تريده، كي يعيد ملء القصة بينها

وبين منذر بأيّ حبر تريده. «حبر يا ولد؟». قالت وهي تفرك شعره الطويل الأسود. «لكن احكي لي بالأول شو صار!». راح يروي لها بحماسة التائب المخذول القصة كلها. لم يذكر هيفاء قط، واكتفى بنسبة المشاعر المؤنّبة إلى ضميره ووجدانه وحبّه لأخته. فيما كانت تهزّ رأسها على إيقاع الكلام. وهي تلعب بجديلتها الطويلة سوداء اللون: «اي؟». قال لها أن تطلب كل ما تريد، وهو مستعدّ للسفر إلى الشام، والاعتذار إلى منذر. ويمكن أن يطلب منه العودة إلى هنا. كانت تستمع إليه ذاهلة. هل هذا هو الولد الطائش الغائب الذي كانت تظن أنه خسارة البيت؟ وحين أنهى عرضه، قالت بصوت هامس محبّ: «ما عاد رح يرجع يا حبيبي». كانت مؤمنة بهذا كلّيّاً، دون أن تكون لديها وسائل التوضيح والإقناع. شيء ما في أعماقها، أو في عقلها ومشاعرها، يقول لها إن ما بينهما انتهى وتلاشى. هل هي الضربات؟ أم هي شكوكها بمنذر نفسه؟ أم ضجرها ومللها من كل شيء؟ ولهذا فقد اعتذرت من خالد، وهي تحدّث نفسها بهذا كله. وحين سمعته يقول (يتوسل تقريباً): «بتسامحيني؟». قالت له دون أيّ تكلّف: «أنت سامحني يا خالد!».

لا يعرف في الحقيقة ما إن كانت تطلب ذلك لقاء ذنب الحب، أو تجاه الحصار الذي كانت تلقيه حوله في الماضي. ومع ذلك فقد صار كل شيء مضيئاً الآن في نظره. أحس أنه يستطيع أن يذهب للقاء هيفاء وهو يقول: «شوفي كيف صرت نظيف وطيّب!».

ما ظلّ يحزّ في نفسه أن تلك واحدة من المرات التي عجز فيها عن شرح المهمّة أمام رفيقيه. وحين التقى بهما مساء ذلك اليوم، أحس أنه اختلس شيئاً ما عزيزاً وغالياً من سيرتهم جميعاً. لم يجرؤ أيضاً على اختبار الروح، كما قال لأحمد في ما بعد. كيف لم يفكر أن لدى رفيقيه تلك اللهفة الرزينة التي خامرته لتصحيح أخطاء السلوك تجاه الحب؟ وفي كل ليلة

كان يختلي بنفسه في غرفته، ويتأمل المنارة التي تضيئها أنوار باهتة معلّقة على أعمدة الكهرباء، وهو حزين. لقد رأى طريقه بالفعل، ولكنه لم يكن سعيداً به.

كان زمن هذه الأسئلة قد بات بعيداً جدّاً عن زمن الحادثة. وقد شعر أنه غدا آمناً من تسرّب السرّ إلى أي شخص، ما دام بينه وبين أخته. وفي يوم الأحد تسلّل إلى السويداء دون علم عابد وحامد، وهناك شرح لهيفاء كل شيء: «لا تريد أن يعرف أحد؟». «لا». «مثل ما بدّك. موافقة. لكن لمرّة واحدة». فكّر أن هذا يعني أن عليه أن يزيد حرصه، وحذره من أي غلطة.

رفيقاه اللذان لاحظا شروده المتكرر، أحالا أمره إلى الحب. وقال نائل الجوف إن موقفهما خلا من أي ظنٍّ بالمطلق. وقال عابد الجوف ذات يوم: «يلّي بتحبّه هذه البنت لازم يطلع من الزمن كله». ابتسم خالد له، وغمز بعينه، وهمس بحبّ: «عقبالك يا عابد!».

كان عابد في تلك الأيام يحوم حول منزل هايل الخرّوب الذي يقطن في سفح تلة القواسم. وقال لحامد وخالد إنه التقى بهند الخرّوب هناك. «بِتجنِّن!»، قال. وقد رآها قبل يومين وهي قادمة من الثانوية في السماقيات، ولم ينتبه لها إلا حين استدارت فجأة، والتفتت نحوه، وهي تحاول أن تدفع البوابة الخشبية الكبيرة التي تغلق على الدار. أرسلت سلاماً سريعاً، وابتسامة ملغزة، ثم فتحت البوابة واختفت وراءها. أقسم عابد لهما، أنه سمع لهاثها المرتبك - فيما كان يواصل طريقه - وهي تراقبه من شقوق الخشب المتفسخ.

لم تكن الحبكة متقنة إلى الحد الذي يمكن أن يصدّقها حامد وخالد. وخاصة أنها كانت تتضمن بنداً يمكن أن يثير القلق، وهو أن خال البنت هو برهان العلمي نفسه. كان العلمي في تلك السنة قد أمسك بروح المنارة، كما قال نائل الجوف. وحين سألته عن معنى ذلك قال إنه تمكّن من التغلغل

وسط جميع البيوت، بواسطة تلاميذه من الأعضاء الذين درّبهم على عدم تجاهل أي تغيّر، أو تبدّل في مزاج البلدة. وفي بضع سنوات (أي تلك التي أعقبت وصوله إلى أمانة الفرقة الحزبية)، صار له مريدوه.

كانت جملة أبي محمود الردعية قد أضحت بالية تماماً، وكان أبو محمود نفسه، طريح الفراش في منزله، يقرأ نعيمة، دون أن يجد أحداً يمكن أن يستمع له. وقد انتصرت جملة النبريش، وأضحت شعاراً وجودياً يمسح حضور المنارة في الزمن، فيما كان الناس يرددون جملاً إضافية له مثل: «بدون العصا لن تجد ولداً يعرف الألف». أو «لم نعد نريد أن نعلّم الأولاد بل أن نربّيهم». والغريب، في رأي نائل، أن حامد وعابد وخالد، كانوا قد بدؤوا يخشون العلمي فعلاً. ومن غير المعروف ما إن كان العقل هو الذي حذّرهم، أم الشعور بخطر المواجهة. قال نائل: كأن التقدم في العمر في بلدة المنارة يعني التراجع في الوجدان والمشاعر. أو أنه يبدأ في تحذير البشر من خطر الحرمان من العيش. وفي حين كان النبريش مستمراً في تهديد الناس، أو ترغيبهم في الانتساب إلى الحزب، ملوّحاً برغيف الخبز، فإن الأولاد، بحسب نائل، لم يظهروا أي نذالة أو خسّة، أو جبن، في سلوكهم اليومي. خوف حامد وخالد من العلمي جعلهما يحاولان ثني عابد عن الاستمرار في قصة الحب. وعلى الرغم من أنهما كانا مؤمنَين، مثل عابد، أن تلك النظرة الخاطفة المرفقة بابتسامة، كانت دعوة صريحة للحب، فإن خشيتهما على رفيقهما كانت دافعاً لهما لإنكار الحقيقة. كذبا عليه، وقالا إنها مصادفة طائشة، أو وهم ناجم عن عطب في عينيه.

ولكنه رفض أيّ تحذير. كانت تلك هي المرة الأولى، في حياته، التي تبتسم له فيها فتاة. الغريب أنه قال: «أنثى». وكان قلبه قربة فارغة جافة تجعّدت قشرتها. ولم يردعه النبأ الذي نقله إليه لديّ مصادري، من أن العلمي هو الذي شدّد على مدرسة السماقيات كي ترسله إلى الصحة

للتحقيق حين كان في الإعدادية. عكس هذا، شعر أن وجدانه لا يحتمل أن يتغاضى عن رسالتي الحب من أجل معلف الخبز. نظرة فابتسامة يا حامد، نظرة فابتسامة يا خالد. ولا يبقى من القصة سوى اللقاء. وعلى الرغم من أنه لم يفكر في أي يوم في تلك السلسلة التتابعية التي تجمع العشاق، فقد بدا تراتب الرسالتين مثل نداء قدَريّ لا يجوز أن يتجاهل جانب التدبير فيه، قبل أن يحقق الخاتمة.

هل كان يفكر في تكرار قصة حب أخرى، أم كان قد أحب فعلاً؟ إيمانه بالقدر تفوّق على أيّ مخاوف. ومنحه إضافة إلى ذلك جسارة المخاطرة في اكتشاف حقيقة رسائل البنت. وقد نسي أمر آل الخرّوب كلهم. تلاشت وقائع خزي الطفولة حين كان أبناء هذه العائلة يقطعون طريق عودته إلى البيت، ويرغمونه على الانسحاب والالتفاف حول التل كي يصل إلى المنزل. «لا أحقاد يا جماعة». همس لهم في نفسه، حين ملأه شوق خفيّ غريزي (رأي نائل الجوف) إلى مشهد لقاء يستعير فيه التفاصيل من خالد وهيفاء.

وتجاه هذا التصميم المبلل بدنف ألق وهّاج، والمؤازر بلحظة قدرية، من الراجح أن يكون قد ساهم الله فيه، لم يعد في وسعهما إلا تشكيل جبهة الدعم المعتادة. وقد تضمّنت: التوجيه عن قرب، والحماية أو الرعاية، حسب رأي نائل الجوف، لصديقهما.

بعد أسبوع تقريباً من النظرة فابتسامة، انتظرها أمام إعدادية السماقيات. وقف وحده مقابل البوابة الحديدية الضخمة، في الجانب الآخر من الشارع. بينما كان حامد وعابد يتواريان تحت شجرة كينا ضخمة محتفظين بالمسافة الآمنة التي تضمن عدم لفت نظر البنت، وسرعة التدخل في لحظة الطوارئ.

كان الشبان الثلاثة متيقّنين من النتيجة. وهي أن عابد الجوف سوف

ينتمي ابتداء من تلك الظهيرة إلى سلك العاشقين. وقد صادق خالد وحامد (وهما يتفرّجان على رفيقهما، حين خطا إلى الأمام، وانخرط وسط الطلاب المنصرفين، وصار قريباً من ثلّة بنات كانت هند الخرّوب تمشي بينهن) على الفكرة السابقة، وشدّ كلٌّ منهما قبضة يده، ورفعها إلى الأعلى في تأكيد حركيّ على الواقعة.

نفرت البنت في وجهه. ولن يعرف أحد ما الكلمة التي استخدمتها في ردّه أو صدّه، إلا حين تعترف هند الخرّوب لهيفاء الكافي بها، وهي تحاول أن تشرح موقفها المحرج الذي كان يتطلب أن تبدي ذلك الشطط في طرد الشاب المتحرش في الظهيرة، بينما تراقبها عشرات العيون التي يمكن أن تسرِّب أيّ تردّد أو تواطؤ إلى أسرتها. ولكن عابد الجوف سوف يرحل عن هذا العالم، وهو يحمل بين جوانحه ذلَّه وعاره وخزي روحه التي تكسّرت بين أحذية البنات تلك الظهيرة.

وفي رأي نائل الجوف أن الفتى الذي كان يرتدي قميصاً أزرق (بات يعلم من لديّ مصادري أنها تحب ذلك اللون) وبنطلوناً من الجينز، وقد بانت عضلات صدره وذراعيه، واستدارة خصره الشبيه بخاصرة مصارع، لن يتمكن من ابتلاع الإهانة العلنية أبداً.

ولكن المحيّر هو أنه ازداد شغفاً بها، وصارت رفيقة أحلامه، في اليقظة والمنام. وحين أرسلت تعتذر منه، عن طريق هيفاء التي تحدثت معها عبر الهاتف دون تعارف، أقسم أنه لن يسمح لأيّ مخلوق على وجه الأرض أن يقترب منها، أو يبني علاقة معها. وفي رأي نائل الجوف أن هند الخرّوب فُتنت بذلك القسم. وبعكس عابد الذي لم يعد مستعدّاً للقيام بأي خطوة حب، قد تلحق به الخزي مرة ثانية، راحت هند تتقرّب منه عبر الوسيلة الوحيدة السرية المتاحة: الهاتف النقال.

أما آل الخرّوب الذين عرفوا تفاصيل التحرش، فاكتفوا بردّ هند. واعتبروا المسألة مغلقة، حين لم يصل إلى علمهم أن الفتى أعاد المحاولة. وفي اجتماع العائلة قرروا عدم اتخاذ أي ردّ، لتحاشي الاصطدام مع عابد ورفيقيه، ولطمس الموضوع من التداول. وقد بدا في تلك اللحظة أن تحالف الأصدقاء الثلاثة، يغلق أو يفكّك ويسفح أعراف المنارة في مئة عام من تاريخها، حين تبدي إحدى عائلاتها خشية أو تردّداً من المواجهة مع فتيان يأتون من خارج أحلاف العائلات.

شرح نائل الجوف تلك المعادلة بحَيرة. فآل أبو الليل كانوا من أحلاف آل الخرّوب تاريخياً. هذا أمر له علاقة بزواج البنات، والنسب، ووجود جدّات متعددات في شجرتي العائلتين. وقد تبيّن أن هذا كله قرض بأسنان فأر علاقات مختلفة، وصار بلا أيّ قيمة، حين أدرك آل الخرّوب، متأخرين قليلاً، بعد سنتين من تلك الوقائع، أنهم لا يستطيعون منح يد ابنتهم إلى أيّ شاب في العالم كله.

وهذا تغيُّر في قانون القوة اختار الجميع أن يتجاهلوه بالصمت. وتجربة الصمت كما شرح نائل الجوف مجرّبة منذ أن بدأ برهان العلمي في اجتياح المنارة، وفي فرض الضرائب السلوكية على أبنائها. وحين وصلت الرسالة إلى الشبان الثلاثة، لم يكتموا فرحهم بهذا، وتجولوا في شوارع البلدة، وساروا أمام بيت العلمي نفسه، وهم يأكلون المكسّرات، ويشربون أنواعاً عديدة من الكحول التي بدأت تتسرّب من لبنان (حسب دعاية محمود جرّار).

الغريب أنه كان يسمع، من وراء الجدار، ويرى من طرف النافذة، صخبهم وضوضاءهم، كما لو كان في قاعة سينما. لم يقل شيئاً، وفي أعماقه كان يستشعر خللاً ما غامضاً، تعيساً، يمكن أن يسبب العطب الدائم

لروحه نفسها. كيف يمكن علاج هذه العلل؟ هذه الدمامل القبيحة؟ هل كان يجرّب الصمت أيضاً؟

لم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً تجاه الشبان الثلاثة. تلك هي الحقيقة التي بدأ برهان العلمي يمضغها تحت أسنانه الدائمة. فقد خرج اثنان منهما من مطارداته الحزبية، فيما بدا الثالث خاملاً لا يقدّم أي استجابة داخل جسم المنارة. ولم تنفع توصياته ولا تحذيراته لوالد خالد في تنشيط الشاب، وتحسين ميزان درجاته السياسية، ولا في إغرائه بالولاء التام.

وفي مساء ذلك اليوم زاروا محل محمود جرّار. كان نصف شبان البلدة هناك يشربون ويدخنون. وقد رأيت بنفسي أن محمود كان قد بنى ملحقاً لدكان أبيه، وأثّثه على طراز خمارة، بأرائك عريضة، وكراسيّ من القشّ، وأضواء ليلية خافتة. وهناك شربوا العرق بدل علب المشروبات المخلوطة بالمنكهات. وحين جاء محمود ليأخذ الحساب همس لهم: «أرجوكم لا تزوروه!». «ليش محمود؟». «ما عاد يذكر حدا. وما بحِبّ يشوف حدا. بتعرفوا، هذا أبو محمود».

كان الصراع بين محمود وأبيه على مستقبل الدكان قد انتهى بانتصار الشاب: ألغى اسم الدكان الشفوي وعوّضه باسمٍ مسجّل على لوحة من الصاج كتب عليها بأحمر المالبورو: ميني ماركت جرّار. وصبغ الواجهة باللون الأبيض، والداخل بألوان المشمش والخوخ والإجاص. كانت تلك بصيرة باطنية (حسب رأي نائل الجوف)، سبقت التغيّرات القادمة بشوط طويل. فالخطوات التي اتبعها كانت مضبوطة ومرتبة حسب إيقاع العصر الذي بدأ يغزو ماكنة حياة المنارة بموجات من السلع الجديدة التي ملأت رفوف المحل الجديد. فقد تصدّرت علب الكحول الجاهزة والمشروبات الغازية وأنواع السجائر الأجنبية، والبسكويت، ومستلزمات الهواتف النقالة، رفوف المحل الجديد. كانت هذه هي الفوارق بين إسماعيل ومحمود.

وبفضل ذلك التفوق البارز، أرغم أباه على البقاء في البيت، ومنعه من التسلل إلى المحل. ومن غير المعروف كيف استطاع أن يكلف الألزهايمر بالمشاركة في تدبير قضبان سجن البيت. غير أن المرض كان الذريعة الأخلاقية العظيمة التي جعلت محمود يمشي بين أهل المنارة، مرفوع الرأس.

«تعرف يا محمود؟»، قال حامد وقد شعر أن لسانه صار ثقيلاً ومخدَّراً «نحنا اشتقنا لعمّي إسماعيل ورح نزوره ع طول».

كان يجلس في مصطبة التقاعد أمام بيته. لم يكن أحد منهم يعرف شيئاً عن ذلك المرض، غير الطرائف، والبكائيات التي ترافقه، عند كبار السن الذين يخرفون. غير أن إسماعيل جرّار بدا معافى، وباستثناء أنه لم يستطع أن يتذكرهم في البداية، فقد استعاد كل شيء حين ذكروا له حكايته عن مدفع ضاهر. لوّح برأسه آسفاً: «شو ع بتساووا يا أولاد؟». حدثوه عن أنفسهم. الآن بدا حديثهم له مختلفاً عن الماضي. وفيما كان يتأمل قاماتهم المتغيّرة، قال: «لا أقل كرامة ممّن يصون كرامته بشتمة أو لبطة».

في ذلك المساء منحهم كتب نعيمة كلها. قال: حافظوا عليها من التلف فقط، إذا لم تستطيعوا أن تحافظوا على الكلام فيها. كانت هذه المبادرة مباغتة لهم. وفي رأي نائل الجوف أنها تجاوزت قضية الامتحان. لقد تأخر إسماعيل جرّار قليلاً في الزمن. وفيما أخذ الشبان الكتب إلى بيت حامد (كان الوحيد القادر على تأمين الحياة الطيبة لها بفضل علاقته الوثيقة مع أمه) فإن محتواها ظل عاجزاً عن مقاربة الوقائع التالية. لم يعد في وسع نعيمة ذي جسد الفراشة الوقوف بوجه برهان العلمي ذي واقعية الضبع. وسوف ترى! قال نائل بثقته الحزينة.

ولأن الطريق أفعى، جرّب ستة من شبان آل الخرّوب أن يكمنوا لعابد

في طريق عودته إلى البيت. لم يكن في وسعه أن يرى أكثر من المسافة التي يسمح بها أي منعطف. ولهذا تمكّنوا من مباغتته، حين صار في منتصف التل. هاجموه بعصيّ وسكاكين كانوا يحملونها. تذكّر جملة إسماعيل جرّار في تلك اللحظة. وبسببها ربما، أو بسبب أيّ دافع آخر، اندفع نحو مهاجميه بلا صوت. قاتل بلا صوت، بلا أي ملامح، دون أن يستخدم قدميه، بينما كانت ذراعاه تدافعان عنه وسط هجوم الشبان القاتل.

«لكن قل لي بربّك»، هتف نائل الجوف: كيف يمكن أن نفسّر أو نفهم أن خالد سيف الدين أجفل فجأة وهو في الطرف الثاني من البلدة، وأنه ترك ما في يده، وانتعل حذاءه على عجل وجاء يركض تجاه بيت حامد؟ وقل لي لماذا كان حامد لا يزال واقفاً أمام بوابة منزله، لا يردّ على نداءات أمه؟ وأنه حين رأى خالد راكضاً سأل ملهوفاً: «شو؟».

قال: «ما بعرف».

قل ما تشاء! قل مثلاً إنني أؤمن بالغيب، وأنا لا أؤمن به البتة، إلا في هذه الحالة الفريدة التي وجد فيها حامد وخالد نفسيهما يعدوان في اتجاه تل القواسم. هل تظن أنها خرافة، أم تعتقد أنني أسوق كلاماً خرافياً؟ لكن ماذا نفعل إذا كانت مشاعرهما وأحاسيسهما وضربات قلبيهما وسرّهما الذي يجثم داخل الوجدان، قادتهم لإنقاذ صديقهما من احتمال الموت.

كان لا يزال يقاتل واقفاً، وقد استند بظهره إلى السفح المنحدر، بحيث لا يستطيع أحد من الستة الوصول إليه من الخلف.

لا يمكنك تكذيب حضورهما، وإن كنت تعجز عن تفسيره، فقد اندفع شهود من المنارة لرؤية المعركة من جوانب التل. وفيما كان حامد قد استطاع إخراج ثلاثة شبان من العراك، وجد التكافؤ العددي نفسه منتصراً. لا مجال لأي مقارنة قتالية بين الطرفين. ففي الدقائق التالية، صُرِع الشبان الباقون

من آل الخرّوب، على الطريق الأفعى. جاء النبريش بسيارته الجديدة التي اشتراها قبل بضعة أشهر. ولحق به أعضاء من فرقته، فيما كانت المعركة قد انتهت بالفعل. لم يكن لدى أي واحد من عائلة المغلوبين أي رغبة في إشعال الفتيل مرة أخرى. رشّوا ماء على الدوافع من جديد، وأعادوا التأكيد على العقد السابق، بشروط إلزامية، لأبنائهم، تنقذهم من احتمال الموت على يد المجموعة التي سمّوها العصابة.

وفي المقابل، انسحب الثلاثة إلى بيت حامد، وعالجت حليمة خدوش عابد وجروحه بالمراهم، وهدّأت رضوضه بالماء الفاتر، وحين انتهت اكتشفت طعنة سكين سطحية قريبة من قلبه. «يا ربّي!» هتفت مذعورة «كان ممكن يموّتوك». فأخذ عابد شهقة هواء عميقة وغمغم بيقين: «بعد بكّير. ما آن الأوان». فأمسكت حليمة بأذنه، وقالت بحبٍّ حازم قاطع كسكّين: «بدّك البنت يا ولد؟». نظر إليها عابد نظرة الميت القادم الذي يودع الحاضرين. ثم غاب بصره. تاه في شروخ طائشة تحوم حوله في الفضاء. قال: «هل هذا غبار يا خالتي حليمة؟». فهزّته من شعره، هزّات الحب وأعادت السؤال، بلهجة آمرة. فقال: «بدّي ياها. بس خايف من هذاك يلي عم يستنّاني».

تلك المعركة لم تحسم قتالاً، بل فسخت عقوداً عديدة في نسيج المنارة. وكانت مقدمة لحرب إرادات، كما سمّاها نائل، لم يكن ممكناً أن تحسم إلا بالموت. وقد حسمها الموت في ما بعد. لم يعد لدى أحد أيُّ شكّ، (ومن الصعب أن يقال أي أمل، لأن لا أحد يمكن أن يأمل شيئاً)، في أن آل الخرّوب لن يقبلوا خطبة ابنتهم لعابد الجوف، في أيّ يوم. لقد صُبغت الحكاية بالدم بعد أن لوّثتها الأقاويل.

وقد زاد انعدام الفرص أمامه، وشدة شعوره بعداء العالم له، في التهاب غرامه وشوقه لهند. بينما كانت هي قد سُحرت بالمواجهة الفريدة التي

أبداها مع أبناء عمومتها، واعتبرت أنه كان يدافع عنها، لا عن نفسه، في أثناء العراك. فأخذت تزيد من جرعات الرسائل إليه. صارت تكتب رسالة كل شهر تقريباً، وترسلها عبر وسيطة ظلت سرّيّة طول الوقت، حتى بعد رحيل عابد عن هذه الدنيا. وفي كل تلك الرسائل التي بلغت مئة وثلاثاً وثلاثين رسالة، لم تذكر الحب سوى مرة واحدة. وقد جاءت المفردة في سياق جواب عن سؤال غبيّ على الأرجح وجّهه لها عابد (هل سأل المرأة الوسيط؟) عن سبب إرسال تلك الرسائل التي لم تتوقف. واحتوت بقية الرسائل على منمنمات حيكت على مهل، وبلا ملل، عن حياتها اليومية من لحظة استيقاظها إلى لحظة النوم. وفي رأي نائل الجوف أن تلك البنت التي لم تلتقِ عابد في حياتها، إلا مرّتين، كانت تحاول أن تجعله يرى المرأة التي تنتظره، وأنها سعيدة في أيام الانتظار. إذ لم تتضمن الرسائل أيّ حكي عن مصاعب وآلام وشقاء وعذاب ومرارات من تلك التي كانت أغنيات الفضاء تكررها كل ساعة. وقد واظبت على كتابة الرسائل وإيداعها لدى هيفاء في السنتين والنصف اللتين أمضاهما عابد في الخدمة العسكرية، وكان يستلم الرزم المغلقة حين يأتي في الإجازات الممنوحة له.

لم نعثر على أي ردّ من جهته، قال نائل، وليس لدينا أي دليل على أنه فعل ذلك. وقد باتت هند الخرّوب بعيدة، ولا يعرف أحد أين اختفت بعد موت عابد، عدا صورة منشورة في إحدى الصحف لمهاجرين سوريين، يركبون أحد زوارق المطاط في بحر إيجه، ظهرت هند بينهم، وهي ترتدي سترة حماية باللون الأزرق. لم أستطع رؤية الصورة، وقد أقسم أهلها أنها ليست هي، وأن هند عند عمّتها في بعقلين، ولكني أقول - أضاف نائل - إنها هي، وكانت تنظر نحو المصوّر أيضاً.

وما لم يعلمه عابد قطّ، أن هند تعرّضت لسلسلة من الاتهامات الثأرية التي اعتبر فيها والدها، وشقيقها الكبير مؤيّد (يناصرهما دون شكّ عددٌ

كبير من ذكور العائلة وإناثها) أنها تتحمل المسؤولية عن الأذى الذي لحق بأبناء آل الخرّوب، وسمعة العائلة. ونُسيت مواقفها السابقة، وسيق الأمر من قبل الجميع على أن الجرم راسخ في خلقتها نفسها. في كونها أنثى. في أنها فاتنة. في خروجها من البيت إلى المدرسة. في عينيها اللتين يُشكّ أنهما نظرتا ذات يوم نحو ذلك الشاب. في وجودها ذاته.

وقد واجهت الفتاة نكبتها بصمت، ولكن بشجاعة شهيدة. وذات يوم رمى أبوها حقيبتها المدرسية بعيداً، حين التقى بها أمام البوابة. راح يصرخ: «رح موت والله». وقد ذعرت من أن يكون قراره المقبل هو منعها من إكمال تعليمها. وعندئذ خطرت لها تلك الفكرة الغريبة التي قامرت فيها بكلّ شيء: «بابا. لا تمنعني روح ع المدرسة. بحياة عمرك! برحمة جدّي كمان! أنا مش رح إحكي معه، ولا شوفه، ولا إلتقي فيه». ويقول نائل الجوف إن الرجل لم يقل شيئاً، ويبدو أن البنت قد هزمته بطريقة ما. ولا يعرف ما إن كان السبب قسمها، وهي التي تعلم مكانة أبيه الراحل لديه، أم ضعفه الشهير إزاء جرعات المشاعر التي يبديها أي شخص تجاهه. وقد أوقف إجراءات الرغبة في منعها من الدراسة، واستبدل بها انتظار القدر، كما قال نائل الجوف.

بل إن أحمد الخرّوب، والد هند، شتم ذلك الذي وشى بعابد الجوف، في تقرير قدِّم إلى المخابرات العسكرية، بالقول إنه سبّ الرئيس. وصرخ في اجتماع العائلة متّهماً الواشي السرّي بالجبن والنذالة والغدر، ثم صرخ بهم جميعاً: «بكفّيني فضائح. ذبحتوني. صار دمي مداس للناس».

ومنذ يوم المعركة، تفاخر الشبان الثلاثة بمسائل القلب. كان خالد يقول إن شيئاً ما سرّيّاً وعنيفاً هزّه وقال له إن عابد في خطر، ودفعه إلى الركض في اتجاه بيت حامد. فيما قال حامد برزانته التي لا تفرط أو تخرج عن إيقاعها المعتاد: «أنا صاحت أذني». وقد كانت تلك المشاعر التي

ترجمت إلى أفعال إنقاذية على الأرض، سبباً إضافياً في تثبيت الهوى المتبادل بينهم. وساعد لديّ مصادري الذي كان يفتتح صالة ألعاب ورياضة جديدة، في إعادة تدويرها ضمن نطاق المنارة والدير والسماقيات وأطراف اللجاة وسوق النهر وتلال أبو الغراب. وقد تكون هذه المعلومة، وغيرها من الأخبار المتعلقة بقصة عابد وهند، هي دماء أحمد الخرّوب التي رأى أنها تداس في المنطقة كلها.

حامد كان الوحيد الذي لم يجرؤ على التجربة. وربما كانت الصدمة هي السبب. لقد أربكته الحكاية، واعتقد أن كل حبٍّ يجب أن يبدأ من الطفولة، كي يكون عميقاً، ومتوّجاً بفيض العواطف، مثل حب خالد وهيفاء. وقد ترك حليمة وحدها كي تشعر بالحزن. لقد تتبّعت حكاية الحب من ثقوب مصفاة التجسس الخفي الذي كانت تتبعه؛ إما بعينيها الخبيرتين، أو برصدها الصقري لتحركات الأولاد، (وقد ظلت تتحدث عنهم كأولاد على الرغم من كل ما حدث بعد ذلك) في أرجاء بيتها. ولاحظت وهي تكاد تختنق، كيف يطفو ابنها على سطح المواضيع كجندي، لا كعاشق. وكان جوابه: «ما لقيت بنت تحبّني» مشرعاً على إذعان مستسلم، وإيمان قدَريٍّ محتوم، أكثر مما هو مبنيّ على المحاولة. ولم تنفع أي نصيحة لها في اجتذابه إلى التحرّش بذلك القضاء الذي آمن به.

لم يكن إيماناً بخسارة البنات فقط، بل نوعاً من يأس من البشر الذين حوله. وباستثناء رفيقيه اللذين بات يحس أنهما موجودان على الهامش الأرضي ذاته الذي يقبع فيه، فإن الآخرين بدوا له مجرد أعداء. عداوات لا خصام فيها، بل مجرد أحقاد غامضة، مخفورة بالرغبة في التخلص منه، ومن عابد وخالد. وبفضل التراكم وحده، لم يعد راغباً في السؤال عن السبب. لماذا؟ كانت حليمة هي التي تسأل عن ذاك الذي يمكن أن يسبب له هذا الشعور بالعزل. وغالباً ما صار يجيبها بلا أعرف، وهي عبارة

كانت تعني لديه: لم يعد يهمني. وزادت قصة الحب التي يخوضها عابد في نفوره من الحكاية. وفي رأي نائل الجوف، أن حامد أبو الليل كان موقناً أن أمه تخون أباه. وقد يكون رحيل سامي هروباً، وسفر أبيه طيّاً للمشاكل. وربما كانت الشائعات التي دمرها بذراعه، وتهديداته بين أهل المنارة، عن علاقتها بحسين المر، قد أنبتت بذوراً شيطانية لها في ضميره ووجدانه. وبدل أن يتدخل، آثر أن ينسحب، وقد أهال على الموضوع تراب التجاهل. وهو الذي يعرف أكثر من أي شخص آخر، أن حليمة المرّ، أمَّه، من سلالة نساء لا يمكن أن تنحني هاماتهن.

هل كانت تعشق حسين المر هذا فعلاً؟ سألت نائل.

لا أعرف. ولكن من الصعب أن يصدّق المرء مثل هذه الواقعة، إذا ما كان المعيار مستمداً من علامات الجسد. فالرجل ناحل، طويل القامة، وله حوض عريض يشوّه مشيته، وشعر أبيض كثيف يزيد في سنّه الحقيقية. لم يكن محبوباً في المنارة، وكان يقضي وقته في رواية طرائف سمجة، وخالية من التحسينات. ولكن مسائل العشق والحب والرغبة قلّما تعنى بهذه الطرائف. وهناك مكان آخر لا يعرف به سوى الرجل والمرأة، هو الفراش. لو كانت للأسرَّة ألسنة لاستطعنا كشف النصف الثاني من أسرار البشرية.

ولكن حليمة لم تتمكن من شقّ أيّ طريق لابنها، وكانت تضرب رأسها بقبضة يدها، بعد أن تعود إلى البيت، وهي تتذكر أنها تمنّت إحدى بنات البلدة له، حين تلتقي بها في شارع ما، أو بعد أن ترى مجموعات منهن في الأعراس. وبعد زمن من هذا كله، كان جوابها الحاضر لمنى أبو الليل، حين طلبت منها أن تعلّمه فن الحب حاسماً: «لازم يكون في كتاب بين إيديه حتى يتعلّم يقرا». وهي تعرف أنها إشارة استسلام أكثر من كونها تفهّماً أو شرحاً. تقول العبارة وهي تكاد تنفجر من غيظ المرأة التي اعتقدت أنها هي التي استطاعت تفهّم هذا الولد، وهي التي كانت تقول إنه يشبهها هي،

ولا يشبه أباه. وفي أعماقها أضحت تخشاه أكثر مما تخشى أيَّ شخص في العالم. فصمته المرفق بحركة كفِّه التي كان يفتحها ويغلقها، وجلوسه الطويل المتأمل على كرسي الخيزران، في الفسحة الأسمنتية أمام البيت، وفتوره، وحزنه العميق المكروب... كل ذلك كان يهدّد وجودها المبني على الصخب وحبّ الحياة والرغبة في العيش بالطول والعرض. وما كان المال يهمّها، وقد بذّرت ما يرسله لها زوجها على محسّنات العيش بلا حساب. الستائر والأرائك وأطباق القش وأدوات المطبخ الكهربائية والوسائد الصوفية الملونة وفناجين القهوة وسجاد الجدران والزخارف وأكواب الشاي ذات الأذن وكؤوس النبيذ المرفوعة على قواعد ذات أعناق طويلة، سلسلة لا نهائية من مباهج الأشياء التي تكسر كل مرة خمول الأيام من حولها. وفي رأي نائل الجوف أن حليمة المر كانت مصدر جراثيم الزجاج التي اجتاحت المنارة في التسعينيات. قال نائل إن المنازل صارت تقاس لدى النساء بـ«فِترينات» الزجاج. وكان الجنود المتمركزون في لبنان مصدر فردوس ذلك المَنحى الجمالي البحت؛ دون أن تتمكن واحدة منهن من التفوق على خيارات حليمة قط. هذا أمر متعلق بالمال، من جهة، وقوة العاطفة من جهة أخرى.

في غيابه كان قد أوصى عابد (الذي أنهى خدمته العسكرية قبل حامد بخمسة أشهر) ألَّا يترك حليمة وحيدة. وليس لدى نائل الجوف أي تفسير عن سبب ترحيب المرأة بالفكرة، منذ أن علمت بها سوى أنها كانت لا تريد شيئاً أكثر من رضا حامد. ومنذ اليوم الأول الذي حمل فيه عابد الجوف حقيبة ثيابه، (حقيبة مستطيلة الشكل من التنك المزركش) وجاء إلى بيتها بلا أي رتوش تفسيري، ظهرت علانية في باحة البيت، تتناول الفاكهة برفقة الشاب الأسمر مفتول العضلات الذي كان يرتدي فانلّة زرقاء من ثياب حامد. بدت سعيدة مثل طفلة، وكانت تمشط شعرها الأسود الطويل

وتضمّه من الخلف كذيل حصان رهوان. وفي رأي نائل الجوف أن المرأة التي كانت تبلغ السابعة والأربعين من عمرها في تلك السنة، ربما قامرت بكل أعراف المنارة، لتعويض الحنان الذي خسرته بغياب ابنها. «ربما» يقول نائل لأول مرة. إذ إن مشهد العصر الذي يجمع عابد وخالد أحياناً الذي كان يأتي إلى هناك أيضاً، تكرّر عشرات المرات في مشاهد علنية ذات طابع إعلاني محض؛ فيما بات ما تريد قوله يزداد غموضاً.

وبينما كان أبناء المنارة يعتقدون أنها تعاشر ذلك الشاب، كانت هي تمضي معظم أوقاتها، وهي تحاول إقناعه أن الموت لا يأتي في الرؤى والأحلام، بل إنه لا يأتي إلى من يموتون، وإنما لمن هم معهم. وفي ليالٍ أخرى كانت تفتح كتاب هند الخرّوب، وتسعى إلى تلقينه الدروس التي عجزت عن تمريرها إلى ابنها. وحين سألها حامد ذات يوم عن رأيها في التلميذ الجديد، قالت إنه لا يزال مغلقاً. غير أنها كانت تؤمن بأن لكل كائن، مفتاحاً موجوداً في مكان ما من وجوده، أو في زمان ما من عمره.

الحقيقة أنها عرضت عليه أن تتدخل لخطبة أكثر من بنت. اختارت أفضل جميلات المنارة. وحين كانت تصطدم بعناده، تصمت. مرة واحدة فقط قالت له بحدّة: «إذا كنت بتعرف إنك رح تموت بعد شوي. ليش حابس البنت ومضيّع المفاتيح؟». ثم انهارت. أخذت تنتحب، وتعانقه، وتقول: «دخلك سامحني!». وقد أدركت أنها هي التي تضيّع مفاتيحها.

ظهورهما العلني بدا، في رأي نائل، كأنما يطعن تقاليد المنارة المبنية على التستر وإخفاء القرائن. وربما كانت العلنية واحدة من أكثر المظاهر تدميراً لروح البلدة التي تهوى الاختباء. وإن هذا وحده كان كفيلاً بتخزين الحقد في نفوس الناس، ملتحفاً بستائر الشرف والأخلاق، بقدر ما كان كافياً لملء الخيال الجمعي بصور فاحشة تصف وجود شاب غريب، في

بيت امرأة وحيدة شهوانية. وزاد غياب حسين المر عن البيت في تأكيد افتراضات الخيال. فقد اختفى ذلك الرجل، ولم يعد يمرّ بالمنزل، دون أن يترك وراءه أيَّ أثر محكي عن الأسباب.

(ومن غير المعروف لدى نائل، ما إذا كان عابد قد قرأ بعض كتب ميخائيل نعيمة في أثناء بياته هناك. ولكن نزعته المعادية للحرب ظهرت حين بدأت أول بوادر التحريض على العنف لدى أبناء المنارة، بعد بداية الثورة).

غير أن حليمة لم تكن هي نفسها حين أنهى حامد الخدمة العسكرية. لقد أنفقت كل ما لديها من أجل شراء إجازاته. ولدى نائل شكوك أن الضابط المسؤول عن حامد في الجيش قد شمّ رائحة النفط في الملاحف. فراح يطالب حامد بتقديم البدل النقدي، مؤلّفاً من ورقات الخمسمئة حصراً. وحين أنهى الخدمة كانت شبه مفلسة. ولم تقل لحامد ما الذي حدث هناك في ليبيا، إلى أن طلب منها مالاً.

- ما معي.

- ليش؟

قالت وهي تداري شعورها بالخزي:

- بَيِّك تزوج هناك وبطّل يبعث مصاري.

- يعني شو؟

- يعني... ولا شي.

لم تكن تعرف ماذا سيحدث، وليس في وسعها أن تتجنّب الاعتراف، وليس في جعبتها أي مقدار يمكن أن يساعد في تأجيل التنفيذ، أو تزوير الحالة. ولهذا فقد أقرّت بما هي فيه. غير أنها كانت لا تزال قادرة على ضبط غضبها وسخطها وشعورها بالهزيمة أمام الرجل الذي لم تكن تحبه.

تخفي حنقها من أن يكون قادراً على الانتقام فعلاً، في وقت ظنت فيه أنها امتلكت رجولته، وأخذت مقياس عواطفه، وأحبطت تذمّره، وحوّلته إلى رصيد بعيد تستجرّ منه ما تشاء من المال. وفي مواجهة حامد بدت تلك اللحظة أكثر حيرة. فالشاب الذي نشأ على مرعى أخضر من أوراق العملة، سيجد نفسه مفلساً مع أمه بوجود أب صار ربّاً لأسرة ثانية، وأخٍ متجوّل لا يعترف بأيّ عائلة.

كان عابد قد بدأ يعمل من جديد لدى صابر البستاني. فيما عمل خالد بائعاً لدى محل عطور تركيبية. قبل ذلك عمل في أشغال متنوّعة لدى دوائر الدولة، بوساطة من النبريش الذي استجاب لتدخل والد خالد، في فرص المياومة المؤقتة التي أوجدتها دوائر الشغل الرسمية، لاستيعاب العاطلين من الشبان الذين كانوا يتكاثرون كالدبابير، دورياً لثلاثة أشهر فقط. وكانت حليمة تجد المال مصادفة محشوّاً داخل وجه وسادة، أو تحت حافة فراش، أو في علبة الشاي. وفي كل مرة كانت تبكي بصمت، ولا تقول أي شيء. مرة واحدة سمعها عابد تردّد لنفسها: «بعد القهاوي تشربين الحثمل»، حين رأت ثوبها ممزقاً من جهة الخصر.

وعرف عابد وخالد أن سامي لم يردّ على رسائل حامد. وليس لديه عنوان في ليبيا، ولا رقم هاتف. وتسبَّب هذا بزيادة جرعة الحزن التي بدأت تختلس العافية من خدّيه. تسلّلت تجاعيد كَمَدٍ قانط إلى أساريره الضاحكة. وبدل الضجيج الذي كان يحتفي به بالحياة، ربض زهدٌ كسول هامشيّ جعله يرقد في زاوية باحة البيت، على مرأى من المنارة عصراً، أو يظل نائماً حتى الضحى، أو يسهر باحثاً في التلفزيون عن أفلام السينما التي تعرض في الفضائيات. وبعد أن كان يدخن علبة الشرق كاملة في اليوم، صار يكتفي بعشر سجائر، ثم أخذ يقلّص العدد أسبوعياً، وهو ما أغضب عابد حين اكتشف الأمر: أحضر في المساء، برفقة خالد، نصّيّة عرق ومرتديلا مهرّبة

وبسطرما وبندورة وخياراً ونصف كيلو مكسّرات وبزر اليقطين الأبيض، وفرط أمام عيني حامد دزينة من علب السجائر ملأ بها صحناً أبيض. دخّنوا تلك الليلة، وشربوا، وغنّوا، عزف حامد على ناي جديد اشتراه له عابد. وكتب عابد شعراً عن الحزن: «نحنا على مفرق درب/ وما في أنيس بهالدِّني. نحزن على الحال العجيب/ ونغنّي شي وصلة غني. مِنقول تُفرج يا زمن/ بيمشي الزمن من غير ما يردّ النداء». وفي رأي نائل الجوف أن عابد كان يصحّح حزنه هو في لحظات كسر الكآبة التي غرق فيها حامد. غير أن المسامرات التي ظل يكررها، كانت تزيد في اجتذاب المزيد من الكآبة. ولم يكن في وسعها أن تجبُر الفقر الطارئ الذي كان يخيّم على أسرة حامد. (ولم يستطع نائل - حسب قوله - أن يعرف أسرار الأسرة، وماذا حلّ بالأب، أو بسامي، إلا في وقت متأخر).

بعد ذلك بأيام، توسط والد خالد، الذي صار رئيساً للجمعية الفلاحية، بعد إحالته على التقاعد من الجيش، لدى النبريش، لتدبير عمل لحامد: «لكنه رفض الانتساب للحزب يا بو خالد». «اعتبِر الأمر إحساناً. كان طائشاً في تلك الأيام». «طيّب، رح أعمل جهدي. ثلاثة أشهر بس. ومرة واحدة. أنت تعرف. لا يمكن أن يتساوى مع رفاقنا». «وأنا لم أطلب أكثر». لكن حامد رفض العمل. «تريد أن يذلّني برهان العلمي يا خالد؟». فعانقه خالد، وراح يهمس: «سامحني يا خيّي! سامحني، والله ما حسبتها هيك!».

غير أن هذا الرفض الذي اتسم بالعزة، زاد جرعة اليأس في نفسه. فالمدى المتاح من المال المشترك كان يقلقه، ويعذب ضميره. إذ لم ينتج عابد وخالد سوى القليل من المال، لقاء عمل يوم كامل يمتد من الصباح إلى الرابعة. وكان عليهما أن يعودا بالحافلة التي تنتظر العمال المتأخرين، والموظفين، والمسافرين القادمين على متن رحلات الظهيرة من دمشق.

كان يرى خمول التعب، بلاهة الإنهاك المتواصل، فيدرك أنه سيغدو منبوذاً بلا فضائل بعد بضعة أشهر. وحين أحسّ صديقاه بذلك، عادا لمواجهته من جديد بالماضي الذي كانا يعيشان فيه على حسابه. وإذا كان قد أقرّ لهما بتلك الحجة، واعترف بالخطأ الذي يقترفه تجاه علاقته بهما، فقد عجز عن ردّ المصير الوخيم المحتوم الذي يحس أنه يقترب منه. كان يكذب في الحقيقة، ولم يتقبّل فكرة أن يمضي الوقت كله في الاتكال على شهامة عابد وخالد. ولم يكن قد تعلّم أي صنعة، وحين جال بصره في البلدة، أحسّ بالهوان، إذ رأى عشرات الشبان العاطلين الذين يراقبون الفضاء الفارغ الخالي من أيّ أمل. فكّر فيهم: هل يعذّبهم الفقر مثلي؟ هل يملّون من هذه الحياة؟ ماذا يفعلون في ساعات التجوال التي لا تنتهي في شوارع البلدة أو المدينة؟ يطحنون الهواء؟ ماذا سيفعل هو؟

11

هل كان ذلك الذي رآه هو جميل الصخري؟

كان يقود سيارة بيضاء، كما حلم بذلك كلّ مرة، ويرتدي قبعة سوداء لها حواف، ونظارة طبية - على الأرجح - لم يرها من قبل. ناداه، بينما كان يسير على الرصيف المحاذي للجسر المطلّ على الوادي الذي لا يعرف اسمه. غير أن جميل لم يردّ. فكّر أنه لم يسمع. كان ضجيج الشارع المزدحم بالسيارات، والناس، يمنع السائق الحذِر، كما هو حال جميل، من التلفّت، أو ترك الانتباه. هل تكفي هذه الأعذار كي يمرّ من جنبه دون أن يتطلع نحوه؟ تكفي بالتأكيد. ولكن رغبة المشاعر في الغضب أو الحنق أو الشعور بالمذلّة، لا تستطيع أن تستوعب ذلك التجاهل المريع الذي أبداه جميل الصخري تجاهه. لا يريد أن يصدّق هذا أبداً. إذ ليست هذه من خصال الصخري، ولا من عاداته. راح يركض على الرصيف بجوار السور الحديدي الذي يحمي المارّة من السقوط، آملاً أن يستطيع اللحاق به عند الإشارة الضوئية. كانت تظهر حمراء، وقد امتلأ الشارع بالسيارات. وحين وصل إلى هناك، صارت خضراء، وكانت السيارة البيضاء قد اختفت.

12

اختفى والد حامد أيضاً.

أخبره داود الطيّار، الهارب من بنغازي بعد الثورة هناك، أن مصطفى أبو الليل اختفى مع زوجته وابنه الصغير قبل أيام. هناك من قال إنهما اختُطفا، أو إنهما سافرا إلى الصحراء إلى حيث تقيم قبيلة زوجته. كانت الاتصالات بينهم قد انقطعت قبل ليلة من السفر. راح حامد يهزّ رأسه عقب كل خبر يسمعه من داود. «حكيت لحدا قبلي هذه الخبرية؟»، قال داود مسرعاً: «لا». «عظيم. لا تحكِ. ولا تقل لحليمة أيّ كلمة من هذا الكلام!». كانت عيناه الضيّقتان تحدقان في عيني داود دون أن ترمشا. «اتفقنا؟!».

نفّذ داود التوجيه الذي تضمن نبرة إنذار مهدّدة دون أن يُخلّ بأيّ بند. واكتفى، حين جاءت حليمة لسؤاله عن زوجها البعيد، بالأخبار الفاترة المسجلة على قائمة ذاكرته. وبفضل البعد والغياب تدبَّر أمر التزوير الموصى به دون عناء.

وحين عادت إلى البيت بعد زيارة داود الطيّار، بدت منتشية. وفوجئ حامد أن المسافر العائد لم يُلغِ حكاية الاختفاء وحدها، بل كان حصيفاً إلى حدّ أنه ألّف قصة أمل جعلت حليمة تعود مشرقة تتنبّأ بحدس جريء يتضمن مشروعاً لعودة مصطفى من الغياب. قالت إنه يحنّ للمنارة، وإن

الغربة أتعبته، ولم يعد يستطيع أن يغيب أكثر من ذلك في تلك الديار الجافة. تعرف أنه زرع نعناعاً في الشرفة، ولكنه زرع النعناع في حوض من البلاستيك، سيتركه في أيّ ساعة، ويعود إلى هنا كي يشمّ رائحته القادمة من التراب والحجر. كانت تلك هي المرة الأولى التي تشير فيها إلى معنى النعناع المتسلق على حجارة الحائط لديها. ولم يرَ في حياته أباه يتأمل تلك الجهة. وقد غابت عنه أيضاً، وربما كان عابد هو الوحيد الذي بدا مفتوناً طول الوقت بمزروعات أمه الخضراء.

وبفضل الحكايات والأمنيات المخترعة، تعمّدت ألّا تسأل ابنها: لمَ لمْ يروِ الطيار تلك الحكايات له؟ وبقدر ما كان مستعدّاً للكذب، والادّعاء أنه يعرف كل شيء، كان مبهوراً بفرح حليمة. وفي تلك اللحظات وحدها، فكّر أنه أخطأ في منع الحقيقة. فالكذبة كشفت له وجهاً آخر لأمه ما كان يريده. بكى وهو يسمعها تحكي لعابد بتلك الحماسة المشبعة بالشوق لمصطفى الغائب الذي يستعد للعودة. بكى أيضاً لأنه يعرف أن أباه لن يعود، وأن آمال أمه ستُدفن في حديقة انتظارها. وحين أخبر عابد بالحقيقة، قال له: «معلِش، المهم إنها تظل تنتظر».

لم يكن غريباً أن يتلقى من عابد هذا الجواب. وقال لي نائل إن ذلك الشاب الذي هجر بيت محسن الجوف تقريباً في تلك السنوات، كان سلّة انتظار. ففي كل لفتة أو شارع أو عرس أو احتفال أو مكان مزدحم، كان يحلم أن يلتقي بجميل الصخري. غير أنه لم يحلم به، ولم يخطر بباله قطّ في الأماكن الخالية. وحين أجاب حامد، كان يفكر في هند الخرّوب. فتلك البنت التي بدت سمينة ممتلئة وأقرب إلى الطفولة حين كانت في الإعدادية، نشرت طولاً يشير إلى نضج المراهقة فيما هي تقترب من الصبا، وتنتقل إلى الثانوية. وقد ظلّت تدرس في السماقيات، مع أن الثانوية شهدت نزوحاً في اتجاه السويداء من قبل البنات اللواتي كان أهلهنّ حانقين من

إهمال المديرية للأطراف. كانوا يرسلون المدرّسين المساعدين، أو طلبة الجامعات الذين يدرّسون بنظام الساعات إلى هناك. ويضعون المدرسين المشهورين في المركز. فهم الرسالة. فأهلها موجودون في المنارة، ولن يكون في وسعه تكرار تجارب اللقاء مع هيفاء. وليس لديهما ما يؤهّل العلاقة لمثل تلك التجربة. وقد زاد هذا في تعلّقه بها، إذ لم يكن يرغب في التكرار، ولا في ارتياد الأشياء المعروفة، وبدا له أن سوء الحظ قد يتوقف عن مشاحنته والتضييق عليه، بعد أن أجرى مئات التجارب على التفاصيل في حياته. وزاد في مزايا خياره أن في وسعه مشاهدتها والاقتراب منها، دون أن يكلّمها طبعاً، كثرةُ الأعراس في الصيف. صادف تلك السنة أن أكثر من خمسة عشر شاباً تزوجوا في الصيف. وكانت البنات يرقصن على وقع الموسيقا الراقصة للمغنّين اللبنانيين. ولم يعد أحد يطلب الدبكة على أنغام الشبّابة التي لا تصاحبها الدفوف في العادة، باستثناء فادي أبو قدم الذي أراد تكريم خاله القادم من فنزويلا.

كان الخال سليم الدهب قد ترك تلك البلاد منذ بضعة أشهر، وظل يردّد أمام الناس: «تركتها لتشافيز، خلّيه يشبع فيها!». وقد أبدى حنيناً رومانسياً تجاه كل ما يبدو قادماً من ماضي المكان والناس هنا. وفي عرس ابن اخته طلب أن يسمع عزفاً على الشبّابة، وأن يرى دبكة شعبية من تلك التي قيل له إنها اندثرت لمصلحة مُغنِّي مكبّرات الصوت. هناك رآها. فحين سيعزف حامد أبو الليل على الشبّابة (الحقيقة هي أنه استخدم الناي في تلك الليلة)، سيكون خالد على رأس الدبكة وعابد بجواره، فيما يسمح لمن يريد من شبّان المنارة أن يلتحم بهم شرط أن يعرف كيف يستجيب لأنغام حامد. وفي الصفّ المقابل رآها، كانت تقف وسط مجموعة البنات المقابلة للشبان. سمراء، طويلة، بشعر أسود مشدود، ومربوط بشرائط حريرية حمراء في أعلى الرأس. غنّى عابد. أنشد أبياتاً في الحب معزّزة

بحوار من العتاب المتبادل بين حبيبين. غير أنه لم يتطلّع نحو هند ولو مرّةً واحدة، فيما كان على يقين تامّ أنها تعرف مغزى الكلمات مثلما تعرف أنها موجّهة إليها.

يقينياته تلك أسعفته دائماً في توخّي الحذر أمام الحشود، كي لا يمسّها أيّ ضرر من المصارحة، أو التلميحات. كان على الناس أن يكتفوا بصمت مترقّب، مرتاب، مشحون بالشكّ في المعاني الملتبسة التي كانت تتضمنها كلماته أو تصرفاته في حضور هند. وقد بدت له تلك الخيارات ترياقاً مناسباً لتغذية الانتظار.

ويبدو أن نائل الجوف صار مقتنعاً عند هذه اللحظة من حكاية عابد، أن الانتظار نفسه يمكن أن يفسخ ما تبقى من الروح، بعد أن تكون قد أنهت مشاغل العمل والصداقة والسفر والحماية والأخبار الخاصة والعامة والأكل والشراب والتدخين. فحين يفكّر عابد في البشر الذين يحبّهم، يكتشف أنهم قد وُضِعوا على قائمة انتظار عجفاء فقيرة لا تتضمن أي أمل بالتتويج. فعلاقته بجميل الصخري ظلت تتأرجح بين البحث الدؤوب المتواصل في أحياء المدينة، وشوارعها وأزقتها، وبين وجوه أهلها، والشعور بأنه ينزلق إلى نوع من العبث واللاجدوى المتكررة. فمن المؤكّد لدى نائل أن عابد لم يجد في أي ركن من المدينة أثراً ما، يمكن أن يدلّه على مكان جميل. وفي الغالب لم يتعرف الأشخاص الذين سألهم عنه إلى الرجل. وكان اسم العائلة مجهولاً، في المحيط الكبير الذي يحتفي بأسماء العائلات الكبيرة والمتوسطة العدد، والصغيرة التي تتجمع عادة في ائتلافات معروفة. ولكن لا وجود لآل الصخري. ومن المشكوك فيه أن يتمكن من التقدم لخطبة هند الخرّوب. في حين أنه كان قد أقسم من قبل ألّا يفعل ذلك، أو ألّا يحاول امتلاك البنت بطريقة تؤدي إلى تدمير الرصانة التي فرضها على الموضوع منذ أن نفرت فيه أول مرة. ولا يمكن

أن يفرّط بالحضور المختلف الذي بات يتباهى به الأصدقاء الثلاثة بعد أن أنهوا خدمتهم العسكرية. وكان عليه أن يضمّها إلى قائمة انتظار أكثر يأساً من أي انتظار آخر. وقد بات البحث عن عمل دائم يكفل له حياة معقولة (وهي كلمة استطاع أن يتوصل إليها بفضل الواقعية التي أرغم على تجرّعها يوماً بعد آخر في ظل البقاء شبه الأبدي لبرهان العلمي في قيادة الفرقة الحزبية) يزداد صعوبة بسبب الغلاء المتسارع في أسعار الماكينات والمحلات والأمكنة المحتملة التي كان يفكر في استئجارها للعمل بعيداً عن المعلم صابر. وبحسب المعلومات التي جمعها نائل، فإن المعلّم لم يزعج عابد في أيّ أمر، غير أن اسم الصانع أو الأجير كان ينخر رأسه كل يوم، من اللحظات الأولى التي يبدأ فيها العمل في الورشة، إلى نهاية اليوم بعد الظهر.

كانت مهاراته في ميكانيك السيارات تؤهّله لذلك. ولكن تمويل المشاريع الصناعية الصغيرة التي كان يقدّمها المصرف الصناعي كان قد جُمِّد بعد آذار من ذلك العام.

كان آذار هو بداية النهاية. ففي اليوم الأول الذي بدأت فيه المَظاهرات في قلعة اللبن المواجِهة للمنارة، جلس الثلاثة معاً عند صخرات العسل التي تطلّ على سهل الزرازير الفاصل بين المنارة والقلعة، يستمعون إلى خليط الرصاص والهتاف. كان الصوت يأتي متقطّعاً وغامضاً ومخيفاً. فما يحدث هناك بدا لهم محمّلاً بكتل صمّاء غريبة. لم يستطع أيٌّ واحد منهم أن يرسم علامة يمكن أن تأخذهم إلى الحقيقة. وقال عابد: «بتمَّنى لو طير وروح شوف شو عم يحكوا. وكيف تجمّعوا، وليش، وأعرف إذا كانوا رح يستقبلوني، وإذا كان كلام النبريش صحيح ولّا مش صحيح!».

لكن ماذا كان يفعل النبريش أو يقول؟ سألت نائل الجوف. كنت مهتمّاً فعلياً بمعرفة ردود أفعاله تجاه بداية ما حدث في قلعة اللبن، فمن

بين المعلومات التي عرفتها من لديَّ مصادري نفسه الذي جاء لزيارتي في البيت، حين علم أنني أكتب رسالة (هذا ما قاله عن النص الروائي) في الصداقة، أنه كان لدى برهان العلمي نشاطٌ تجاريٌّ سرّيٌّ مع تاجر من القلعة يزوّد الجزّارين بلحوم البقر، وأن العلمي كان شريكاً في صفقات البيع، فيما أراد أن يظهر كوسيط ومُعرِّف. وقد أراد أن يحافظ على سريّة نشاطه المالي، لأنه كان يتغاضى أو يسهّل عمليات البيع والشراء والذبح خارج الأختام الخضراء، ويتقاضى من التاجر نسبةً ما، لقاء نشاط الوساطة والحماية معاً. «ما الأختام الخضراء؟». قال أحمد الشايب إنها أختام المسلخ الحكومي الذي يرخّص بيع اللحوم أو توزيعها. لم أكن في حاجة إلى تفسير الأمر، فالتجارة خارج سلطة المسلخ الحكومي تدخل في باب الجرائم الاقتصادية التي يعاقب عليها القانون، فضلاً عن تهديدها صحّة الناس.

ولا بدّ أن إشارة ذلك الشاب الذي كان قد تجاوز الثلاثين من العمر، تريد أن تبيِّن التناقض بين ما يقوله العلمي في العلن، ونشاطاته السرية التي يدوس فيها على أيّ قيمة، من جهة. ومن جهة أخرى، استهتاره غير المعلَن بالبشر، المصفّح بفضائل الشعارات، حين يقبل أن تقدَّم لهم وجبات لحوم مريضة. باغتتني استنتاجات أحمد. فنائل الجوف قدّم لي شابّاً خفيفاً وخالياً من المعنى. وقد بدا كأنما يعيش على هامش الوجود الحيّ للأصدقاء الثلاثة، أو يستجدي الحياة منهم، ويختلس الوقت المتبقي لديهم كي يحضر في الحكاية.

ولكن لم يكن في الوسع معرفة المزيد، في تلك اللحظات، منه. فحين سألته من أين استمدّ تلك المعلومة، أجابني وهو يبتسم (كان حزيناً في الواقع على الرغم من ابتسامته تلك): «لديَّ مصادري يا أستاذ!».

لن يصمد طويلاً، إذ جاء لزيارتي بعد ذلك بخمسة أيام. ظهر كيسان

متهدّلان أسفل عينيه، وامتلأ بياضهما بشرايين شعريّة مدمّاة، وضاقتا. بدا لي غاضباً ومنهكاً، بقدر ما كان مستعجلاً للمغادرة: «ما نمت الليلة الماضية؟»، سألته كي أكسب بعض الوقت، أو التعاطف. «لا. وشربت دلّة قهوة وحدي». صمتُّ. انتظرته. وعندما لم يتكلم قلت: «شو رح نشرب الآن إذاً؟». «قهوة طبعاً». ردَّ دون تفكير. ثم ظل صامتاً طول الوقت الذي استغرقته زوجتي في صنع القهوة. لم أتكلم أنا أيضاً متعمّداً أن أجعل الصمت يضغط عليه. وكدت أزهد في حيلتي الصغيرة، حين شرب الشفة الأولى، لولا أنني لاحظت أنه لم يُعِد الفنجان إلى الطربيزة الخشبية أمامه. شرب شفّة ثانية، وقال وهو يضع فنجانه بين كفّيه: «أعرف من قتل الأولاد واحداً واحداً».

قال أحمد الشايب، إن الأولاد وجدوا برهان العلمي يخطب في حشد من الناس تجمهروا في زاوية من ساحة البلدة، حين عادوا من التأمل عند صخرات العسل. كان يشتم الحرية: «كلاب وأنذال ومتعصّبين، بدّهم حرية السرقة والنهب والتخريب. أمس أحرقوا مجمّع الحبوب - يسترنا الله - لا نعرف ماذا سيحرقون غداً».

وحين تركوا الساحة ذهبوا لشرب البيرة عند محمود جرّار. كان مذاقها لذيذاً، وكانت رائحة الحانة التي كساها محمود بالخشب والحجارة تنعش قلوبهم. وقد أحزنهم خالد حين قال إنه يخشى فعلاً أن يُحرَموا من هذا كلّه. «صدّقتوا حكي النبريش فعلاً؟». قال حامد: «النبريش وغد ولئيم فعلاً لكنه ما بيكذب بالعادة. ليش يكذب؟ لكن في جواتي شي مش مصدّقه». قال عابد: «ولا حرف من كلامه. أنا بالنسبة إلي إذا قال النبريش: لا، أقول: نعم. وإذا قال: أبيض، أقول: أسود». قال أحمد الشايب إن عابد بدا في تلك اللحظة حاقداً على برهان العلمي أكثر من أيّ وقت مضى. كما لو كان بينهما ثأر ما، أو دم لم يجفّ. وفي المقابل فإن برهان العلمي

تجاهل وجود الشبّان الثلاثة في الأنشطة التالية التي بدأ ينفّذها في المنارة، لمواجهة أي احتمال لامتداد المظاهرات من قلعة اللبن أو من غيرها من القرى والمدن إلى المنارة وجوارها.

طلب أحمد بيرة، وشرب نصف الزجاجة دفعة واحدة، ثم تجشّأ كتلة الغازات التي ملأت معدته من الجرعة الأولى الكبيرة التي شربها. «يمكن أنو يوم واحد يحسم مسار الحياة؟» سألني. «شو بتقصد؟». «بقصد أنو يمكن بيوم واحد فقط بتلاقي أنو تغيّرت حياتك كلها. طيّب ممكن هذا يصير لمجموعة من الناس؟». وعلى الرغم من إدراكي أن أحمد كان يروّض نفسه على قبول النتائج التي يعرفها جيداً، وأنه لم يكن يسألني بل يريد تنبيهي. قلت: «هذا يتوقف على نوع اليوم». فأخذ يهز رأسه ببطء. لم يعلّق. واكتفى بشرب ما تبقى من زجاجته. وقال: «بدّي روح». «ولكننا ما حكينا شي مهمّ بعد». «رح نحكي كثير بعدين».

أعترف أن لديّ مصادري ينشر مناخاً من الكآبة والحزن في المكان الذي يحلّ فيه. والأصح أن أقول إنه يزجّ مَن حوله في موقف البلاهة والعجز عن الكلام والرهبة من وجود الآخر. ولهذا لم أتمسّك بوجوده. وفي الليل بدّلت آرائي قليلاً، وفكّرت أن لدى أحمد الشايب أكثر مما يوحي به مظهره الخامل، وطين حضوره المرفق بالكراهية. ما الذي حدث في السنوات الأربع التي مضت، داخل تلك المجموعة الصغيرة التي اختفى أبطالها جميعاً عن وجه الدنيا الآن؟ وما الذي يعرفه أحمد؟ وما الذي سيبوح به، أو يتركه مطويّاً داخل لحمه الجاف؟ وما الذي حدث في حياته هو شخصياً؟

في ذلك اليوم مشى عابد لأول مرة وحيداً في شوارع المنارة. ولأول مرة كان يرى المكان كما لم يره من قبل. بدت الحجارة الزرقاء أليفة وهي مغسولة بأمطار آذار. وقد أضفت الأعشاب الخضراء والضفادع وزيزان

الربيع جوقة من الحيوية على الزوايا الظليلة. فيما كانت أشجار الكينا تعجّ بضجيج عصافير الدوري التي تختفي في الأعالي هناك بعيداً عن عصيّ الفلاحين. كانت بضع نساء يظهرن مجتمعات داخل أحد البيوت. ليتني أعرف ماذا يقلن، عمّن يثرثرن ويتقوَّلن. بدت الأشياء في تلك اللحظة حبيبة ومؤنسة. أيُّ أمنيات هي تلك؟

شعر بالشوق إلى أمه التي لم يرها منذ شهرين. كيف سمح لمحسن الجوف أن يمنعه من رؤية تلك المرأة الحبيبة التي ملأ الشيب شعر رأسها؟ يذكر أنه كان يحب تلك التجاعيد المتنقلة التي كانت تتسلل إلى طرفي شفتيها، وأسفل عينيها، حين تبتسم، أو تغضب. أغمض عينيه كي يتذكر صورة الابتسامة التي تبرق من خلالها أسنان بيضاء مرتّبة بجدارة في الفم الطيب. أمي؟! هتف لنفسه. سمع صوت رصاص، آتياً من الغرب. من جهات القلعة التي تتظاهر. فواصل مشيه نحو الوعر حيث تلال الزيتون العالية، التي يمكن منها أن يسمع، أو يرى - ربما - بعض ما يحدث هناك. كانت أنفاس الصيف تمخر عباب الوعر الصخري كله. أعشاب يابسة، وحشرات متسلقة وزاحفة، وزيزان تخرق سكون الهواء الثقيل. ومن تلال الزيتون لم يرَ شيئاً. في الداخل. في الداخل. فكَّر. لا بد من أن المعركة أضحت داخل البيوت. أين يا ترى؟ تذكّر أنه زار القلعة مرّتين. وفي المرتين لم يتسنَّ له أن يلتقط أيَّ حديث يمكن تذكّره. لا. كان أحمد الشايب يجرب دراجته النارية الجديدة، قال: تعال رافقني. كان الهواء يلسع وجنته، وكانت الطريق تكاد لا تظهر، أمام سرعة الدراجة. وحين وصلا إلى القلعة، قال أحمد: «شو رأيك؟ ندخل وندور ونتفرَّج عليها!». دورة واحدة على ظهر دراجة. هذا ما يعرفه عن الجيران الذين يتعرضون للرصاص الآن. متى كانت المرة الثانية؟ لكن ما الذي يفعله الناس هناك؟ كيف تفكر أو ماذا تفعل حين يهاجمك الجنود؟ كانت الشمس تغرب

خلف خطوط النار البعيدة حيث تل الحارّة. وكانت اللجاة تعوي الآن، كأن الذئاب التي تفرّ من صوت الرصاص تهتف طالبةً الصمت. هل تقول: لا، أم: كفى؟

وفي طريق العودة مرّ على منزل إسماعيل جرّار. شعر بالشوق للختيار الذي بات وحيداً الآن. وفوجئ أنه كان صاحياً. «مليحْ إنَّكْ جِيتْ». قال بصوت متعب، ترتجف بداخله الحروف. «أني سامع أصوات كثيرة جديدة حوالينا. أصوات شو هاي؟». «عم يقولوا في ثورة يا بو محمود». «ثورة؟» غمغم العجوز وشرد قليلاً وقال: «أي وشو بدهن؟». «ناس عم يقولوا بدّهن الحرية، وناس عم يقولوا كذّابين». أغمض أبو محمود عينه اليسرى، وراقب الشفق البعيد، قال: «وإنتْ شو عم تفكر؟». «أيّ حدا بالدنيا ممكن يفكّر يطرد النبريش، رح كون معه». «الله يستر!». قال أبو محمود. «المهم على طول إنّو الواحد منا يعرف شو بدّه، ويعرف لوين رايح. انتبه! لازم تعرف لوين رايح». ثم روى له:

«تنادت الثيران يوماً للنظر في شأنها مع الإنسان، وفي السبيل إلى التحرر من نيره. وكان بين الجمع واحد يتوقّد حماسة وشعراً. وهذا بزَّ الكلَّ بحماسته وشعره وأقنعهم بأن الحرية تؤخذ ولا تعطى، وأن بابها المخضَّب بالدماء لا يُقرع إلا بقرون مخضّبة بالدماء، وأن لا سبيل إليها إلا باغتصابها في بيتها. فاتخذوه قائداً لهم، ودليلاً، ومشوا وراءه صاخبين: إلى الحرية، إلى الحرية. وما زال بهم حتى بلغ بيتاً جدرانه وبابه مضرّجة. فقال لهم: هذا بيتها، وهذا بابه. فاقتحِموا الباب، ولا ترتدُّوا عنه، وإن تكسّرت قرونكم، وسالت دماؤكم أنهاراً! فما كان من الثيران إلا أن امتثلوا لأمر زعيمهم. فتكسّرت قرونهم، وسالت دماؤهم. ولكنهم في النهاية حطّموا الباب، ودخلوا البيت. وإذا بهم في المسلخ».

بمثل هذه النداءات لا يمكن لعابد أن يعرف ماذا سيفعل. أو أن عابد لم

يكن مشغولاً في تلك الأيام بالتفكير في أيّ شيء، عدا البحث عن تمويل صغير للعمل في ورشة صغيرة لتصليح السيارات. هذا رأي نائل الجوف، بينما قال لي أحمد الشايب إن ذلك الشاب كان متردّداً بين تأييد ما يجري غرب المنارة، أو الصمت.

في تلك الفترة عاد محسن الجوف للتحرّش به. ففي إحدى الليالي اقتحم بيت حليمة، دون أن يبلغ أحداً. فوجئ الشبان الثلاثة به. ويبدو أنه قد فوجئ هو أيضاً بالمشهد البيتي: كانوا يتعشّون، وكانت حليمة ترفو زرّاً فالتاً في قميص ملون. أسرة فقراء يأكل أولادها علبة سردين.

كانت تلك هي أول مرة يحسّ فيها محسن الجوف أنه ضعيف وعاجز عن التنفس. هزمته علبة سردين تفوح منها رائحة الفلفل، ليمونتان، وبضعة أرغفة. لم يكن فقر المائدة هو السبب، قال أحمد، بل شهوة الحلقة الصغيرة. اجتماع الأيدي على اقتسام الممكن. ولهذا فقد عجز عن الكلام. ماذا سيقول لابنه العاقّ: «تأكل السردين وتتركنا؟». تختنق الكلمات التي أعدّها في البيت، وردّدها في الطريق، وشقلبها وأعاد ترتيبها، في حلقه. ويدرك، هو محسن الجوف الذي كان يكره السردين أيضاً، أنه خسر المعركة.

قال نائل الجوف إن محسن شحذ قواه كلّها في البيت. هدّد بصوت مرتفع على مسمع زوجته أنه سوف يسلّ ذلك الولد من بيت العاهرة حليمة كما تسلّ الشعرة من العجين. وأنه سيجبره على الاستسلام والطاعة. وصار يصرخ: «أنا ربُّه!». وحين عجز عن الكلام أمام الشبان الثلاثة، اعتقد أن السبب هو تلك الكأس السوداء من شاي العصر التي أعدّتها زوجته. وكما هي العادة وعد نفسه أن ينتقم منها. فلا شكّ أنها هي التي تسببت بهذا الطعم المرّ الذي يملأ حلقه.

حليمة التي رأت بلاهته المشلولة على باب بيتها، أسرعت لنجدته. (كانت تنجد نفسها وتعمل على تحاشي احتمال الفضيحة فيما لو نشبت

معركة بين الأب وابنه. التعليق لنائل الجوف). قادته إلى الغرفة الثانية، وأجلسته على إحدى أرائكها الزرقاء. جلس محسن هناك يفكر، بعد أن غطّى كامل جسدها بنظراته وهي تسأله عمَّا يفضِّل: القهوة أم الشاي؟ هل تأخذ تلك العاهرة زبائنها هكذا دائماً؟

لكنه كان قد خسر المنازلة، وخرج من بيت حليمة متخفّياً، بسبب عجزه عن استمالة عابد. المؤكّد، بحسب نائل، أن محسن خرج أكثر حقداً على ولده، بينما ازداد النفور لدى عابد. ولم تقدِّم حليمة أيّ معونة للأب، بسبب شكوكها في أغراضه. الراجح عند نائل أيضاً أن محسن الجوف بدأ يخشى أن يُقدِم عابد على سلوك الدرب التي يسير فيها المتظاهرون في درعا. ولكن لم تكن لديه أي مستندات واقعية يمكن أن يعرضها أمام حليمة مثلاً. مجرّد خوف غامض خامل لا وجهة له.

هل كان يعرف أن الهتافات التي تجري في القلعة أو غيرها يمكن أن تجذب عابد فعلاً؟ سألت نائل الذي ظل طول الوقت الذي كنا نقضيه معاً في الحديث عن الشبان الثلاثة، يتغاضى عن هذا الأمر. قال إن الشبان الثلاثة ابتعدوا عن أيّ نشاط سياسي منذ صدامهم الأول بزيتون أبو طرّة. ردّة فعل طفولية، أدّت بهم إلى نفور شامل من العمل الحزبي والسياسي. وهو يستبعد أن ينشغلوا بما إذا كانوا سينضمّون لهذه الجهة أم لتلك. وقد وجدوا أن من العبث أن ينخرطوا في صراع معقّد، على الأقل بالنسبة إليهم، دون أن تكون لديهم وجهة نظر. وفي منتصف ذلك العام، كانوا في الثالثة والعشرين من أعمارهم. وقد حدثت واقعة مصادفات جسورة، بدّدت مشاغلهم كلها، وجعلتهم جميعاً يتأهبون لمواجهة الطارئ الجديد. ففي أحد أيام الصيف التقى عابد بهند الخرّوب، لأول مرة في السويداء. كان لقاء مدبّراً. وقد أعدّت له هيفاء الكافي بعد مسيرة سرّية طويلة من اللقاءات بهند. كانت الفتاتان تدرسان في كلية واحدة في الجامعة. وقد

تسلّلت هيفاء، التي سبقت هند بسنتين، إلى رفقة بنت البلد، وفي عقلها شاغل وحيد هو كسر العوائق بين الحبيبين.

يتطلب توضيح هذا اللقاء من نائل الجوف تقديم عرض موجز لمعطيات المساندة الطارئة، ووقائع الأخطار المرعبة المولودة في المكان. فمن جهة كانت المدينة قد بدأت تتوسع في قطاع الخدمات. ثمة مهاجرون إلى هنا من جميع المناطق. منهم من كان من أهل البلد في المحافظات السورية الملتهبة بالقتال، ومنهم من فرّ من مدينته بعد أن دُمِّر منزله، أو هوجم بالسلاح. كانت المقاهي في انتظارهم. مقاهٍ ومطاعم وعمارات وشقق للسكن. وهذا هو المعطى الذي نفذت منه هيفاء لتدبير اللقاء. اختارت مقهى صغيراً في دارة حجرية وسط المدينة، حيث مُنِعَ الهدم. واستضافت الحاضرين جميعاً على نفقتها. غير أن وجهاً آخر للحقيقة ظل يخيّم على اللقاء، دون أن يتمكّن أحد منهم من تلافيه. فإخوة هند وأبناء عمّها كانوا قد شكّلوا ميليشيا مسلحة جديدة مستقلة. بينما تطوّع شبّان آل الجوف في «الدفاع الوطني».

خيّم سكون قاحل على الجلسة. بدت هند مذعورة. تتلفّت حولها، أو تتصفّح وجوه الداخلين إلى المقهى بعينَي أرنب. وفي حين اعتقدت هيفاء ومعها خالد وحامد أن في وسع طاقة الحب أن تشحن اللقاء بالحيوية بعد الصدمة الأولى، فإن كلّاً من عابد وهند (ربما كانت هند هي التي تتحمل مسؤولية البرودة التي عمّت الوجوه كلّها) لم يُبدِيا أكثر من ابتسامات باهتة تفتقر إلى وقود الشوق.

وبدل الكلام، ران صمت شفيف ضيّق. تسلّل الحزن من شقوق ذلك الصمت إلى روح عابد. وفي منتصف اللقاء بين حزنه على نفسه، بسبب اليأس من أن يكون في وسعه متابعة مشواره مع هند، وذعرها المسوّر بوجوه أشقائها، استطاع أن يقول لها: «بتعرفي؟ أنت رفيقة عمري».

صمت آخر. انتظرت على حافة الطاولة الصغيرة التي ابتعد عنها خالد وحامد وهيفاء. انتظرت طويلاً وهي تتّكئ بكوعها الناحلة دون أن تحظى بكلمة واحدة من بعد. طأطأ عابد رأسه قليلاً، ولم يعد يجرؤ على النظر في عينيها. وراح يدوِّر كأس الشراب الصفراء يائساً من كلّ شيء، من أشياء غامضة محبطة تهبط على كيانه من مكان مجهول. وفي ما بعد قال لحامد إنه تعمّد ألا ينظر إلى عينيها، خوف أن يحبّها أكثر، في حين أنه يعلم تماماً أنها ليست له.

قال لحامد إن لديها عينينِ ساحرتين: عسل صافٍ يمكنك أن ترى نفسك فيهما. كأنهما مرآتان. وكان قد فات الأوان على إدراك أيّ سمة جميلة من سمات وجهها، فقد لمح أحد شبان المنارة هند بين المجموعة، ووشى بها. وسرعان ما تبيّن أنه رآها برفقة هيفاء وحدها، وقد أضاف العناصر الأخرى، مثل عابد وحامد وخالد، من خياله، إلى الصورة.

كانوا يعلمون أنه لم يرهم، فقد تأخر الثلاثة في المقهى أكثر من نصف ساعة، قبل أن يخرجوا، بعد مغادرة البنتين. وراقب حامد الشارع من نافذة المقهى في الطابق الثاني من بناء الحديد الجديد المطل على الشارع المحوري. وحين ضمن خلوّ المكان من أيّ وجود مريب، خرجوا معاً من هناك.

وفي المنارة راقبوا تحرّكات زرياب أبو كنار خلال عشرة أيام. وفي العاشر من أيلول، كان يخرج من منزل رائد الصالح في التاسعة مساء. (كانت هند قد أضحت حبيسة البيت، ولم يسمعوا أيَّ خبر عنها. وقالت هيفاء الكافي إنها لا تردّ على هاتفها، ويتذرّع من يردّ على الهاتف الأرضي أنها مشغولة، إذا طلبت أن تكلّمها).

فجأة وجد نفسه محاطاً بجسدي عابد وحامد. كان خالد يشير له

بسبابته كي يصمت. وسحبوه من هناك إلى أطراف وعر اللجاة. وهو يقول: «شويّ. شويّ». ولم يعرف معنى تلك الكلمات، وقال لديّ مصادري، إن الشاب ظل يردّدها طول الأيام التالية، وإنها صارت جزءاً من افتتاحياته في الكلام. لماذا؟ سألته. ماذا فعلوا به هناك؟ لم تكن لدى أحمد الشايب أي قرينة أو بيّنة على أن زرياب أبو كنار قد ضُرب، فقد عاد عند منتصف الليل دون أن تظهر على جسده آثار تعذيب، وليس لدى أحد أيُّ خبر عمّا إذا كان قد روى أيَّ تفصيل عن الوقائع التي حدثت هناك في أطراف الوعر. وكلّ ما فعله عند المساء أنه طلب من سايس المنارة سلامة العلي أن يحضر إلى المجلس برفقة من يختاره من الأجاويد، كي يُقسم أمامهم على الكتاب المقدّس إنه لم يرَ أحداً برفقة هند سوى هيفاء وحدها. أقسم مرة واحدة وهو يضع يده على «كتاب الحكمة». وحين أراد أن يعيد الحلفان منعه الشيخ سلامة قائلاً بحزم: «مرّة واحدة بتكفي الله والأنبيا وبتكفينا».

وبفضل تلك الحركة العلنية، أُرغم آل الخرّوب على الإفراج عن هند، والسماح لها بالخروج من البيت. وقد تعمّد إخوتها أن تخرج برفقة بنات من عائلة السايح وأبو كنار إلى السويداء. وكان شعور خفيّ بالفخر، واسترداد الكرامة التي كادت تهدَر بسبب شائعة زرياب، يحدوهم لاتخاذ تلك الإجراءات النحاسية الضاجّة. ويقول لديّ مصادري إن الشبان الثلاثة الذين أرادوا تبرئة هند وحدها، بدَوا مرتاحين لخروج آل الخرّوب من نعش الفضيحة.

وأسباب الارتياح ناجمة عن مناخ الرعب الذي بدأ يعمّ المنارة منذ انتشار السلاح بين أيدي الشبان. لم يكن النبريش وحده هو من يوزّع الأسلحة. فقد ظهر فجأة أن زيتون نفسه يدير في المدينة مركزاً آخر للتوزيع، وأن مهام الشبان الذين يتبعون له (هكذا أشاعوا في المنارة)

تختلف عن مهام مسلّحي النبريش الذي ظل يبذل كل يوم صبر سلحفاة وهو يحاول أن يجعل السلاح كلّه تحت إمرته، دون جدوى. كانت هناك قوة خفيّة، كما قال لأبي خالد، تريد غير ما يريده.

وكنت تراه يمشي كما لو كان يشيّع نفسه ذاتها في شوارع البلدة، يحمل الكلاشنكوف الروسي، ويهذر بكلمات غريبة، ويشير بيديه مثرثراً مع المجهول الذي لن يعرف أحد من هو. وبعد يوم من حفل الوداع الذي أقامه في بيته، كي يعلن عن ابتهاجه بسحب ابنه إلى الجيش، شوهد يبكي تحت شجرة التوت في أسفل حاكورة بيته من جهة الغرب. وهو أمر شديد الغرابة، في رأي نائل، لأن النبريش كان معادياً للبكاء. وكان يتّهم أولئك الذين يبكون بالسفاهة الأنثوية. ولهذا فإن النبأ أصاب العديد من رجاله المسلحين بالقنوط. كسدت حماستهم، وفكر أحد أبناء الطيار في بيع لقبه الجديد، وهو «أحمر الوجه»، لشابٍّ صغير من حارة السراديب مقابل إبريق من الزيت. لم يفعل. ولكنه ظلَّ كئيباً طولَ أيام، عاجزاً عن سؤال برهان عن سرّ بكائه. ولعل هذا الجانب من القضية، أي قوة آل الخرّوب المتصاعدة، بعد انضمامهم إلى مكتب زيتون أبو طرّة في السويداء، هو ما صار يعني قدرتهم على ضبط توازن الثرثرات، والقيل والقال، والنمائم المحتملة عن هند، في ظل التوازن الطارئ بين المسلحين الذين انقسموا بين زيتون والنبريش.

مشوار هند الذي طفا على مجادلات المنارة بشأن النبريش ودموعه الملغزة (فقد أنكر بشدة أن تكون خشيته على ابنه من الموت في الحرب هي السبب)، سار بالتوازي مع قصّتين: الأولى هي اختطاف بديع النمر، من شمال المنارة، وإرسال رسالة عبر هاتفه النقال إلى أخيه، تطالب بدفع فدية ثلاثة ملايين ليرة خلال عشرة أيام. والثانية هي الذراع المقطوعة التي وجدها عابد وحامد وخالد في وادي الحجاب، خلف صخرة الماعز.

كانت متجمدة تماماً، وقد نشفت الدماء منها، مما يدل على أن ساعات طويلة تفصل المنارة عن الحقيقة.

لمن كانت تلك الذراع المقطوعة؟ لا تشير الملابس إلى أيّ هوية، إذ كانت قطعة من لباس داخلي شتوي هي ما تبقى فيها. بينما يظهر وشم نباتي محايد على الساعد. وتبيّن أن الذراع لشابّ، فلا أثر يدلّ على أيّ تجاعيد كهولة، أو شقوق تعب في الحقول. وحين لم يأتِ أيٌّ خبر عن ذراع مقطوعة في القرى والبلدات المجاورة كلها، رجّحوا أنها لأحد المسلحين في القلعة. في البداية ظنوا أنها لبديع، غير أن والدته قالت: لا. بديع النمر كان شديد السمرة، وتمتلئ ذراعه بشعر أسود متشابك، وبلا وشوم.

كان عابد في تلك الأيام يكتب أغنية جديدة لهند. ولكنه لم يستطع متابعة النشيد بعد الشطر الأول منها، منذ أن سمع قصة الذراع. قال لحامد إن الشِّعر يبدو مذعوراً من حالته. كأن الكلمات تخاف حين يصبح الشخص حزيناً عاجزاً عن فعل شيء. قال حامد إنه كان يعتقد أن الكلمات ستارة فقط لإخفاء المشاعر. قال عابد إنها مثل حجرة صغيرة واطئة تستطيع أن تخبِّئ بداخلها نفسك وعواطفك، ويمكن أن تعتني بأي شخص أكثر من عنايتك به في الواقع. قال حامد إنه لا يستطيع أن يخاطب أحداً بكلمات لا يؤمن بها. ممكن. ممكن. لكننا عوضاً عمّا لا نريد فعله نقول أشياء للتعويض. «أمس سألني النبريش لمّا شافني أمام محل محمود جرّار: كيف حالك يا صديقي؟ ما تجرّأت قول إنّي مش صديقه. شكرته وسألت عن حاله. ما بيهمّني حاله أبداً. الله يلعنه!». لكن الكلمات تمكّنت من ستره. ستارة؟ قال حامد إنه سيضع لحناً لم تسمع به المنارة أبداً من قبل لقصيدة عابد عن هند. «لن تكون عن هند». «كيف يعني؟». «ستكون لها. لكن لن يعرف أحد غيرك أنت وخالد». قال عابد إن أصوات القصف والمدافع تقلقه كل ليلة. فقال حامد إنه سيدعه ينام في الداخل. نم في الغرفة الجوانية. أمس كانت

الأرض ترتجّ تحت جسدي كله. وكان الصوت يأتيني مثل انفجار مكبوت داخل صدري. تقلّبت حتى الصباح وأنا أفكر أنهم يتطايرون هناك. قال خالد إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا أي شيء. قال عابد إن صاحب الذراع يأتيه في أحلامه. قال إنه يريدها. قلت له إنها مدفونة في المرمدة. ولكنه أخبره أن أشخاصاً جاؤوا في الليل وأخذوها. وفي صباح اليوم التالي رأوا أن مكانها فارغٌ محفورٌ. يريد أن يعرف من أخذها، ولماذا.

أخبرني أحمد الشايب أن مشكلة الذراع المقطوعة استُغلّت من قبل النبريش للتشهير بالشبان. وفي رأيه أن برهان العلمي لم يُرضِه موقف الحياد الذي اتخذه الشبان. لكنه لم يكن حياداً، بل نوعاً من اللامبالاة الحاقدة التي نجمت عن كل ما يجري حولهم. كان الشايب في تلك الأيام قد افتتح محلاً لتصليح وصيانة الدراجات العادية والنارية. وسرعان ما أوقف نشاطه في مجال الدراجات العادية، بعد انتشار الدراجات النارية. كانوا يخترقون شوارع المنارة، وأزقّتها، مثل الزيزان. أسراب حشرات تقدح أصوات النار المشتعلة في المحرّكات.

وفي أول لقاء تلا مقابلة عابد مع هند تلقّى توبيخاً من هيفاء: «تريد أن نطبخ لك البنت مع الفلفل؟». وهي تعلن غضبها من تردّده المضجر، وقعوده المتعالي النافر أمام البنت. وفي تلك اللحظة فقط أراد أن يكشف لها أن زهده مبتّل بخوفه من رؤاه القاتلة. غير أنه لم يجرؤ. لماذا يا عابد؟ يوبّخ نفسه بعد أن يعود إلى البيت، وينام مبكراً تلك الليلة، ولا يردّ على نداءات حليمة للعشاء، ويفكر في هند، وفي أن بينه وبينها بحراً من الحقد والكراهية والسلاح. ويتمنى أن يعاد اللقاء بينهما كي يتمكن من قول كلمات أخرى عن الحب. ويشعر أنه مستعد للذهاب إلى أي مكان في هذا العالم برفقتها. وكان يفكر أن في وسعه أن يأخذ هند إلى مغارتهم في

صخرات العسل. وأنهما يستطيعان أن يختفيا هناك من جديد بعيداً عن تدريبات عصابة النبريش، أو قوات زيتون أبو طرّة. ولكن العالم يبدأ في الصغر والضيق أمام عينيه، تصغر مساحة الأرض التي يمكن أن يتحرك في داخلها. إذ بدأت الصخرات تختفي من أمامه، ولا يعرف ما إذا تسلل إليها حاملو الأسلحة أم لا. ولكن لا، قال لنفسه، إنها أرضنا نحن. ونحن سنجد مدفع ضاهر ذات يوم. ويحزن لأنه يريد الحرية، ولكنه لم يعد يستطيع أن يحوش الهندباء. يا صخرات! يا صخراتنا. ينادي في الصباح وهو يرى تلك الوعور الرمادية التي يشتاق إليها، تبتعد يوماً بعد آخر. لن تعود إليه تلك الطمأنينة التي كانت تمنحها الصخور، لا رائحة الأعشاب، لا شقرقة الحجل. يحسّ أنه يتبعثر في هذا العالم الذي صار محكوماً بوجود رصاص مسلّحي زيتون والنبريش هنا في المنارة، وبنادق المسلحين الذين استولوا على الوعر.

في ما بعد صاروا يكرهون كلّ شيء. لم يعد ثمّة بهجة من أيّ نوع في المحيط. وبدت المنارة شحيحة عجراء أكثر مما كانت عليه من قبل في أي وقت. وقال أحمد إنهم صاروا يرفضون عروضه للعب الورق (وهي البهجة الوحيدة المتاحة للشبان)، ويشربون العرق كل ليلة عند محمود جرّار. وكان يشملهم شعور أن الأشياء تتضعضع في عالمهم. أشياء جديدة مرعبة خالية من البصيرة والفهم. لماذا؟ ما هي؟ أين يا ترى؟ وفي كل يوم يزداد يقينهم أن لدى العالم من حولهم مخابئ للذعر والكآبة والحزن والعماء والتدهور والخسارات والتهدّم والحقد والكراهية.

وفي الصباح جاء خالد، جلس على المصطبة الحجرية في فناء البيت. وقال وهو يختنق: «أمبارح طلبوني ع الاحتياط!».

قال نائل الجوف إن جميع حسابات عابد وحامد وخالد لم تضع هذا

الاحتمال بين مشاغلها. فلم يكن قد مضى أكثر من بضع سنوات على انتهاء الخدمة الإلزامية لكلّ منهم. وكانت القافلة المرشحة للاستدعاء قبل أسمائهم تصل إلى أكثر من مئتي شاب في المنارة. لم يُستدعَ منها سوى عشرين شاباً. ولم يكن لدى أيٍّ واحد منهم شكوك بشأن الاستدعاء. فالأوامر تأتي من جهات لا يمكن أن يتدخل لديها النبريش أو زيتون أبو طرّة.

«ما بدّي موت يا ناس!».

قال نائل إن ثلاثة من أبناء المنارة كانوا قد فقدوا أرواحهم في الحرب في نهاية ذلك العام. اثنان منهم قُتلا في المعارك مع الجيش الحر في حمص، والثالث مات برصاصة قناص في القابون. وفي الغالب كان موتهم يقابَل هنا بكثير من رصاص الحماسة، وهتافات التحدي. غير أن أحداً لم يكن يلاحظ ذلك الخوف العميق الذي بدأ يتغلغل إلى أرواح الشبان، قبل أن يعلن خالد سيف الدين هواجسه.

أحمد لديّ مصادري أبدى استهجانه لحكاية نائل. قال إن الغضب القبليّ والعنصرية يحكمان آراءه عن خالد. لم أفهم تعبير أحمد عن العنصرية. ولكنه قال إن خالد كان شديد الحماسة للمشاركة في القتال. وحين واجهت نائل بهذا الكلام، قال بليونة: «امم.. صحيح. أظن أنهم استطاعوا غسل دماغه في مرحلة ما من تطور الأحداث». ولكنه أوضح في ما بعد أن وعي الشبان الثلاثة لم يتضمن هواجس السياسة، وقد ظلوا دائماً في الحالة الطفولية التي لا تتعدى ردة الفعل تجاه تجاوزات النبريش، أو أي مخالفات أخرى من قبل زيتون وجماعته.

ولكن مصير خالد يظهر تناقضات غريبة لم أستطع فهمها. ففيما كان يحشرج في حضرة صديقيه مذعوراً من احتمال الموت في الحرب، رفض

طلب والده عدم الالتحاق بالجيش. حاول أبوه أن يمنعه بالقوة، وهدّد أن يقيّده، مغامراً بسمعته ووجوده في المنارة. وحين يِئِس الوالد من عناد ابنه، لجأ إلى عابد وحامد.

«ولك كيف بدك تروح وأنت خايف من الموت؟». نهره حامد بسطوة صوته الجهوري المحيّر. «لازم روح. وإذا كنت خايف من الموت مش معناها إني خايف من الحرب». ورفض أن يضيف أي توضيح. وبات الاثنان معطّلين وعاجزين ومرغمين على تأجيل الغضب الذي كانا ينويان مواجهته به، إلى موعد آخر. ولكن هذا الاستنتاج عذّبهما، أكثر مما أقنعهما. وزادت كآبة خالد (يظهر ذلك في قلق عينيه، وشروده المضجر الذي يبطِّئ حركة شفتيه) في صعوبة فهم ما به. وفي تلك الساعات فقط عبَر سؤال ثنائي (يخالف روح الثلاثة للمرة الأولى بينهم) بين عابد وحامد. من هو هذا الشاب الغريب الذي بدأ يهتف للحرب؟ وقد كشف لي أحمد أنه تمكّن من الحصول على رسائل هاتفية بين خالد وشخص آخر اسمه سامر عناد يحثّه فيها على الالتحاق بالجيش. ويقول أحمد إن الشابّين كانا يمضيان الخدمة العسكرية معاً.

هل فشل في الحب؟ أين هيفاء من قراره بالذهاب إلى الحرب؟

لا يتفق نائل الجوف وأحمد الشايب في أيّ تفصيل حول ذلك. وسوف أروي الحكاية من وجهة نظريهما. وأنا عاجز عن الاقتناع بأي واحدة منهما. فخالد مات، وهيفاء تركت البلد والتحقت بوالدها في الكويت.

وربما كان الغموض في موقف هيفاء هو السبب الذي عجّل في قرار خالد (أحمد يقول إن هذه الخرافة التي يكررها نائل تلحق العار بموت الشاب الشهيد، ودوافعه الوطنية).

فالبنت التي بدت في تلك السنة في أوج ازدهارها، كانت قد بدأت

تنسلُّ من اللقاءات بينها وبين خالد. كثرت ذرائع الغياب. صارت تتأخر في البداية عن المواعيد، وتختلق أعذاراً كيفية، وترفض أحياناً لوم خالد، فتغضب وتترك اللقاء، تاركة وراءها رائحة عطرها، وجمود خالد العاجز. أو تصمت وتتوقف عن الرد على أي سؤال أو كلمات تَحَبُّبٍ يمكن أن يقولها. وفي الحالتين يعجز خالد عن التواصل. كان يفكر أنه إذا زاد في تداول الكلام، قد يؤدي ذلك إلى تفاقم الزعل. وما كان يريد أن تزعل أو تشعر بالضيق من أيِّ شيء. كان يحبّها مثل عصفور، يدور حولها راقصاً، ومغرّداً، وجاهزاً لمنحها أي حبة قمح يمكن أن تطلبها. ولم يفهم، أو لم يستطع أن يستوعب سلوكها الغاضب الذي بدأ يأخذ منحى عدوانياً، يجعلها تخصّه وحده بالمصائب والعثرات والإخفاقات (من نوع تدهور درجاتها في الامتحانات النصفية للسنة الأخيرة في الجامعة) التي تواجهها. «أنت السبب!»، تقول له وهي تخترع المناسبة التي أدت إلى عجزها عن التركيز في الدراسة: «كل دقيقة بدّك تحكي معي، رن رن رن، اعتقني شويّ!». ويقسم أحمد هنا أن خالد لم يكن يفعل ذلك. وقد خشي أن يعترض ويقول لها إن رنين هاتفها يأتي من جهة أخرى، لا منه. خاف أن تترجم النفي إلى اتهام: «مين عم يحكي معي غيرك يعني؟». يصمت خلف حجاب التجاهل. وينتظر أن تكون تلك الفورات العنيفة مجرد تنفيس مؤقت عن فشل أو ارتباك.

كان يغفر لها يومياً. ويبحث دائماً عن نوافذ المحتمل الذي قد يكون وراء تعصيبها المتواصل. «معها حق. ما في شي بحياتنا سهل. كل شي بخلّيك مقهور وحزين!»، و«إذا ما فشّت قهرها فيّي أنا، بمين لكن؟». قال لأحمد. والغريب أنه لم يَشْكُ إلى عابد وحامد. ولم أستطع استنتاج أيّ معنى من وراء ذلك. فأحمد الشايب ظل على عادته الراسخة في إخفاء مصادر أخباره. غير أن خالد كان يمضي إلى صمت كئيب، مكفهرّ، مُخَمَّر

بذكرياته عن وجه حبيبته، وهي تلقي عليه عكر كلماتها. وفي إحدى المرات ظن أنها تنتقم في هذا العمر من تجاوزاته الفظّة في سنوات الطفولة. صار نائل يضحك من هذا الخبر. قال: هل يمكن أن تظل لعبة طفولة سبباً للثأر في سن الحب؟ لا أعرف. وقال أحمد إن الأمر لا يحتاج لليقين أو للإثبات في مثل هذه المشاعر. يكفي أن يحس المرء بها، ويرى الأشياء على ضوئها، ويتصرف بناء على ما يصدّق، كي تصبح حقيقة. قال إنه يسمي هذه المشاعر حقد الطفولة. «بتعرف ليش تركنا المدرسة؟»، قلت: «لا». قال: «بسبب كرهنا للنبريش». شرح لي بعد ذلك أن برهان العلمي جعل المدرسة كلّها صورة عن نبريشه المتعصّب. وأن الحقد لا الحب هو الذي نشأ عليه جيلهم كله. ولكن نائل الجوف قال إن الجيل فاسد، ويحاول تعليق فشله على عصا برهان.

في الأشهر التي سبقت امتحانات الجامعة، طلبت هيفاء من خالد أن يتوقف عن الاتصال بها: «بَدّي إقرا وحضِّر منشان الفحص. لازم إتخرّج السنة». فقال خالد بحماسته العاشقة: «إيْ، لكنْ أنا رح سكِّر هاتفي منشان ما تفكري أنت تتصلي وتلتهي عن الدراسة». لم تُجب. وظلّت تحملق في وجهه دون أن يظهر أي انفعال. فيمَ كانت تفكر؟ هل أدركت، في تلك اللحظة، فارق اللغة والتفكير والعالم بينها وبينه؟

وبسبب طبعه الخامل فقد التزم الاتفاق، دون أن يرتكب أيّ مخالفة. أغلق هاتفه من منتصف أيار، حتى منتصف تموز. وطولَ تلك الفترة التي زادت على شهرين، ظل يكرّر أمام عابد وحامد أن هاتفه معطل، وأنه لا يملك مالاً لإصلاحه. كان العذر معقولاً. فقد طارت أسعار الأشياء، مثلما يقول أحمد، وانكسرت ميزانيات المنازل، فاستسلم رفيقاه أمام أسبابه، حين كان حلُّ اللقاء ممكناً دون الاستعانة بالاتصالات. بينما كان أحمد لديّ مصادري قد عرف الحقيقة الأخرى التي جبن عن نقلها لهما، كما قال

لي، أو فرح بامتلاك سرٍّ لا يمتلكه الآخران، عن أحد الثلاثة، دون أن يتخيّل أن الثمن قد يكون صداقتهما له، كما أوضح نائل الجوف.

وفي هذه الواقعة يتفق الرجلان فقط. أي في حادثة انقطاع التواصل. لقد ظلت هيفاء تعيش حياة طبيعية، في ظل استخدامات الهواتف المحمولة المتدفقة في السنوات الأخيرة، بينما يمضي خالد أيامه في صمت تام، منقطعاً عن عالم الاتصالات، ومكتفياً بالتجوال في شوارع المدينة حين يكون في انتظار عابد وحامد، أو في أزقّة المنارة حين يكون برفقتهما. بدا سعيداً راضياً وهو يتخيّل حبيبته بين أكداس كتب الجامعة اللئيمة.

وكان هذا كله يمنحه ولعاً بالحياة. كان يريد أن يعيش، وأن يستمر في هذا الحب الفردوسي دون عوائق. ولهذا فقد كان عليه أن يواجه الحقائق الطارئة التي بدأت تضع العثرات في طريقه: ثمة خوف مقلق من تقدّم قوات المعارضة من الغرب، كآبة من تمدُّد ميليشيا زيتون، ذعر من عصابات خَطْفٍ تتسلّل إلى أطراف المنارة، وسهل الزرازير في الليل. غموض في العالم كلّه من حوله.

في تلك اللحظات التي أمضاها وحيداً بعيداً عن قراءات عابد وحامد، أحس أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعيد إليه توازنه أو يعفيه من ثقل الحيرة هو السلاح. اتخذ قراره الذي لن يخبر رفيقيه به. وبعد يومين كانت البندقية الروسية المزوّدة بستين رصاصة حية، في بيته. صار عضواً سرياً في جيش النبريش.

غير أن تلك المبادرة الخاطفة التي أنجزها جعلته يشعر بالخواء. أحس أنه يتعرّى أمام السلاح الأسود الصامت المتكئ على حائط الحجارة، وأنه يضمحل في حضور رفيقيه اللذين لم يعلما بفعلته. وقال أحمد إنه لم يجرؤ على إخبار هيفاء بذلك. ولهذا فقد بدت البندقية عصا، خردة صامتة بلهاء. لكن نائل الجوف قال إن تلك الخطوة هي التي نزعت قشرة الرضا الغبية

التي كانت البنت تتوارى خلفها. الحقيقة (على ذمة نائل) هي أنها كانت قد بدأت تشعر بفتور ضحل مريض تجاهه منذ أكثر من عام. ولم تجرؤ على مصارحة نفسها بذلك. كانت أعوام الحب الطويلة الراسخة أقوى من أن يستطيع شعور عابر (كما ظنَّت) تلطيخها أو كتم جمالها. وقد استمرت بقوة العادة، لا بوهج الحب. وقد أقلقها أيضاً جموده تجاه ما يحدث. وفي آخر لقاءات بينهما نفرت من لامبالاته.

بدا كأنه لا يرى شيئاً غير دراجته النارية، وتسريحة شعره المقنفذة، وبنطلونه ذي الخصر الواطئ. وفي إحدى المرات قال لها: «هذول المجانين بدهن حرية وحرمونا من الحرية. ما عدنا نسترجي نطلع بالليل». ثم أضاف وهو ينفث دخان سيجارته من طرف أنفه: «خرا ع الحرية!». ثم اكتشفت أنها تكره شكل شعره، وأن هذا هو في الحقيقة السبب وراء نفورها. ولكنه رفض قصّ شعره أو تغيير التسريحة، وقال إنه حرّ في هذا الشأن، وعرفت أن رائحة فمه باتت كريهة، حين اقترب بوجهه من وجهها وقال بلهجة قاطعة: «ما حدا بيقدر يجبرني على شي. أنا حر. بعمل الأشياء بمزاجي». أحسّت أنها تكاد تختنق، وانتابتها نوبة غثيان. وهذا هو سبب افتراقهما، حسب أحمد لديّ مصادري. تسريحة الشعر التي تشبه القنفذ، وخصر البنطلون الذي يزنّر الوركين، وينتفخ عند الفخذين، ثم يضيق ليمسك الساقين، ورائحة الفم. هذا التفصيل ظهر متأخراً، ومن غير المعروف لدى أحد سبب تلك الرائحة النتنة التي بدأت تتسرّب من فمه. هل هي أسنانه؟ أم طعامه؟ ولكن الشاب شعر أنه يهان، وأن البنت التي أحبها منذ الصغر تتغيّر للأسوأ. وتريد فوق هذا أن تتدخل في حياته، وتسيِّرها على هواها. وربما خطر له أنها تشعر بالفوقية (عبارة لأحمد لديّ مصادري) لغنى والدها الذي صارت أمواله تتكدس بفضل فرق العملة بين الدينار الكويتي، والليرة السورية، فزادت هذه الهواجس في تمرّده

ورفضه. وربما كانت مشاعره قد اغتنت إلى حدّ بعيد حين هتف: «أنا حرّ!». كأن تلك الصرخة قد حرّرته بالفعل. هل بات يشعر أن البنت تقيّده؟ نائل الجوف هو الذي طرّز هذه الأسئلة. ومنها أيضاً: «متى يمكن لهتاف الحرية أن يحرِّرك فعلاً؟». هيفاء قالت له بحزم: «نحنا شراكة رح نكون، وما فيك تِقِلّي هيك!».

لكنها كانت مخذولة حين عادت إلى البيت. أحست بالهزيمة لأول مرة، وظلت تتأرجح طولَ الليل في قلق القرار. ماذا تفعل؟ ولم تفعل أي شيء، واستيقظت في المساء وقد تخفّفت من ثقل الكلام، ووجدت أن في وسعها أن تصبر قليلاً على أهوائه. بينما كان هو ينطح الهواء، بعد أن تركها، وهو شبه طائر على ظهر دراجته النارية، في اتجاه المنارة. صار يسمع صرير الهواء المسرع كأنما هو صرير قلبه المتألم من تبدّلات البنت التي يحبّها، غاضباً ومتورّماً من كل هذا الجدال الذي لا ينتهي حول الأشياء التي عليه أن يقوم بها، أو تلك التي يجب أن يتركها. وفي تلك الرحلة أوقفه حاجز النرجس عند تقاطع السماقيات. كان ثلاثة من مجايليه (كانوا زملاء له في المدرسة) من جماعة زيتون، يحملون البنادق ويغلقون الطريق بمطبّات من التراب المكدس. فتشوا دراجته حتى عرَّوها. وفتشوا جسده وثيابه، ورفضوا أن يجيبوا عن سبب ذلك. وحين وصل إلى المنارة علم أن ابن سالم الوجيه قُتل في حقل الحديد وحيداً. لم يخبر عابد أو حامد بما حدث، وشعر بالنقمة على نفسه لأنه يهمل حمل البندقية، وتحدِّي أولئك. وكان في وسع سعاره أن يصل إلى هيفاء أيضاً، حين تذكر كراهيتها للسلاح.

لم تنجح الوساطة التي قام بها عابد وحامد، حين علما. كان عهد الطفولة قد ولّى بالفعل، وكان خالد وهيفاء يخرجان بعد كل لقاء أكثر نفوراً ورغبة في الانفصال. ولم يعرف صديقاه ماذا كان يحدث هناك. وقال أحمد إنهما تأخرا في التدخل.

وفي البيت كانت سهى تدعمه في الواقع. (وهذا زاد الطين بلّة، حسب أحمد) ولا بدّ من أنه سرّب إليها نتفاً من تعليقات هيفاء. وعندئذ فإن رحمة الله قد زالت عنها. قدّم لي أحمد سلسلة من الشتائم والدعوات التي أنزلتها بالبنت بلا رحمة (بالطبع. إذ كيف ترحمها إذا كانت قد دعت ربّ العالمين أن يُزيل رحمته عنها؟). منها ما هو خاص بها، ومنها ما هو خاص بعائلتها. نبشت حكاية التحقيق القديمة، وعبثت بماضي البنت. ويؤكد أحمد أن شخصية بشير البستوني (وهو شخص ادّعت أن لهيفاء علاقة به) مختَرَعة تماماً. فهو، حسب كلامه، من سكان مدينة السويداء، والظاهر أن بيته يجاور بيت آل الكافي هناك، وأن الرجل معروف بسوء أخلاقه، وتحرّشه الوقح بالنساء. ولكن سهى تقول إنه تمكن من إغواء هيفاء. هذا هو الادعاء الأول الذي غيّرته سريعاً، وزعمت أن البنت هي التي أغوته. وكان لديها شهود زور مزيفون، وقرائن من شكل الثياب التي ترتديها هيفاء: القمصان التي بلا أكمام، وبنطلون الجينز الضيق، وعري البطن الذي قد يظهر عند حواف الزنار، والاستعداد للكلام مع أي شخص. ولا يعرف نائل الجوف ما هي الوعود التي قُدّمت له، أو كيف رضي أن يتخلى عن هيفاء. وهذا هو أحد أشكال الخلاف بينه وبين أحمد في الرواية. نائل يقول إن خالد هو الذي انسحب من الحكاية، وإنه استعاد في الحقيقة مزاج طفولته المعبّأ بإبر الزراقط والدبابير. وإن سهى هي التي شجعته، لأنها لم تحب تلك البنت أبداً. غير أن المسكينة حين سمعت أنه سيذهب إلى الخدمة كادت تجنّ، وراحت تشتم نفسها علناً، وتضرب وجهها، واعترفت له أن كل ما قالته كان تلفيقاً وكذباً. وأنّ هيفاء بريئة من جميع التهم. ولكن خالد قال لها: «يلّي بيني وبين البنت خرب بمكان ثاني»، كي يبرّئها من وزر انفكاك حبّهما، دون أن يفهم أن رعبها آتٍ من قراره في الذهاب إلى الحرب.

كان الأوان قد فات.

المكان الثاني الذي يشير إليه خالد، حسب نائل الجوف هو فقره. بدأ المستقبل في تلك السنة يضع نفسه في الطريق. كان في وسع المال أن يضمن المستقبل، ولكن كيف يستطيع الحب أن يفعل ذلك؟ ولا بدَّ من أنها سمعت خالد يقول ذات يوم إنه لن يقبل أن يعيش من مال أحد. أعجبتها رصانة قراره، وشجعته قبل ذلك على الاشتراك في مشروع لزراعة البصل، اتفق عليه مع عابد وحامد، في الحقل الغربي المجاور لثكنات الجيش. وقالت إنها مستعدة للمساهمة في تمويل المشروع. كان أهل المنارة يحجمون أو يهابون الآن العمل في أراضيهم التي تجاور الثكنات. وقد ذُعروا من أيام المعركة الكبيرة بين الجيش وألوية الحرّ في جوار قلعة اللبن. وعندئذ تركوا معظم أراضيهم هناك بوراً. وعندما عرض الشبان على فيصل الجمال أن يزرعوا أرضه، وافق بلا تردد. فإذا كان الموسم جيداً فهو الرابح، وإذا خسروا لا يهمّه.

غير أن الأذى لم يأتِ من السماء، وقد أحسنت في ذلك الشتاء سقاية الأرض، حين هطلت الأمطار طولَ أشهر الشتاء. وسرعان ما ظهر البصل في أثلام الأرض التي فلحوها على حمير مستعارة. خطوط خضراء من الأوراق الرفيعة المنتصبة القامات على طول تلك المساحة البنية من التربة الحمراء. وفي منتصف الصيف داسوا سيقان البصل قبل أن تنمو الزنابق التي يمكن أن تخرّب الثمار.

وقبل أن يقلعوا محصولهم بيومين، سُرق كلّه تقريباً. لم يترك اللصوص لهم سوى رؤوس ناحلة مرمية في ذلك الحقل الترابي الذي شوته شمس تموز. اختفى البصل كلّه، ودُهس الحقل بعجلات السيارات، فلم يظهر أي أثر في المكان. وحين التقوا بلديّ مصادري صار يهزّ رأسه منكراً أن يكون قد علم أي شيء. ولكنه قال لي إن عصابة محمود جرّار هم الذين أخذوا البصل. وقدّم محمود في اليوم التالي دعوى في المحكمة يتهمهم

فيها بسرقة كتب ميخائيل نعيمة من بيت والده. قال حامد إنه لن يعيد الكتب أبداً. وسوف يأخذها معه إلى السجن إذا اضطُرَّ إلى ذلك. ولكنهم رفضوا بعد ذلك المثول أمام المحكمة. ولم يأتِ أحد من الشرطة لأخذهم «موجوداً» إلى المحاكمة. كان محمود جرّار في تلك السنة يقود عصابة من المسلحين المراهقين الذين استلموا الأسلحة من مخازن العقيد ماجد الهلالي. وقد أراد أن ينتقم من عابد وحامد وخالد، بعد أن عرف أنهم دمروا حاجز رقّة الصقر الذي ابتكره لتشليح المسافرين في الليل.

لم يكن يجرؤ على التحرش بهم، وبدت الأسلحة التي يحملها رجاله عصيّاً خرقاء أمام شجاعة الشبان، وقدرتهم على اقتحام المعارك. ولهذا فإن سرقة المحصول بدت أكثر قدرة على تخريب الحال من أي مواجهة أخرى. ولكن الشبان لم يعرفوا هوية اللصوص أبداً، ولم يشكوا إلى الشرطة. فرجال الشرطة الذين لم يأتوا للقبض عليهم من أجل المحاكمة، لن يأتوا من أجل حقل من البصل. كان أحد عناصرهم قد اختفى من قبل في جورة الدحنون. وعلى الرغم من أن نائل قال إنها مجرد رواية للرعب والذعر والتخويف من بطش المقاتلين في الجانب الآخر، فإن أحمد قال إنها حقيقة. وإنه يعرف اسم الشرطي، إلى جانب أنه عرف متأخراً أسماء اللصوص جميعاً. كان عابد وحامد وخالد قد ماتوا جميعاً حينئذ، وليس لديه من يحميه. ولكنه تجرأ على البوح بها، وذكر لي أسماء أولئك الذين نهبوا حقل البصل كلهم على ورقة كتبها في بيتي. لا يهمّ - قلت له - لا معنى للأسماء. فقال إن ذكر الأسماء يمنعها من أن تُنسى.

ازدادوا فقراً بعد نكبة البصل. وقد صمّموا على زراعة حقل آخر بالقمح. ظنوا أنه لا يمكن سرقة القمح بتلك السهولة، دون أن يروا خُطا القدر التي كانت تقترب منهم خطوة بعد أخرى؛ إذْ أحرِقَ الحقل في حزيران التالي قبل أن يحصدوه. خرج الفلاحون يجْرون لإطفاء الحريق، ولكنهم عادوا

سريعاً حين سمعوا صوت الرصاص. وبسبب الدخان والذعر لم يعرفوا مصدر الطلقات. فيما راح شبان من جماعة زيتون يصرخون: «اهربوا! اهربوا!».

ومن بين الثلاثة كان خالد الوحيد الذي بدأ يوقن أن المعاندة بدأت تأتي من القدر، أو من الله نفسه، لا من العصابات التي انتشرت في المنطقة. وربما كانت سهى هي التي ردّدت أمامه مثل ذلك. وكانت مذعورة من طيش عابد على الأخص، وعنف حامد الذي تكره أمه. والغريب أن يؤيد نائل الجوف الكلام عن تدخلات القدر.

فحين عرف عابد وحامد حكاية هيفاء كان الوقت قد فات أيضاً. هذه هي إرادة تلك القوة الخفية التي ستكون قد وضعت نهاية مبكرة لحياة أولئك الشبان - قال لي - إذ كانت هيفاء قد سافرت إلى الكويت كي تلتحق بأبيها بعد تخرّجها في الجامعة. قال نائل إن الفرق بين سفرهم إلى السويداء، ورحيلها، ساعات. فقد وصلوا إلى بيتها في التاسعة صباحاً، بعد أن عجزوا عن الاتصال بها، حين كان هاتفها مغلقاً. وكانت قد سافرت إلى بيروت في الخامسة صباحاً من اليوم ذاته. قرعا البوابة المقفلة المجنزرة بالحديد بضع مرات، واستمرّا في المحاولة، إلى أن خرج رجل قصير القامة، أشيب، يرتدي قبعة كاوبوي، من بيت مجاور، وقال: «سافروا الجماعة يا شباب. راحوا ع الكويت».

وبقدر ما أحبطهما الأمر، شعرا بالخيبة لأنها لم تودّعهما أيضاً. بدا هذا باهظاً. ولم يدركا معنى تلك النكبة إلا حين عرفا أن خالد قرر الالتحاق بخدمة الاحتياط. ولكن القدر لم يكن يعنيهما بأيّ شيء. وخامرهما، بدل ذلك، خوف من فقده، ونسيا هيفاء في ذلك المساء. وحين زارا خالد كانا ينويان إرغامه على تغيير قراره. ولكنهما وجداه ينشر قمصانه المغسولة على حبل غسيل وهو يردد مقابل كلّ ملقط: الحرية. الحرية. ولم يفهما

شيئاً مما يقوله. ولاحظا أن القمصان كانت تطير عن الحبل على الرغم من وجود الملاقط. وكان خالد يجري خلف القميص ويعيده إلى الحبل، بعد أن يزيد جرعات الملاقط. ويردد: الحرية. كانت هيفاء هي التي رددت الكلمة أمامه بلا توقف طولَ السنوات الماضية، فيما كان يقول لها إنه كان حراً دائماً، وهي تقول لا. لا؟ لماذا لا؟ وحين وصله الاستدعاء، قالت له: «لا تروح! هذي حرب رخيصة مثل قشر البصل». وعندئذ ربما يكون قد قال تلك الكلمات التي ستفضي إلى موته: «أنا حرّ أني روح أو ما روح. مش هيك؟». وقد وقفت أمام الكلمات مبهورة. ولم يكن لديها أي معجم يمكن أن تسلك فيه درباً للنجاة. وظلت محبطة على حدود إحساس عميق بأن شيئاً فظيعاً سيحدث بسبب عجزها عن التعبير.

وعلى الرغم من أن نائل الجوف قال إنه لم يسمع بهذه المحادثة التي يرويها أحمد الشايب، من قبل، وإنها لا تشبه خالد سيف الدين. فقد قال: «شفت؟ هذه هي الأقدار». قال نائل إن خالد قرّر أن يتحدى هيفاء بالفعل، وإنه حين أقسم أمامها أن يفعل ما يريد، وألّا يسمح لها بحجز قراراته، إنما كان في الحقيقة يرى عابد الجوف أمام عينيه. وأدرك أن عليه أن يثبت لنفسه أو لهيفاء الآن، أنه قادر على اختيارٍ حرٍّ يقرره بنفسه، حتى لو كان سيختار الحرب ذاتها. دون أن يكون معنيّاً بأيّ شيء منها. ولأنه كان في هذا الجانب، وأن اسمه جاء من هذه الجهة، فعليه أن يستجيب لما تقرّره الأقدار. قال أحمد إن خالد أراد أن يثبت لنفسه وحدها أنه حرّ أمام الفتاة التي يحبها.

وسيكون عابد قد ارتكب واحدة من أخطائه المزمنة أيضاً في مواجهة العناد. حين قال لخالد: «خلص روح!». وهي الجملة التي ستسبِّب هزّة في جسد خالد، وشقاءً في روحه، وعطباً عميقاً في يقينياته. هل كان ينتظر أن يرغمه صديقاه على البقاء في المنارة؟

قال أحمد الشايب: هل تعرف كيف مات؟ لم يكن يسألني في الواقع، بل يروّضني على التشويق. كان أحمد يخوض معركة مع نائل الجوف على الحكي. ولهذا كان يعمل على جمع كل ما يستطيع من وقود الجذب والغواية ليستقلّ بالرواية. ودون أن ينتظر جوابي بدأ يروي لي خطوات خالد نحو الموت. منذ اليوم الأول لوصوله إلى مركز تجميع الجنود، أخذوه في سيارة عسكرية إلى مشارف تل الغربان. قال أحمد إن التل يشرف على بادية جرداء تنتهي ببلدة لا يعرف اسمها.

تلك الأيام كان يقود الكتيبة ضابط ناحل طويل القامة، يقدّم لهم كل صباح خطاباً عن الشهادة. لم يكن يذكر الموت أبداً، ففي وسع الجندي أن يصل إلى الشهادة دون أن يموت. كان صوته الجهوري يضيف إلى الخطاب تحفيزاً مسحوباً من تراث الأهل والوطن والتاريخ العربي. وفي الساحة كان الجنود يصرخون: «قوة. شرف. وطن!». يرفع المقدّم يده علامة الانتصار، ويؤدي لهم التحية.

وبينما كان خالد يعود إلى خيمته مدجّجاً بخطاب الحماسة، قال جندي صغير القامة، سمين، يدخن بلا توقف: «شيل من راسك كلّ شي عم يقوله هذا الخنزير!». ارتجف خالد. شعر أنه محاصر وسط الدخان المتصاعد من الفراش الملاصق له. اقترب الجندي منه، وقال له إنه هنا منذ سنة، وفي كل مرة يعود من أي معركة حيّاً، يشعر أنهم يحتقرونه. لماذا نخسر الرصاص إذاً؟ وقد أفهمه جندي سابق مات في معركة الوادي أن المقدم مهووس بجمع هويات الجنود المقتولين. مفتون بأرشفة الموتى. إما حسب تاريخ الموت، أو حسب أبجدية الكنية، أو حسب أحرف الأسماء. وفي كل معركة لم يكن يهتم بالنتيجة، بل بالعدد. كان أرشيفه مصدر فخره. وفي إحدى المعارك عادوا بأحد القتلى بلا هوية، فأخذ يضرب الجنود الذين يحملون الميت بعصا من الخيزران كان يتباهى بها. «بدّي الهوية».

وأرغم أربعة منهم على العودة إلى المكان الذي قُتل فيه زميلهم، والبحث عنها. فرّ اثنان منهم. اختفيا في بادية معطلة قفراء لا ماء فيها. وهذه المرة لم يرسل أحداً للبحث عنهما. وفي كل صباح كان يخرج ويراقب المدى اللانهائي الذي اختفيا وراءه. ثم ما لبث أن أرسل عدة بعثات من الجنود صغار السن لاستكشاف التلال، آملاً أن يعثروا على جثتيهما، وقد قتلا، أو أكلتهما الذئاب، التي لا تعبأ عادة بالتهام تلك البطاقات البلاستيكية المقدسة.

كان يأتي بأرشيفه أحياناً إلى اجتماعات الكتيبة، ويرفع بطاقة أحد الراحلين قائلاً: «هذه أنتم. أجسادكم تفاهات ينتظرها الدود أو الطيور، وعظامكم سماد للتراب، وأسماؤكم تحترق في الورق. وتبقى هذه».

الراجح عند أحمد لديّ مصادري أن تلك الكلمات قد استهوت خالد. جذبته نفحة حنين إلى ذلك الغامض المجهول المعبأ في قطعة صغيرة تغلف الكلمات التي تخصّ البشري، وتبقيه أو تحنّطه إلى الأبد في إطارها. كان ذلك الضابط قد تغلغل في دمه تقريباً، بالصوت الملائكي (الشيطاني المتَحدِّر من عزرائيل ذاته، كما قال أحمد) المنساب في سفوح تلال بادية الشوك. وفي واحدة من لحظات استفحال انجذابه إلى صور المقدم. ويجزم لديّ مصادري أنه كان يتخيّل هيفاء أكثر مما رغب في إرضاء المعلم. هناك في غربتها البعيدة، سوف تظل محتفظة بذكراه وهي مرغمة. لا يمكن محو هذا الوجود المتجسد في هوية حيّة لجسد ميت.

وهكذا أوصى رفيقه ذات يوم (قال الجندي، الذي ظل حيّاً، إنه لم يتخيّل أبداً أن في وسع أحد أن يؤبّن نفسه بمثل ذلك الخيال) أن يوصل هويته التي غلّفها بقماش وردي شبيه بأقمشة التمائم لهيفاء، أو لأحد رفاقه. وقد كان أحمد الشايب في ذيل القائمة التي لم يجد ذلك الجندي حين عاد من الحرب أحداً من الأسماء المذكورة فيها سواه.

غير أن نائل الجوف سخر من هذه الترّهات - كما سمّاها - وقال إن بقاء أحمد في الريف كلَّس خياله. وإن ما يرويه ليس أكثر من خيال فقير يخلو من أي تفكير. كان نائل يتهم شبان الريف هنا جميعاً بعجزهم عن رؤية الحقائق. فإما أن يشتطوا في خيال وضيع فالت من كل منطق، أو يحبسوا أنفسهم في جغرافيا الوقائع التي لا تزيد في مساحتها عن دائرة قرية. ولكنهم في النهاية يقسمون العالم إلى جهتين: الأولى هي الخيال العجائبي، وهو كل الموجود خارج الجغرافيا الصغيرة، والثانية هي وقائع المساحة التي يتحركون بداخلها.

قلت له إنه وضع مصائر الشبان الثلاثة في عهدة القدَر أكثر من مرة، فقال تلك مسألة أخرى.

*

آخر مرة سمعا فيها صوت خالد كانت بعد سفره بخمسة أيام. أخبرهما أنه بخير، وهو يأكل البرغل، ويسمن. بدت المكالمة مشفّرة بلا نبض. لم يكن خالد هناك. بل صوت ضحل فاتر مرتجف. ثم انقطعت أخباره وراء نشرات الأخبار الحربية. لم يكن أحمد متأكداً ممّا إذا كان أحد الضباط قد انتزع الهاتف منه، أو أنه أغلقه مختاراً. وفيما ظلا يستمعان إلى التسجيل كل ليلة، راحا نهاراً يعملان معاً في ورشات البناء في المدينة. كانا يعرضان خدماتهما على المقاولين، وأصحاب المهن، ممن يحتاجون إلى حرّاس يحمون المنشآت، ويضمنون عدم سرقة المواد المخزنة فيها.

كان منظر الشابّين يمنح حضورهما قوة فعل سرية تكفل قبولهما في أي عرض. وبفضل ذلك اختارا أمكنة الحراسة بعناية. كانت المدينة قد تحوّلت إلى ورشة بناء عقاري في تلك السنة. وسرعان ما تحوّلت إلى مجمعات أشباح بعشرات البنايات الفارغة المتجاورة التي تزيد عن حاجة

سكّانها بمرّات. وهو مناخ طيّب للزعران من جهة، والحراس من الجهة الأخرى. ولكنهما لم يحاولا ابتزاز أولئك الذين كانوا يخشون من أن تتحوّل أبنيتهم الفارغة إلى أوكار دعارة، أو مخابئ حشيشة.

أخذا بناية في حي التلال أولاً، وأعدّا غرفة في الشقة الأرضية، بحيث تصبح صالحة للبقاء. كانا في كل يوم يكتشفان ليلاً ثغرات الضعف التي يتسرب منها البرد أو الريح، فيصلحانها نهاراً بحشوة من الحصى المجبول بالأسمنت. كانا يذهبان نهاراً إلى وسط المدينة، ويشربان القهوة في المقهى الذي كانا يلتقيان فيه بهيفاء وخالد، ثم يشتريان ما يحتاجان إليه من طعام. وعند العصر يعودان إلى الغرفة بعد أن يكون قد انصرف العمال، أو يذهبان إلى المنارة لرؤية حليمة، وتزويدها بما تحتاجه. أحياناً كانا يظلان في الغرفة طول الوقت. ويمكن أن يستضيفا أحد العمال، فيتحدثون عن الحرب.

لكنهما سرعان ما شعرا أنهما يتعفّنان. كان الملل يتكدّس في أيامهما ساعة بعد أخرى، وبدت الأشياء ضحلة وفاترة في تتابع الأيام التي خلت من الناس حولهما. لم تكن المدينة كما خيِّل إليهما، حين قررا الانتقال إليها، تعويضاً عن الفراغ الذي طغى على حياتهما بعد غياب خالد، بل مجرد إخفاق آخر في التأقلم. وقد كشف المكان الذي لا يعرفان فيه أحداً أن قرارهما مرتجل وخالٍ من المعنى. ففي كل مكان أو منعطف أو شارع، كان خالد يظهر بكامل حضوره كي يزيد في وحشة العالم. ثم بدأ يظهر في الأحلام. وزاد في الرعب أن حلماً واحداً تسلل إلى نومهما في الوقت نفسه. كلاهما حكى للآخر أنه رأى خالد مضرّجاً بدمائه، وكان يطلب المساعدة. فكر عابد أن أحلامه بدأت تتسلل خارج دائرة رأسه المقفلة. تشاءما من الرؤيا، وكرها المكان أكثر حين اكتشفا أنهما كانا ينطران بناية قريبة من دار هيفاء. لحظا البيت حين صعدا إلى الطوابق العليا. هناك في

الخلف كان البيت راقداً وحيداً ومعرّى وسط كتلة الأبنية التي نهضت على أنقاض البيوت المجاورة له. قال أحد البنّائين إنّهم سيهدمون البيت في الشهر المقبل. يجب أن ينتهوا من أعمال الحفر قبل الشتاء.

لم يتخذا قرار العودة في تلك اللحظة. ولم تنفع الدراجة النارية التي اشترياها في شفائهما من أي داء. بالعكس، انخرط كلاهما في نشيج جنائزي دنف حين تذكّرا أنها كانت أمنية خالد. وعلى الرغم من أنهما اعتبرا البكاء شؤماً، فإنهما عجزا عن كبحه. وحين قرّرا أن يزورا المنارة، بعد ستة أشهر من العمل في المدينة، عرفا أنهما لن يعودا إليها أبداً. لم تكن الكراهية هي السبب، بل تلك الكمية الهائلة من الولع بالمنارة، من عسر العزاء، من إحباط الخسارة الذي لم يستطيعا دفعه، بعد ذهاب خالد. كانا يمشيان كما لو أن قطعة من جسديهما قد اقتلعت وغابت. يجلسان كأنما في فراغ أجوف معتم ناقص. وحين يحدِّث أحدهما الآخر لا ينظر إليه وحده، بل يلتفت بين لحظة وأخرى، إلى ناحية ما، بحثاً عن الثالث الغائب.

وحين وصلا إلى المنارة، عصر يوم السبت الأول من شهر تشرين، كانت البلدة تسبح في سديم من غبار خريف حارّ يفيض على السهل الأجرد، والتلال الباهتة، وطحالب الصخور البيضاء والحمراء. بدا المشهد جنائزياً أكثر من أي وقت مضى.

لم يكن لديهما كثيرٌ من المال. بضعة آلاف ادّخراها من عملهما في الحراسة. كانا يعلمان أنها سوف تتبدّد في مباغتات الأسعار التي كانت تلتهم الحياة اليومية. وفي تلك الأيام عاد محسن الجوف يفكّر في ابنه من جديد. وربما كان أحد ما قد دسّ في رأسه أن جيب عابد يمتلئ بالنقود. هذا مرجح في رأي نائل الجوف الذي بدأ يقول إن رغبات الانتقام والتأديب التي كانت تهيجه قد اضمحلت تماماً. كان محسن قد أضحى مدمناً على العرق، وقد تآكل راتبه الشهري بسبب التقاعد. ولم يكن ما يملكه يكفي

قوت أسرته التي ظل منها ابنة وحيدة، هي منار التي تصغر عابد، بينما ترك الابنان الأكبران البيت، وسافرا إلى بيروت. وبمساعدة الوشاة (قال أحمد إنه لم يعرف من الذي كان يفعل ذلك) تمكّن من الاستيلاء على الحوالات المالية التي كان الولدان يرسلانها لأمهما. كانت تصلها كل بضعة أشهر حين يعود أحد شبان المنارة من بيروت، فيسطو محسن في اليوم التالي على مخابئ لوزيّة، زوجته. الحقيقة هي أنه لم يحتج إلى العنف مرة واحدة، فبفضل حدس عميق مجرّب، تمكّن دائماً من العثور على تلك المخابئ: حمّالة الثديين، كتاب الحكمة، بطانة الحقيبة القديمة. كان يأخذ النقود دون ضجيج، ويمضي إلى خمّارة محمود جرّار، ليشرب وحيداً في ركنه الصغير المجاور للنافذة التي تطلّ على السهل.

كان رواد الخمارة من الشباب يتجاهلون وجوده دائماً، غير أنهم أرغموه على الخروج من المكان أكثر من مرة، حين كان ينشج هناك. كان صخبهم عاجزاً عن رؤية الدموع أو سماع النحيب. ومعظم من كان يرتادها هم من المترفين الجدد الذين أثروا بسرعة بعد انضمامهم إلى عصابات التهريب.

قال أحمد إنه لا يعرف أيضاً طبيعة البضائع التي يهرّبونها بين السويداء ودرعا. فالثراء كان أكبر من تنكة بنزين أو برميل مازوت. ماذا تظن؟ سألته. قال: لا أعرف بالضبط، لم أستطع الحصول على المعلومات من أي جهة. وخيالي متردّد أمام البضائع التي تجلب الثروة. هل كانوا يتاجرون بالمخدرات؟

وفي إحدى المرات التي أخرجوا فيها محسن الجوف من الخمّارة، وتركوه في الشارع، شوهد يترنّح في طريقه إلى بيت حامد أبو الليل (بيت حليمة حسب معايير أهل المنارة). كان يحدّث نفسه، ويهدّد أولئك الشبان علناً.

كلُّ من سمعه من أهل المنارة الذين التقوا به، ذكرَ أن الاسم الوحيد الذي كان يتلفظ به هو عابد. صار يحكي كيف أنه سوف يأتي حاملاً عصاه ليضرب أولئك السكارى الطائشين الذين يرغمونه على الاختناق بخمرته، كما لو كان مبتدئاً. (لم يرغمه أحد، وليس في وسع أي شاب أن يفعل ذلك مع محسن الجوف، عدا القيام بمسابقات من نوع: كم كأساً تستطيع أن تكرع؟). ويقول لمن يقابله: «رح تشوفوا كيف!». كان المشهد أمامه متجسداً بحيث لم يبقَ سوى أن يعيد تحريكه.

غير أنه لم يذهب إلى بيت حليمة. أخذه شخص ما من الطريق فجأة، واختفيا معاً بعد ثوان من لقائهما. ويبدو أن محسن صمت تماماً حين رآه، إذ توقف عن الصراخ أو الغناء أو الشتائم، وسار برفقته دون اعتراض في الطريق الشرقية التي تمضي نحو الوادي الشتوي. اختفيا سريعاً خلف شجيرات الريحان، وتلاشت خطواتهما.

من كان ذلك الرجل؟ نائل ينفي أن يكون جميل الصخري، كما أكد لي أحمد الشايب. لا أحد في تلك الديار يستطيع أن يقود محسن الجوف في مثل ذلك الموقف سوى ذلك الرجل. لم أفهم سبب القهقهة التي أطلقها نائل. ضرب كفّاً بكفّ، وقال وهو يهزّ رأسه: «يا ألله!».

ومنذ ذلك اليوم اختفى محسن تماماً. ولم يفعل عابد أيَّ شيء للشبان السكارى الذين واظبوا على العربدة في ذلك الوكر المشغول على يد الثعلب محمود جرّار. وفي المقابل لم يذكره أحد، ولم يتصل أحد بأهله، ولم تتصل لوزية به، مستنجدةً كي يبحث عن أبيه.

قال نائل إن الأمر كله بدا محيِّراً لعابد نفسه. ما الذي حدث هناك في الطريق الشرقية المحاذية لسرير النهر الجاف؟ ومن الذي يستطيع أن يلجم شدقي محسن الجوف الذي يقتات من العنف؟ ولهذا قرر أن يتسلل إلى المنزل، ليتأكد بنفسه من مدونة التبدل التي طرأت على ذلك الرجل.

مضى إلى الوعر المحيط بتل القواسم من جهة الشمال. ومن هناك عاد ليلاً، عبر درب الكلاب، ثم تسلق حيطان حواكير آل الجوف واحداً بعد آخر، بخفَّين ملفوفين بالخرق. وتمكّن من الوصول إلى البيت من تلك الجهة دون أن يراه أحد. تلك الليلة، كما يمكن أن يحدث في الأيام المقبلة، بدا له كيف يمكن أن تلتزم القرى نكبةَ الحرب التي تحدث في البلاد. كان الجميع يأوون إلى بيوتهم بعد أن يخيّم الظلام. لا أحد يسهر تحت شجرة أو دالية. لا أحد يسرد حكاية. لا أحد في الشوارع. لا أثر لدخان سيجارة رجل يبحث عن سهرة. لا همس عجوزين يدبّان في زقاق. بدت المنارة خواء مكان، رماد بشر موتى تحت وطأة حرب غامضة لا ترى (إلا في نشرات مستعجلة يعلنها مذيعون متأنقون في محطات ملونة). ومن أعلى سطح المنزل استطاع أن يميّز بيت هند الخرّوب المدفون في نور شحيح مترمد في ظلمة البلدة. هناك تمضي هند، كما يمكن أن يتخيّلها، وحيدة قرب راديو صغير تدير إبرته بحثاً عن أغنية ما. ما الأغنية يا هند؟

وحين وصل كان الكلب في انتظاره. لحس قدمه وساقيه، وقفز إلى خاصرته. قال: «هس». مسح رأسه الدافئة وقال: «خلّيك هون. لا تتحرك». فاستلقى الكلب راضياً. كانت غرفة المعيشة مضاءة بشمعتين، هناك تجلس أمه وأخته. لم يكن لمحسن أيُّ أثر. تفقّد المضافة والمطبخ وغرفة المؤونة، وتسلل إلى دهاليز التبان. وعندما لم يعثر على رائحة محسن التي تشبه رائحة الصدأ، عاد إلى باحة الدار. تأمّل أمه وأخته مرة ثانية، وهو يستند إلى جذع شجرة التوت.

قال لي أحمد الشايب إن عابد عاد من تلك الزيارة الغامضة هالكاً، وطولَ تلك الليلة لم ينم. وفي الصباح أخبر حامد أنه عثر في طريق عودته على رسائل جميل الصخري التي كان يوجّهها لمحسن في ما مضى، وأن محسن كان يرمي كلمات الصخري من فوق السور الحجري إلى

حواكير آل الجوف. كانت الجمل والعبارات والكلمات مبعثرة هناك تحت الأشجار، وبين الحجارة المكومة، وبجانب الحيطان. بعضها يعلق بالأشواك، والآخر في شباك الأغصان، وغيرها وجدت مأوى لها على وسائد من ورق التين. وقد أمضى تلك الليلة في تنظيفها، ومسح الغبار عنها، وإعادة ترتيب القصاصات والأحرف، ومحاولة معرفة المفردات الغائبة التي امَّحت بسبب المطر أو الحر أو الخنافس. بعض تلك الأوراق كانت تمتلئ بكلمات الحكمة والموعظة والتعاطف والرغبة في إسداء النصيحة. ولكن كلمات كثيرة أخرى كانت تلحّ على محسن كي يقطع صِلاتِه الطارئة مع النبريش. لماذا يا ترى؟ قال أحمد إن برهان النبريش كان قد بدأ مشروعاً ضخماً في أثناء الحرب، أطلق عليه اسم: «تعمير»، فبدلاً من أن تتاجر بأثاث البيوت المنهوبة من المدن والقرى السورية، وأنت مكشوف الظهر والصدر واليدين، يمكن الاستعانة بالخبرات الماهرة في إعادة بناء تلك المواد التي ينهبها المتقاتلون. يمكن للنجارين والحدادين والمنجدين إعادة تدوير تلك المواد القادمة من أي مكان. فكرة النبريش هي تغيير الهوية. حين تبدل هوية خزانة، فأنت تسحبها من اسمها القديم، وتعدّل في وجودها. وبدلاً من أن تحفظها في سجل المسروقات، تنظمها في لوائح الترميم وإعادة التدوير. بعد ذلك لن يعرف من هم أصحابها الأصليون، ومن أي بلدة جاءت.

كانت فكرة النبريش التي سجّلها في دفاتر اجتماعات الجماعة، أو في سهرات عزاء المنارة بأبنائها المقتولين في الحرب، أن النهب والسلب قاعدة تاريخية لا يجوز المبالغة في هجائها. وأن العرب سمَّوها الغنائم. وهذه تسمية راقية وملهمة، ويمكن أن نسميها متروكات. منسيّات. وكان يلوم الناس الذين يتركون بيوتهم، أو يهجرونها. لماذا؟ من الذي أجبرك على الخروج؟ لماذا لم تنتظر الجيش المخلص؟ وفي كل الأحوال، فإن ما

يفعله الجنود في الجيش (ولا تنسوا أن المقاتلين في المجموعات المسلحة ينهبون أيضاً)، لم يكن سلوكاً قومياً أو وطنياً يخصّ السوريين وحدهم، بل فعل عالمي نفّذه آلاف الجنود في كل الحضارات تجاه المدن المحتلة. وقد يشمل هذا الأمر مقاتلي الديانات الذين لم يتورَّعوا عن نهب ثروات الأرض بينما كانوا ينشرون رسالة السماء. قال النبريش أيضاً إن ما تفعله أسرته هنا في المنطقة، (هذا هو الاسم الجديد الذي منحه للميليشيا) عمل تجديديّ يفسح للمناكفين الذين يرفضون شراء البضائع بذرائع منافقة عن الحرام والعيب والظلم وإلى آخر ما هنالك من ترهات، مساحة أخلاقية مناسبة لتنفيس الرياء والكذب.

وتقول الرسائل إن محسن الجوف عمل في ورشات البناء التي بدأ يبنيها النبريش في السويداء، وإن النبريش كان يتجاهل وجوده دائماً، حين يأتي للإشراف على مشاريع البناء. وربما لم يردّ على تحيّته. كان مشهد محسن الضخم، ذي عضلات الصخر، يستفزّ حضور النبريش كلما التقى به. لا يعرف زمن كراهيته له. وفي إحدى زياراته إلى بناء يتم تشييده، طلب منه أن يُحضر له علبة بيبسي من المحلات المجاورة. فنظر إليه محسن بعيني العقاب اللتين كانتا تثيران الرعب في أي خصم يمكن أن يفكر في التصدي له، وقال له دون أي تردّد: «روح أنت ولك!». ولم يزد كلمة. كان ثلاثة عمال موجودين هناك. طأطؤوا رؤوسهم، وتجاهلوا الموقف، فيما ارتعدت عظام العلمي كلها. كانت الصورة التي أدرجت في مخيّلته أنه بات، منذ تلك اللحظة، أسير النظرة التي خبأت الحقد، وغضب الروح التي كسرها الفقر. لم يعد في وسعه أن يعتذر. كانت البواريد التي يسيطر عليها تعقد حوله هالة قوة مخزّنة، تمنحه القدرة على إلغاء الاعتذار من حياته. ولكن البواريد لا تستطيع أن تحمي الخوف أو الجبن أو الخشية أو التردد، أو أي مشاعر جوانية تستقر في العظام، أو القلب. كما تقول رسائل

الصخري، وقد أثارت جملة الرد التي واجه بها محسن الجوف النبريش شوقاً خفيّاً إلى الأب.

ويعتقد نائل الجوف أن محسن ذهب في ذلك اليوم بالضبط، وتمشى في الشارع أمام دكان عابد وحامد (التي سوف يفتتحانها في ما بعد)، وأنه كان ملثّماً بشماخ أسود لا تظهر منه سوى عينيه. لم يدخل إلى هناك، وتوارى خلف سيارة مركونة في الجانب الآخر من الشارع، يراقب الولدين وهما يتحركان خلف الواجهة الزجاجية بين بنات الكحل والحمرة والعطور. كيف تتخيّله الآن؟ قال نائل الجوف إن ذلك الرجل العجيب قد استطاع أن يسلّط امرأة قوادة على محسن الجوف كي تغويه، ثم أرسل الجواسيس الذين تسللوا إلى البيت وصوّروا محسن في أوضاع مُذلّة مع المرأة السمينة. معقول؟ سألت أحمد. هل صار النبريش قادراً على تنفيذ أعمال تجسسية من هذا الوزن؟ فضحك لديّ مصادري، وقال إن النبريش حاز أمرين معاً: الأول هو إنشاء خلية يسمّيها «الخميرة»، لأغراض التجسس على الناس. والثاني إنشاء علاقة مع المرأة ذاتها.

داست المرأة على فم محسن، وأرغمته على شرب العرق من أصابع قدمها.

- ولمن أرسلوا الصور؟

- مش صور أبداً. كانت أفلام سكس. وكان محسن عامل فحل ثور... عم تتخيّل؟

لا أعرف محسن الجوف جيداً، ولكن يمكن أن أتخيّل رجلاً مليئاً بالعافية وهو يدبّ ويخور بينما يتدلى قضيبه بين فخذيه.

- شفت الأفلام يا أحمد؟

- ما في ضرورة. لديّ مصادري.

لا يعرف عابد هذه التفاصيل، ولا يعرفها جميل الصخري الذي أراد سحب محسن من مصيدة النبريش. غير أن الرجل ظل هناك. وسرعان ما راح يشرب العرق بلا توقف، ويدخن طول الوقت. وحين تسأله لوزية عن التغيّر في مزاج التدخين مثلاً، كان يقول: «لازم نحرق الوقت» أو: «هذا زمن بلا صاحب». جمل من هذا النوع الخنفشاري الذي يردّده الكهول الخاسرون، أو ملّاكو الدكاكين.

اختفاء محسن الجوف أثار قليلاً من الاهتمام في المنارة. وقال نائل الجوف إن السبب هو تلك الأخبار التي كانت تتكدس في كل المنطقة عن أعمال الخطف. لقد أُدخل محسن في التعداد، وشطب اسمه، كما هو حال الآخرين، من التعاطف والشفقة، مثلما مُحِيَ من سجل التحقيقات الشرطية أو الأمنية.

قال نائل إن المنارة كانت قد دخلت في زمن يسميه: «زمن التجاهل» (قلت له: «زمن اللامبالاة». قال: يمكن أن نسمّي الأمر كذلك). ولم يبحث عابد عنه كثيراً. وهناك احتمال أن يكون سعيداً بغيابه. فبعد شهر تقريباً من اختفائه، تسلل مرة ثانية إلى البيت ليلاً. كانت قد مرّت ثلاث سنوات دون أن يطأ أي عتبة في منزل طفولته وفتوته. كانت للبيت رائحة أمّ، تختلط بالخبز والكعك والزيتون والبيض مع البقدونس. كانت تلك هي طفولته التي غادرها مطروداً أو مختاراً منذ ذلك الزمن. وقف قليلاً هذه المرة يشمّ عبق الدار. هنا كان يلعب الغمّيضة مع سميح، أو يناور سامح بالكرة التي اشترياها من دكان إسماعيل جرّار القديمة (رآها ممزقة ومشلوحة على المصطبة الحجرية التي يجلس عليها الأهل أمام غرفة المعيشة). وحين اقترب أكثر، دَهَمَهُ عبق الماضي المخزّن في جميع الأشياء: الأبواب والسلالم والنوافذ وخابية الماء وشجيرات المكانس وثياب الغسيل، والحجارة المرصوفة. كان هذا هو عبق الأمومة. ولأن

تلك الذكريات عطلت الرؤية، لم ينتبه إلى أن أمه ترنو إليه من فراغ الدفة المفتوحة في باب المنزل وهي تبكي بصمت.

تلك الليلة تعشّى طعام الأمهات. أكل كما لو أنه لم يأكل منذ سنوات. ثم نام على ركبة أمه قليلاً، بينما كانت منار لا تزال تقضم أظافرها. ولا تتوقف إلا حين تسأل عن تاريخ ما، عن مسألة في المنارة. كانت المنارة هي العالم الوحيد الذي سمح به محسن الجوف للابنة التي شارفت على العشرين. أجبرها على البقاء في البيت في انتظار أول خاطب، فأرسلت رسالة سرية إلى زوجة السايس تطلب أن تستلم دينها. ثم اختبأت خلف ستارة بيضاء سميكة لا يظهر منها سوى عينيها، ولباس أسود يحيط بجسدها. لم يكن في وسع أحد رؤيتها بعد ذلك. ولم تكن مصاهرة محسن الجوف تُغري أي شاب، دون أن يكون قد لمح البنت. وليس لدى عائلات المنارة أيّ خمائر لذاكرة طيبة عنه. وبينما كانت بنات البلدة يخرجن من أدغال المنارة، إلى عالم التلفزيون والموبايل ووسائل التواصل، كان محسن يمنع المشاهدة في غيابه، ويعتبر الهاتف النقال مشروعاً لخطيئة مقبلة يُعَدُّ لها في العالم الآخر.

لم تُبدِ المرأتان قلقاً لغياب محسن. قالت لوزية إنه ينبطح الآن تحت قدمي عاهرة، أو إنه يشخر وراء حائط حاكورة، بعد أن يكون قد خري على نفسه. ضحكت منار من وراء الفوطة. لم يسمع ضحكة البنت منذ زمن. كأنما كانت الذكريات قد غارت في بئر صمت تكتنفه النقمة، وتشوّهه الندوب التي تركها محسن في قلبه. لكنّ المرأتين انخرطتا فجأة في نحيب يائس بدا كأنه مُخزَّن في جوفهما العميق الغامض المطحون تحت صوت محسن الغاضب. عابد لم يكن يعرف كيف يواسي. قال أحمد إنه انسحب من البيت في تلك اللحظة، تاركاً وراءه صوت نشيج تملأ المرأتان الوحيدتان به فراغ البيت الفقير. فكّر أنه لا شيء هنا سوى دموع

أسى وحزن. فيما كان قلبه يُترع من جديد بالكراهية لمحسن الجوف. سار على الطريق القديمة الملتوية، مارّاً أمام منازل آل الخرّوب دون وجل الحسابات.

*

عندما قال له حامد حين رآه: «خفت عليك. طوّلت». لم يجب، وجلس على المصطبة، وراح يتأمل تل القواسم. ثم غمغم ببطء: «لأني ودّعت البيت لآخر العمر». وبسبب الحكاية القديمة التي قيلت في زمن الفتوة عن الموت المبكر، طأطأ حامد رأسه مذعوراً من كلمات عابد التي تحكي عن آخر العمر. أراد أن يقول له «العمر الطويل يا ولد»؛ لكنه لم يجرؤ. كان خوفه من النبوءة في تلك اللحظة أكبر من قدرته على إلقاء المشاعر. صمت في مواجهة قرار عابد، وقال له: «أنت بتعرف أنو هذا بيتك». فنظر إليه بعينين مغرورقتين بدموع فاترة، وهمس: «يا ألله قرّبت، ما عدت رح طوِّل عندكن». هزّت قشعريرة برد جسد حامد، وهو يفكر أن يصرخ به: «شو عرَّفك؟ شو عرَّفك يا بني آدم؟». ذلك أنه لم يكن يصدق الحكاية، وإن كانت تثير هلعه. فليس في وسع بشريٍّ من عظام ولحم أن يمون على الله كي يقرر موعد رحيله. لماذا يا رفيقي إذاً؟

وفي تلك الليلة كان قد قرر أن يعلم من أين يمكن أن يأتي الموت، وأن يحصي الطرق التي يمكن أن يتسلل منها، وأن يمشي سراً في الحكايات التي تروي أشكاله، وأن يستفسر عن أحواله، وأن يتحرّى تاريخ الموتى في المنارة وما حولها، وأن يعرف لمَ، أو كيف، أو متى. وأن يتجول في الأزقة والشوارع ليلاً، كي يتأكد من أنه لا يأتي على غفلة منه. وأن يراقب البيت والسيارات، وأن يرصد المصادفات. وحين تأمل الوقائع التي تحدث في أيامه وجد أن أكثر موتى الزمان هم من الذين تقصف الحرب وحواشيها

أعمارهم. كانت الأرواح تسرق من الطرقات وتؤخذ إلى الحرب (أحصى هنا في المنارة ثلاث عشرة روحاً شابة كانت أعمار أصحابها تحت الخامسة والعشرين. وفي السماقيات المجاورة تسع عشرة روحاً، وفي عين الجمل خمس أرواح، وفي قصر المطر عشرون، من بينها ست أرواح ماتت خارج الحرب). ورأى أن القدر لم يكن يتدخل في حضور الشرطة العسكرية، أو رجال الميليشيا الذين يخطفون الشباب أحياء، ويعيدهم الجيش في توابيت احتفالية برفقة طلقات الرصاص. ولم يعد الموت حقاً، بل واجباً. وإن الواجب يتسربل في كلمات نارية يلقيها برهان العلمي في جنازات الشبان الصغار الميتين المخفيّين في النعوش المُسَمَّرة.

كيف يمكن أن يواجه ذلك الموت الذي يراه عابد؟ ولكن كيف تراه يا عابد؟ قال أحمد الشايب إن حامد كان يملأ صفحات كثيرة برسوم محتملة للموت الذي يعتقد أنه آتٍ نحو صديقه: إذ يمكن أن يكون الملاك المكلّف بذلك قد تجسد في صورة مسنّ على عكاز. رجل في إهاب مزارع. امرأة تحثّ البنات كي يملأن الجرار من البئر. كلب كالذئب. رأس ماعز مقطوع.

وفي إحدى الليالي حلم أن ملكاً متدثراً بعباءة حريرية بلون العسل، جاء في الليل، وأخذ يده، وطار به إلى السماء. ومن هناك ولج قبواً بلا نهاية. وفي نهايته يجلس عجوز كهل ذو لحية بيضاء لا نهاية لها، قال الملك إنه قاضي الموتى في الآخرة. وإنه لم يحدث أن سرّب حكماً أصدره منذ بداية الخليقة. فمن أين عرف عابد سرّ الحكم؟ وهل يمكن لذلك الحارس أن يكون قد غفل مرة وكشف سر الوقت المتبقي له؟ قال أحمد إن حامد سرعان ما بدأ يظهر شاحباً، وبذقن خشنة كالإبر، ونظرة عينين ذابلتين من الأرق، على الرغم من أن حلم الحارس قد طمأنه لبضعة أيام. كان رعبه من فقدان عابد لا يعادله أي رعب آخر. لهذا لم يظهر خوفاً أو ارتباكاً حين تقدمت عدة فصائل مسلحة من جهة القلعة، واللجاة، نحو المنارة. كانت

كتيبة من الجيش تنشئ معسكراً لها في الجانب الغربي، كي تتمكن من حصار الألوية التي تتحصن في القلعة، وتمتد إلى الشمال في عمق صخور اللجاة. وقد بدؤوا هجوماً سريعاً مضاداً في أوائل الخريف من تلك السنة. كان ذكر أسماء تلك الألوية وحدها يثير الذعر - قال أحمد - في نفوس أهالي المنارة والقرى التي تحاذيها قبالة حدود حوران. (في التوضيح الذي قدّمه لي نائل قال إن أهالي المنارة لم يفرّقوا غالباً بين ألوية حوران من ناحية الخوف). فرّ ثلاثة أرباع الناس من هنا. كانت قوافل الفارين من اقتراب القتال لا تتوقف في اتجاه السويداء، طول أكثر من ثمانين ساعة، قبل المعركة، أو في أثنائها. فيما كان حامد وعابد يجلسان على حافة الحائط الحجري المتهدم لدار أبو الليل، يراقبان الرحيل، بلا مشاعر. غير أن المكان الذي ظل يغريهما هو صخرات العسل. ذهبا إلى هناك بحثاً عن ذكرى خالد الغائب. كانت الصخرات خالية وحيدة، بينما كانت المغارة الصغيرة هناك تحتفظ بالذكريات: المكان الذي كان ينام فيه خالد بعد وجبة الطيور المشوية. صوته وهو يغني خارج النغم. روحه الطيبة. نضارته في الحب. وفي ذاك المكان رأى عابد تلك الدمعة وهي تجري على خد حامد ويمسحها مسرعاً.

هل كان بقاء عابد إلى جانبه يطمئنه؟ أم إنه كان يخشى أن تأتي النبوءة في شكل لم يحزره من قبل؟ سألت أحمد الشايب. لم يكن لديه أي جواب، قال إنه لم يتحقق من هذه التساؤلات. ولكنه متأكد من أن ذلك الفتى لم يكن قادراً على البقاء في هذا العالم بلا صاحبه. وقد ترك غياب خالد فراغاً فاغراً لم يكن أحد يستطيع أن يسدّه أو يحلّ فيه.

ما لم يقله أحمد أنه حاول لمرّة واحدة أن يركب في مقعد الثالث الغائب. وقد عرفت هذا الأمر من نائل الجوف، ولم أفاتح لديّ مصادري به. كنت أراه غاضباً من الحكاية، يخطو في تفاصيلها بوجل كأنما يدوس

على جمر، أو على أعشاش عصافير. ولكن خبر المحاولة كان فاتناً في النهاية. ويعتقد نائل الجوف أن أحمد الشايب أبقى المحاولة سرية، ولم يبُح بها لي؛ لا لأنه لم يتمكن من التسلل إلى سهرات الثنائي، أو خلواتهما، بل لأنه أدرك أنه كان عاجزاً عن الولوج إلى سرّ الرفقة. فهناك فقط كانت ترقد روح الحكاية التي تؤرّقه.

في تلك الشهور الطويلة كانت حليمة هي الوحيدة التي لا تزال قادرة على الاقتراب من الشابين. غاب الرجال من حياتها، منذ بداية الحرب. لم يعد يرغب فيها أحد في المنارة، أو يذكر حضورها، فيما مضى عهد جمالها وسطوتها، إلى الماضي سريعاً. وقد طُمر، مثل آلاف الأشياء الأخرى، في الحفر التي أحدثتها السنوات الأخيرة، في حياة المنارة.

وعلى الرغم من هذا كله، فقد تمكنت في تلك السنوات من البقاء في خلفية المشهد، كما قال نائل، وقد تعمّدت أن تكون هناك، ظنّاً منها أنه المكان الضروري للمراقبة ولرصد تحركات الشابّين اللذين صارت ترعاهما. لم تكن حركة الخارج هي التي تهمّها، بل تلك التبدلات التي كانت تخشى أن تقضم روحيهما الصغيرتين أمام عينيها. وبسبب التعلّق الذي استحوذ على روحها تجاههما معاً، كانت أحياناً كثيرة تتعثر في مناداتهما، فتخاطب حامد على أنه عابد، وتنادي عابد على أنه حامد. وكان كل منهما يبتسم لها، بعد أن يردّ على ندائها، ويستجيب لما تطلب منه، أو ينفّذ العمل، على أنه الآخر.

ولهذا فقد حاولت بكل عزيمتها أن تخرج من أيّ عراك محتمل مع الوقائع من حولها. لم تعد تخرج من البيت، خشية أن يؤدّي مزاجها الخائر إلى افتعال شجارات قد تؤذي مهمتها المقدسة.

وهكذا وجدت أن العزلة تشفي من الأوزار. ولكي تتمكن من إبقاء

الشابين تحت نظرها، أفرجت بعد كل تلك السنين عن مبروم الذهب الذي كانت تخبّئه منذ أيام العزّ، في زمن المال الذي كان يأتي «من بَرَّهْ».

قبل ذلك كانت قد اتصلت بحسين المر: «أنت بتعرف إنك كنت خَيْ إلي دائماً، وصحيح إنّكْ ما عاد طلّيت عليّ، بس اليوم أنا محتاجه خدمة منك!». ثم طلبت أن يساعد الشابين. قالت: «الولدين» وأن يدبّر لهما محلاّ صغيراً كي يفتتحا دكاناً ما. وهكذا استطاع أن يؤمّن لهما محلاً صغيراً في شارع المسك في المدينة.

شروط الأم حليمة (التي قبِلا بها راضيين) كانت واضحة وبسيطة: أن يذهبا كل يوم إلى السويداء، ويعودا. فاحتمال أن تعود إلى الوحدة، كان لا يزال يزلزل وجدانها، منذ أن سكنا هناك بعيداً عنها قبل أشهر. وقد بات الحل ممكناً، بوجود الدراجة النارية التي اشتراها حامد؛ إذ في وسعهما استخدامها في السفر صباحاً، والعودة قبل غياب الشمس، كلّ يوم.

وفي بداية الخريف كانا قد ملأا الدكان الصغيرة بمئات العلب والمستحضرات وزجاجات العطور ومزيلات رائحة العرق وغيرها من المواد، وصنعا لها رفوفاً من الخشب، ووضعا اسم خالد سيف الدين شريكاً، ثم أطلقا اسمه على مستحضر الصبّار الذي ابتكرته حليمة لعلاج التشقّقات. وتخيّلا أنه سيضحك كثيراً حين يعلم أن إحدى خواص مرهم خالد، علاج تشققات الشرج المحتملة. وأهداهما أحمد الشايب طاولة صغيرة، لها لون الفستق، وإبريق شاي، فيما قدمت لهما حليمة موقد الغاز، وأربعة كؤوس، وعدّة متّة للطوارئ، وملاعق وصحنين كي يأكلا هناك من الغداء الذي تزوّدهما به.

وبعد شهرين ظهرت علامات الرسملة عليهما، فمرابح الأسبوع الأول تجاوزت بيدر الحسابات الورقية التي أُجريت على الفواتير المقدمة لهما.

وقد راعيا، بحسب أحمد الشايب، أن يكون البيع خارج مناخ غيلان البيع الذين يلتهمون الأرباح في زمن الحرب. كان عليهما أن يثبتا لشخصٍ ما، موجود في شفافية الغيوم، أنهما قادران على البقاء والاستمرار، دون أن يتلوثا بدسائس سوق البيع والشراء الحربي.

وصارت بينهما وبين الأشياء ألفة ناجمة عن المعرفة. ففي كي ليلة كان كل واحد منهما، يقرأ التعليمات المكتوبة على العلب الملونة، ويحفظها غيباً، واكتشفا (وهما ذاهلان) أن لدى كل منهما ذاكرة تتسع لآلاف المعلومات، وتستطيع أن تحفظ بسرعة آلة، بلا مصاعب الحفظ والاستظهار، من المرة الأولى. قهقها وهما يتذكران عصا النبريش، أو الأستاذ عبد الواحد، وهي تهدد النسيان، أو ارتباك المحفوظ. وأخفيا عن الجميع، عدا حليمة ولديّ مصادري، تلك القوة المتقدة التي تتمكن الذاكرة خلالها من حصد نتائج القراءة في لحظات. وصار حامد يستطيع أن يعرف أصبغة الشعر المناسبة للفتيات، ما إن يرى خصلة تطيّرها نسمة هواء. فيقول: رقم كذا من نوع كذا. ونوع العطر المناسب. يقسم للبنت التي تشتري أن هذا النوع وحده هو العطر الذي خُلق لها. كيف؟ تسأل البنت. فيقول لها: «شوفي!». ثم يشرح لها أن عطر الياسمين يناسب بشرتها التي تميل إلى بياض زهرة النبتة، أو أن الخزامى يناسب بشرة الحنطة، أو أن السوسن يليق بقامة الغزالة. واختصّ عابد بالشفاه، وكان يطلب من الفتيات أن يصمتن قليلاً في حضرة المكان، كي يتأمل شفاههن. وبالعيون، فلا يمكن للبنت أن تأخذ أيّ كحل دون أن تستشيره. كان أحياناً يأخذ العلبة من يدها بلطف، ويوجز لها ما يناسب عينيها. يقف في مواجهتها، ويحني رأسه قليلاً، كي تكون عيناه في مواجهة عينيها. وإذا ما أغمضت إحداهن بسبب الارتباك أو الخجل، ولأنه يعرف سلطة عينيه، كان يعمل كي يضفي عليهما خمولاً ناعساً يظن أنه قد يشبه البلاهة.

ويهمس للبنت: «أنتِ لا تطلّعي بعيني. بس خلّيني شوف عيونك». ثم يقدّم لها كحلاً يقول عنه إنه سوف يجلب العاشقين من الغيب. يترك التماعةً خفيّة تخفق كنجمة، أو يضفي شعلة ذكاء. ويمكن أن يسأل ما إذا كانت البنت تريد أن تنادي أحداً، أم تجعل أحداً يطوف حولها. وحينئذ يمكن أن تحرّر البنت عينيها، وتحدّق في الوجه الجميل الذي يبتسم لها. وهناك احتمال أن تحطّم الحاجز، وتهمس بما ترغب فيه، مما لم تكن حتى هي نفسها تعرفه من قبل. وفي كل الأحوال، لم يتحرّش أيّ منهما بأيّ بنت من اللواتي يأتين إلى المحل (هذا هو الاسم الذي سمّيا به أمتارهما الأربعة في تعويذة الأمل التي كانا يأملان منها أن تساعد في توسّع الشغل في ما بعد، وأن يتمكّنا من استئجار محلّ «متل العالم والناس»). وحوّلتهما همّتهما وسعيهما إلى خلدين يحفران بلا توقف، بحثاً عن الممكن الطيب الذي سينقذهم طولَ الحياة. إلى أن وقف عابد ذات يوم من أيام أيلول، أمام عينين عسليتين، ظلّتا تحدّقان في وجهه.

والحقيقة هي أنه لم يعرف أن البنت التي تقف أمامه، وتحدّق إلى عينيه، هي هند الخرّوب نفسها. لقد مضت سنوات منذ أن التقى بعينيها. وهو ممّن يقولون إنه لم يلتق في الحقيقة إلا بعينيها وحدهما، وإنه لا يعرف صوتها، ولا لكنتها في الكلام. وهناك احتمال أن يكون قد نسي طبيعة تلك النظرة النسائية الممسوسة بالبريق الذي كان يحدّث حامد عنه، حسب قول أحمد الشايب، الذي لم يكن متأكداً من هذا الأمر تماماً. لهذا وضعه في خانة الاحتمالات. فعابد الجوف لم يتأخر إلا بضع ثوانٍ ليدرك من هي صاحبة العينين. وقف مبهوتاً. عجز عن الكلام والحركة والتنفس والتفكير في ما يجب عليه أن يفعل. «هند؟». قالت: «اي حبيبي». يقسم لي أحمد الشايب أن عابد الجوف بكى. ربما لم تنهمر الدموع من عينيه؛ غير أنها هطلت مثل رذاذ ناعم داخل صدره. لم يصدّق أنه يسمع الكلمة التي لم يسمعها في

حياته كلها. غير أنها كانت في تلك اللحظة تعبق برائحة بنت. فتاة في بياضٍ شمسيّ ترتدي ثياب الخريف: قميصاً أزرقَ بحريّاً، وتنّورة بيضاء تتخللها نرجسات صغيرة متباعدة، وشعر خرنوبي كثيف ومتشابك، يحيط بعينيها الواسعتين المحدقتين فيه. أراد أن يحملها ويرقص بها. «يا غشيم» قال له حامد في ما بعد. ثم لاحظ تلك الثلة من البنات اللواتي اقتحمن المحل، ورحن يستعرضن البضاعة المعروضة تحت واجهات الزجاج، بصخب.

قالت هند: «لا تنتبه إلْهن. خلّي حامد يشْغلهن!». «بالطبع!». لم يكن مستعدّاً لتلبية أي طلب. وأخذ هند من يدها، وأدخلها في الحيّز الضيّق الذي يفصل البسطة الزجاجية عن حائط المحل. انقادت ليده، وسارت خلفه دون أن تسحب يدها، وجلست على الكرسي الذي قدّمه لها. ثم خرج راكضاً، وعاد وهو يحمل ثلاث علب «بيبسي». ترك علبة حامد على الطاولة الصغيرة، وراح يشرب قربها، ويثرثر معها، في أيّ شيء، فيما كانت قد قضمت أظافر إبهامها وسبابتها وبنصرها في الجلسة التي استمرت أكثر من نصف الساعة.

قال أحمد إنهما لم يأتيا على ذكر المنارة. ووضعا البشر هناك في علبة من الكرتون، وأغلقا عليهم بمفتاح أمان، ضمنه لهما حامد الذي وقف في باب المحل، بعد أن أنهى عمله في البيع، وصار يعتذر من القادمات الجديدات.

*

«ولك شو ما عملنا؛ الله مش عم يصدّقنا». هذه هي العبارة التي ذكرها أحمد على لسان عابد الجوف. وقال لي إنه لم يفهمها، وإنّ مستوى الغضب والتجديف الذي تضمّنته، جعلته مذعوراً من الربّ الذي قد لا يغفر حتى سماعها. وقد نسي أحمد أن تجديف عابد، في تلك اللحظة، لم

يكن أكثر من صدى يتردّد في ضميره منذ الصغر، إلى أن وصل رأس محسن الجوف في صندوق من خشب الحور، مغلّفاً بورق جرائد، فوق بطانة من ورق الألمنيوم. وقد وجدوه عند مشهد الجندي المجهول قرب صخرات العسل. لم يكن المرسل معروفاً، ولا المرسل إليه. وكان محسن حزيناً في ذلك التابوت الصغير، وقد فتح عينيه على الرعب الأخير الذي شاهده قبل موته. فقال له عابد: «قل لي، يا أحمد يا شايب، الحقّ على مين؟».

قال أحمد إن عابد وحامد ذهبا في ذلك اليوم إلى سهل الزرازير، وأودعا فيه واحدة من صرخاتهم الحائرة: «ليييييش يا الله؟». ومنذ ذلك اليوم تبدّل عابد تماماً، وقد رأى أن وجود رأس محسن هناك عند الصخرات إنما كان رسالة إليه وحده. وصار هدفه أن يسترجع ذلك الجسد الضائع.

لم تكن لديه أيّ فكرة عن ذلك، كما لم تكن مشاعر البنوّة هي التي تحرّكه، بل أمر آخر لم يستطع أن يترجمه إلى كلمات. وإذا كان حامد قد شاركه حماسته المستجدة، فإن الأمر لم يزد عن كونه نوعاً من المشاركة التي تغلب عليها غواية فخورة بهذا المنحى. قال أحمد إن حامد هو الذي بثّ في المنارة تلك الحكاية التي منحت اندفاعة عابد نكهة بطولية محاطة بهالة من الرغبة في الثأر. غير أن المسألة لم تكن كذلك أبداً في رأي نائل. قال إن هذا الولد الذي لا يكبر (يقصد أحمد الشايب) وهو يعني أنه لا يعقل، يمرّغ أفكار الناس المحيطين به بوحل النزعات الممسوخة. إذ لم يكن عابد يفكر في هذا أبداً، وهو لا يعرف غرماءه. وليست لديه (كما لم تكن لدى أحد) قرائن عن الخاطفين الذين باتوا قتلة، وإن كان النبريش يضخّ بلا توقف، عبر رجاله حكايات تثبت أن الإرهابيين هم الذين قتلوه.

وفي خطوة مباغتة زار برهان النبريش عابد في بيت حليمة. قال له بلهجة أبوية، بعد أن عزّاه بموت أبيه: «نحنا معك بكل الأحوال». كان

يحمل بندقية البمبكشن ذات الرصاصات الخمس، في يده، ويضع مسدّساً غريباً على خاصرته. «اطلب شو ما بدّك. محسن كان صديقي وحبيبي وإنتْ بتعرف غلاوتك عندي». ثم تنحنح، وكانت هذه عادة جديدة صار يتبعها منذ أن أقلع عنِ التدخين: «يلّي صار جريمة ضد الإنسانية. وما لازم نسكت». ثم أشار بيده كي يلزمه الصمت. «ما كنت بدّي إحكي»، قال عابد لنفسه. «نحنا قمنا بدورنا. قتلنا من يومين بدوي، وواحد من 'النصرة'، كانوا عم يشربوا ميّ من نبع الزبدة، قتلناهم. وأخذنا أسلحتهم. إذا بدّك تحت تصرفك. ملكك. لأننا أخذناهم منشان الثار!».

ولكن عابد لم يكن في مثل تلك اللحظة يعبأ بكلام النبريش. وقال له إنه يريد أن يعيد جسد محسن (قال: أبي) لا الثأر لمقتله من أشخاص أبرياء. وقال أحمد الشايب إن النبريش - بحسب المصادر الموثوق بها - لم يردّ، ولم يعرف ما هي الخطط التي كان يعدّها في كير النار الذي يغلي داخل رأسه. وكانت هذه واحدة من طباع النبريش الذي لا يظهر أحقاده إلا متأخراً كالجمل. عينان رطبتان، وفم مزموم، داخل وجه مسطّح غامض لا مسالك فيه. وحين خرج لحق به حامد، وتكلّما في الخارج واقفين عند البوابة الخارجية المصنوعة من الخشب والتنك. كانت ريح خريفية عاصفة تحرّك الجسم الكبير للبوابة التي تصدر صوت صرير قلِق، تحت وقع مقاومة الدفع الداخلي للريح التي تتخلل الحائط خلفها. لم يعرف ما قالا، ويرجّح أحمد أن حامد لحق بالرجل الذي كان معلّماً ذات يوم، وشرح له وضعه. «عابد، يا معلم برهان، يعادل روحي، وأنت تعرف، يا معلّمي، كيف بيحافظ البني آدم على روحه. يعني يمكن يحمي نفسه، أو يدافع عنها، أو يقتل كل من يظن أنه يمكن أن يكون خطر على روحه. هذا عابد يا معلم. الناس عم يقولوا هذا مثل خيّي، وأنا عم قول خيّي وشقيق روحي ومجرى نفسي، يا معلّم!». كانت أنفاس النبريش تكاد تتقطّع وسط

المسافة بين فمه اللاهث، ورئتيه المذعورتين. وراحت يده ترتجف، أسفل أخمص البندقية المحشوة، فيما لم يجد في معابر رأسه كلّها أيَّ كلمة يمكن أن يقولها للفتى الضخم الطويل البارز الصدر في قميص الرياضة الأبيض.

ولأن عابد يعرف، فإن حامد لم يَبُحْ له أبداً بما تحدّث به مع النبريش. وحين اختار أن يمضي في طريق البحث عن جسد أبيه، أعطاه ما طلب من المال. ثم وضع سرّاً كل ما في رصيد المحل داخل جيب في حقيبة الأغراض التي حملها صديقه. وفضلاً عن ذلك فقد أجرى مسحاً سريعاً لاحتياجاته الخاصة، بمساعدة سرّيّة من حليمة التي نبشت الحقيبة المعدّة، وأعادت إحصاء النواقص فيها، ثم رتّبتها من جديد. وهناك اكتشفت أنه لم يأخذ سوى غيار داخلي واحد، وبنطلون جينز، وقميصٍ احتياطيّ. صارت تنتحب، وتشهق وهي تمرّغ وجهها في الثياب المسافرة، غاضبة من هذه البلاد الموحشة التي يضيع فيها الآباء والأبناء. ويكشف أحمد الشايب أنها كانت تبكي على نفسها أيضاً. فاختفاء أبي حامد، وابنها الكبير سامي، لم يكفّا عن دغدغة أمنياتها من جهة، وجرح وجودها اليومي من جهة ثانية. فيما قال لي نائل الجوف إن مصيرهما هو مصير كل هذه البلاد في هذا الزمن العجيب. وحين اختفى عابد في ما بعد، لم تتوقف عن السؤال عنه. وكان حامد هو رسولها المتحمس، وصوت ضميرها الذي ظل يحاول أن يتابع مسير صديقه كل يوم.

تظهر التسجيلات التي حفظها حامد على هاتفه النقال أن عابد اخترق اللجاة، متّجهاً نحو الشمال في البداية. والظاهر أن رجلاً هناك كان قد قدّم المساعدة له منذ البداية. وبحسب كلامه يبدو أنه استُقبل بترحاب في القرى التي لا تسيطر عليها القوات الحكومية. وقد سار برفقة جماعة من أحد ألوية المعارضة. وفي الغالب فإن الرجال الذين صحبوه معهم، من أجل البحث عن جسد والده، قد شعروا بالشفقة على الشاب الذي يخاطر

بحياته من أجل جسد ميت قد يكون في تلك الساعات منخوراً بالدود. ولدى أحمد ما يؤكد أنهم أرادوا أن يتوصلوا إلى حقيقة موت الرجل المسمّى محسن الجوف، فيما لو كان بالفعل قد خُطف وقُتل، في مناطق سيطرتهم. لا يعرف أحمد الكثير عن توزّع السيطرة الجغرافية للفصائل المسلحة التي تقاتل النظام، ولكن أحمد بدا واثقاً من المعلومات التي يقدمها. وكما هي العادة التي اتبعها، فإن مصادره تبقى سرية، وغير قابلة للكشف أو التصريح، فضلاً عن مصداقيتها.

وتشير التسجيلات أيضاً إلى أن المشكلة التي واجهت الجميع هناك، كانت قضية نبش القبور. ولكن العدد القليل من القبور المجهولة من جهة، والضرورات الأخلاقية، جعلتهم يسمحون لعابد بحفرها للبحث عن جسد محسن.

لم يعثر على الجسد. وقد وجد أكثر من قبر مزيّف لا يضمّ أي رفات. وكان واثقاً من أنه لن يخطئ أبداً في التعرف إلى عظام أبيه من بين عظام الموتى الذين توقع أن يجدهم في المقابر. لكن الأمر الذي صعّب المهمة أمام الجميع هو أن قبور القتلى لم تكن في الجبّانات المعروفة. كما أن كثيراً ممّن قُتلوا ضمن الهوامش التي تخلقها الحروب، قد دُفنوا في أماكن مجهولة، ومُحيت آثار دفنهم، كهامشيين أيضاً. قال عابد مثل هذا الكلام لحامد في أحد اتصالاته. وقد أبدى حزنه لأن يكون محسن قد قضى في مثل هذه الحفر الجانبية في الحرب. لكن لم يعد هذا يعنيه في النهاية، لا طبيعة الحرب من حيث هي اقتتال على الحاضر والمستقبل، أو من حيث هي حروب الأمراء في سبيل المال، أو هي عبث مجنون مدمِّر. كان جسد أبيه الضائع هو الهدف الوحيد الخالي من أي حمل آخر. هكذا قال لي أحمد الشايب. ولم يكن يذكر الحرب في اتصالاته، إلا حين تصبح الاشتباكات سبباً في عرقلة بحثه.

لكنه بعد شهر تقريباً، كان قد فقد الأمل في تتبُّع أيّ مسار مشى فيه محسن، حين كان حيّاً. لم يجد خبراً واحداً يؤكد أن الرجل قد عبر قرى اللجاة. وبدا أنه يفقد الأمل في العثور عليه، ويعلن عن يأسه من كل شيء. وفي رأي نائل الجوف أن الفكرة كلها كانت مجنونة تماماً، وأنه يعتقد أن ذلك الشاب كان يريد التكفير عن ذنب لم يرتكبه، وإنما ارتُكب في هذه البلاد قبل أن يولد. ولكني أرجأت النقاش مع نائل في هذا التفسير لمتابعة الحكاية كما يسردها لديّ مصادري.

قال أحمد الشايب إن عابد ترك اللجاة بعد تلك المحادثة المحبطة مع حامد واتجه نحو الجنوب. وكان يتتبّع خُطا رجلٍ قيل له إنه يعرف شخصاً يطلقون عليه أبو المخاطيف. ولكنه لم يجده، واضطر إلى الاختباء في أحد البيوت التي أعيد بناؤها لتكون شبيهة بالملجأ، حين يشتد قصف الطائرات الروسية، أو تزيد القوات الحكومية والمليشيات من هجماتها البرية. ولم يستمع لضراعات حامد وحليمة اللذين نكصا عن وعدهما بدعمه في الرحلة.

كانت الأخبار في المنارة تؤكد أن القوات الحكومية سوف تجتاح حوران في بضعة أيام. وسوف يكون وجود عابد، وغايته الغريبة في موضوع البحث عن جسد أبيه، سبباً في إثارة الريبة لدى أي محقِّق يمكن أن يسأله عن سرّ وجوده في تلك الأرض. قال أحمد الشايب إن مكان الولادة المكتوب في الهوية الشخصية لأيّ سوري هو الذي يبرئه، أو يضعه حالاً في شبكة اتهامات مسبقة. ولكن نداءات حامد ضاعت. فقد ادعى عابد في أثناء ذلك أنه وصل إلى رأس خيط. ثم اختفى بضعة أيام، لا يردّ فيها على الهاتف، قبل أن يغلق تماماً.

ذُعر حامد هنا، وظل أكثر من يومين لا يذهب إلى المدينة، ولا يكلم أحداً، وهو يمسك الهاتف في يديه ويواصل الاتصال بصديقه. لم يبدِ أيَّ

مللٍ أو تأفّف أو ضجر، تجاه تلك النغمات المعتادة التي تشير إلى خروج الهاتف المعني من الخدمة. ودون أن تكون لديه أي مواقف في السياسة، عبّر عن سعادته لفشل الهجوم الجديد للقوات الحكومية. هذا يعني أن عابد سيظل خارج الخطر. لم يقل هذا الكلام أمام أحد غير لديّ مصادري الذي يحفظ أسرار المجموعة وحدها. إذ كان مثل هذا الإعلان سيحسب حالاً في سجل الخيانة، أو التواطؤ مع الإرهاب. وعاد للعمل في محلّه بالنشاط القديم ذاته. وهو يحتفظ بمكالمة يحكي له فيها عابد عن الانتقالات الصعبة في الجنوب بحثاً عن جسد أبيه، أو هرباً من الاشتباكات. ولكنه لم يستطع أن يعرف من هم الذين يتولّون مساعدته أو حمايته في تلك الأيام. ولا يعرف أيضاً كيف انتقل من هناك إلى أطراف دمشق حين سمع حكاية عن جسد رجل بلا رأس، مدفون في إحدى المناطق. غير أنه أُحبط هناك دون شك، حين وجد أنه لم يكن رجلاً واحداً، بل مئات الرجال. وكان معظمهم قد ماتوا في القصف العشوائي للنيران المتبادلة. وبدا له أنه يعود من جديد إلى الهامشيين الذين قلّما يعنى أحد بتوثيق موتهم، إما بسبب همروجة الحرب، أو بسبب الجهل، أو بسبب اللامبالاة.

يلاحظ أحمد أن إيقاع حماسة عابد كان يخفت كلّما توغّل في الأمكنة التي تشهد الموت. وقال لحامد في إحدى المرات إن جسد محسن الجوف يكاد يضيع بين أجساد القتلى الذين يختفون في القبور المجهولة. والظاهر أنه لم يعد ينبش أيَّ قبر بعد أن تعرّض لأكثر من خديعة يدّعي أصحابها أنهم يعرفون شيئاً عن محسن. ولكنه لم يذكر شيئاً عن الابتزاز المالي. وربما كان أولئك يريدون توثيق الحكايات مستعينين بوجود اسم، لا سرقتها، أو نهب أموال الأقرباء.

أقول: «ربما»، لأن أحمد الشايب قال إنهم بدؤوا يغرِّرون بعابد، ويحاولون تضليله، وطمر المعلومات في طريقه. فيما كانت مكالماته

تحكي عن شفقته الوجودية على الأنفس الضائعة، والأجساد التي تتبعثر أشلاؤها كلها. وكان يقول إن الناس الذين يلتقي بهم يمتلؤون بالحكايات الناقصة. هكذا صار يرى الأمر، حكايات وراء حكايات وراء حكايات ينقصها يد هنا، أو رأس أو قدم أو أنف أو جسد. وفي كل مرة كان الاسم يختفي أيضاً. وفي اليوم نفسه عاد يتصل بحامد، فروى له قصة عن امرأة مدفونة برأس رجل. وقال إن شاباً في عمره كان يبحث عن أمه، ووجد جسدها هناك، ولكنه لم يجد رأسها. وإنه ندم على حفر القبر، وتمنى لو أنه لم يفعل. كان حزيناً جداً، وقال إنه لا يعرف ما إذا كان سيستمر في البحث عن جسد محسن أم لا.

اختفى عابد بعد تلك المحادثة، ولم يعد يردّ على اتصالات حامد، بينما ذُعر هذا هنا من جديد. وفكّر أن يلحق به إلى دمشق، فقالت له حليمة إن البحث عن الأحياء أصعب بكثير من إيجاد الموتى. ولكن عابد ظهر بعد خمسة عشر يوماً. كان قد تسلّل إلى المناطق التي تسيطر عليها ميليشيا أحد ضباط الجيش المنشقين، وهناك تعرّف إلى متطوع في الحرب من أبناء المنارة. قال لحامد إن الرجل هو الذي بحث عنه، وعرّفه بنفسه. كان واحداً ممن تركوا البلدة منذ عشرين عاماً. وقد عمل في الغوطة الشرقية لدى أحد الذين يصنعون الأثاث، ثم انتقل إلى القتال بعد دمار المكان كله. وعاد إلى المعمل حين تمكّن أصحابه من تدشينه من جديد. قال الرجل إنه لم يسمع بمحسن الجوف قطّ، ولم يظهر كثيراً من الأسى على مصيره. وقال له: «مش ممكن تحزن على ميت بين موتى». وراح يحاول أن يذكِّر عابد بالمصير المحقّق للبشر، وبما راح من الضحايا في الحرب الدائرة حتى تلك الساعات. لكن عابد لم يحدّث الرجل عن علاقته بمحسن، ويرجّح أحمد الشايب أنه استعار من صفات جميل الصخري، كل تلك المزايا والخصال البطولية، ومنحها لمحسن عن طيب خاطر.

لم يبقَ طويلاً في أي منطقة. وكان البحث عن جسد أبيه هو التصريح الذي يجيز له التنقل. لكن أحمد يقول إن هناك أسباباً أخرى وراء ذلك. ومنها أن إحدى الميليشيات اعتقلته وحقّقت معه واحتفظت به أكثر من خمسة عشر يوماً، وأرغمه أحد القادة فيها على عدم العودة إلى هناك. وكما هي العادة فإن مثل هذه الأخبار تأتي إلى أحمد وحده من مصادره الخاصة.

قال لي نائل إن عابد كان يسأل عن رجل طيب وكريم، ومستعدّ لتقديم أي مساعدة، أو خدمة للناس في أي وقت. وكان الوصف الجسدي (الذي يستطيع أن يستمدّه من شخصية محسن الحقيقية) يساعده في حشد المزيد من الخصال التي تجعله يشعر بالفخر كلما لمَّح أحد ما أنه رأى مثل هذا الرجل في أحد المعتقلات أو السجون، سواء في زنازين النظام، أو أقبية الفصائل المسلحة التي تقاتله. وفي رأي نائل أن عابد بدأ يضلّل نفسه منذ تلك اللحظة. وحين قلت لأحمد الشايب هذا الكلام، ضحك ضحكة ساخرة، وقال: «لا». قال إن عابد كان يضلّلنا جميعاً. وهو لم يذهب للبحث عن جسد محسن، بل عن جميل الصخري. «وهل التحق جميل بالمعارضة المسلحة؟». قال إنه لم يظهر في المنارة بعد أن بدأت الأحداث. وفي الغالب كان من المتوقع أن يكون مثل ذلك الرجل، الذي لم يتعاون مع السلطة في أي يوم، مستعدّاً للانضمام إلى أي معارضة قوية تعمل ضدها. ولكن عابد لا يذكر لحامد في مكالماته أي شيء عن جميل (حسب رواية نائل الجوف) ويمكن أن يكون هذا سبباً في تكذيب رواية أحمد الشايب ومصادره. إذ لا يكفي أن يكون جميل قد اختفى من المنارة منذ بضع سنوات، كي يستطيع أحمد دفعه إلى القتال والحرب.

في آخر الصيف اختفى عابد مرة أخرى. كان المحل في المدينة يتعثر في غيابه. وخشي حامد أن تبدأ الخسائر الناجمة عن غياب معلم التجميل في كسر الميزانية. وازدادت مصاعبه حين وصل أول خبر من جبهات

القتال عن موت خالد. كان هذا قد اختفى أيضاً من سياق الكلام. ولم يكن في وسع حامد أن يصل إليه، فقد اشتدّت الحرب في تلك الأوقات في المنطقة التي يعمل بها اللواء الذي كان يضمّه. وكانت الأنباء التي تبثّها الفضائيات تشير إلى تراجع الجيش وانكساره في تلك المنطقة.

كان الموت قد غاب عن مخيّلة حامد منذ أن افتتحا المحل، وكان أحمد يدّعي أن السبب هو نوع البضائع، وطبيعة الزبائن، بينما يقول نائل إنه العمل، والانشغال بقضايا الحياة اليومية. وكانت أشغال حامد قد تضخّمت حين وضع الحمل كاملاً على عاتقه: اختيار البضائع وشراؤها، ترتيب الرفوف، شكل العرض، التنقّل بين زبائن التجميل وزبائن العطور. قال لي أحمد إن حامد رفض اقتراحه بتوظيف فتاة مساعدة. واعتبر وجود أيّ شخص بديل شؤماً لا يريد مواجهته أبداً.

وفيما كان يتوسل إلى الله أن ينتصر الجيش في المعركة مع المقاتلين ضدّه في القلمون حيث يقاتل خالد، وجد نفسه يضرع إليه أن ينتصر المقاتلون في الغوطة على قوات الحكومة، حيث يجوب عابد القرى بحثاً عن جسد أبيه. وفي أحد مساءات أيار وصل النبأ عن مقتل خالد.

سمع صوت الرصاص في حارة الكرش، فأطرق، وراح ينكش الحائط حيث الطين الذي هرّأه المطر والرياح. وهمس لأمه التي كانت تقلم النعنع بصوتٍ مخنوق: «من الصبح ذينتي عم تصيح». فلم تقل شيئاً، وذهبت إلى الداخل، وأغلقت الباب على نفسها.

غير أنه لم يشارك في التشييع؛ إذ لم تكن هناك جنازة. وما دام خالد ليس موجوداً فقد اعتبر أن الأمر لا يعنيه. انتحب وحيداً عند صخرات العسل، قريباً من ذكريات صديقيه الغائبين. وقد وضع في أذنيه قطناً كي لا يسمع رشق الرصاص الذي توقّع أن يعلو هناك في موقف عزاء المنارة.

وحين وصل الشايب إلى هناك بكيا معاً مرة ثانية. وقال أحمد إن حامد رفض أن يستمع إلى رواية الدفن، وظل يتصل بعد الظهر بلا توقف بعابد الجوف، يستمع إلى صوت الغياب الذي يعلنه الخط البعيد، إلى أن سمع الرنين. وعندئذ لم يستطع السيطرة على مشاعره، فأخذ يبكي قبل أن يسمع صوت عابد.

هناك في الضفة الأخرى ران صمت أبيض شاحب، ثم سمع الرنين الممتد الطويل الذي أعقب إغلاق المكالمة.

في مساء اليوم التالي وصل عابد، وقال لي أحمد الشايب إنه لا يعرف ماذا فعل الصديقان في الداخل، بعد أن أغلقا باب غرفتهما المشتركة. لم يسمع هناك أي صوت. ويرجّح أنهما جلسا يقلبان الصور التي جمعتهما مع خالد، أو يستمعان إلى صوته وهو يغني، ويضحكان لنغمات النشاز التي لا يعبأ بها، أو يتابعان الأفلام المشتركة لهم. لم يستقبلا أحداً في بيت حليمة، واكتفيا بالذهاب إلى بيت خالد كي يبكيا مع سهى قليلاً في الصباح، ثم عادا إلى البيت. وفي ما بعد استمرّا بالعمل في المحل. غير أنه بدا بلا بهجة. لم يعد يستطيع أن يقدّم لهما أيّ طاقة، كأن موت الصديق قد استلّ من المكان كل ألوانه. صارا يعملان هناك دون حماسة الاحتفال. وكانت البنات يأتين ويرجعن خاسرات، حين لم يعدن يجدن حامد المحتفي بألوان الحياة، أو عابد المشغول بتلوين العيون. صارا مجرد بائعين بائسين حزينين في محلٍّ يمتلئ باللون. وفي تلك الأيام استطاع نائل الجوف أن يزورهما، حين طلبت منه أمّ عابد أن يفعل ذلك كي يسأل عما إذا كان قد وجد قاتل أبيه. فنظر إليه عابد طويلاً، ثم فتل يديه حائراً، ولم يجب. وقال لي إنه نادم على تلك الخطوة الخرقاء التي انزلق نحوها بسبب فضول أرعن، وإن عابد ظل صامتاً طول الوقت، دون أن يسمح له بالمغادرة قبل أن يشرب القهوة التي طلبها من بسطة

مجاورة. ومن تلك الزيارة يحتفظ بالوصف الأخير الذي سجّله لي عن الشابّين. والمهم هو أنه عرف حين عاد إلى المنارة بعد يومين، أن عابد زار أمه هناك. وقد استمع إلى توبيخها له بسبب عودته دون أن ينتقم لوالده. ثم قال بعد أن توقفت عن الكلام: «يَمِّي... أني رحت دوّر عن القتيل، مش عن القاتل».

في تلك الأيام واظبا على المجيء صباحاً، إلى السويداء، والعودة عصراً قبل مغيب الشمس، بعد أن ازداد الخطف العشوائي، في طريق المنارة، على الدراجة النارية التي يقودها عابد مرّة وحامد مرّة. وفي المساء يذهبان إلى صخور العسل، ويغنّيان لخالد الراحل. وقال لي أحمد الشايب إنه كان يرافقهما في الأوقات التي يطلبان منه مشاركتهما جلسة المساء، وإنه لم يجرؤ في أي يوم على ارتكاب أي مخالفة لهذا النظام. غير أنه يعتبر تلك الصخرات روحاً للشبان الثلاثة، وهو اليوم يذهب وحيداً إلى هناك دون إذن من أحد بالطبع، فيستمع إلى تلك الأغنيات القديمة التي كان يكتبها عابد، ويغنّيها، برفقة ناي خالد العظيم.

صارا أكثر وحدة. وباستثناء صخرات العسل، ما عادا يذهبان إلى الأمكنة التي كانت تجمعهما بخالد. وفي الليل يدوّران أموال المحل، ويحسبان الرصيد، ثم يضعان لوائح بالمشتريات الضرورية. وبعد ستة أشهر من رحيل صديقهما، قدّما لسهى، بوصفها الوريثة الشرعية في نظريهما لخالد، حصة من أرباح المحل. ذُهلت الفتاة الأربعينية التي كانت ترتدي السواد. ولم تعرف كيف تردّ. تقبل أم ترفض؟ كان صوت المطر في الخارج هو الوحيد الذي يخترق الصمت الذي حلّ بينهم، فيما ظلّت النقود على الطاولة. وظلت سهى تمسح بمحرمة بيضاء دموع حزنها.

بعد أسبوع قُرِع الباب في بيت حليمة. كان برد، وريح كانونية صاعقة تضرب في عتمة المنارة الصامتة. وكانت سهى هناك. قالت لحامد الواقف

في الضوء: «جيت بلا موعد. معلش؟». فانحنى حتى كاد جبينه يصل إلى ركبتيها، وقال بما يشبه الصلاة: «إلك الصدر وإلنا العتبة يا أخت الغالي!».

طلبت أن يُقسما بروح الراحل أن يوافقا على ما ستقوله، وما ستفعله. انتظرا قليلاً، وتبادلا النظرات، ثم أقسما معاً. عندئذ أخرجت من عبّها المال الذي أعطياه لها كله. ثم قدمت مئتي ألف ليرة، كي تضاف إلى حصّة خالد من رصيد الشراكة.

في تلك الليلة تعشّى الأربعة معاً، ولم يبكِ أحد منهم، وروَوا لسهى طرائف عن خالد، وأعادوا على مسامعها قصص الطفولة في أيام الثعابين والدبابير وزيتون. راحت تضحك كما لم تضحك من قبل. وقال نائل الجوف إن أكثر ما يثير في الأمر هو تلك الصداقة التي نشأت بين سهى وحليمة، فصارت البنت تأتي لزيارتها كل يوم تقريباً من أجل شرب كأس المتّة الصباحية. لم يعرف أحد ما هي الأحاديث التي تتبادلانها. لكن نائل قال لي إنه يستطيع أن يتخيّل أن عقد الصداقة الجديد، سوف يسمح للمرأتين المتحابتين بأن تنبشا تاريخ المنارة كله. ولم يُخفِ عابد وحامد فرحهما بحضور سهى في البيت. صحيح أنها كانت تأتي في غيابهما، ولكنها كانت تترك هناك رائحة خالد. بل إن سهى تبدّلت منذ تلك الأيام. خرجت من عزلة العانس، وأخذت عهدة البيت على عاتقها. وحين اقترحت على أبيها أن تذهب إلى السويداء من أجل شراء حاجات البيت، لم يقل أيّ كلمة. سلّمها لائحة المشتريات التي أعدّها مع أمها، واستدار ومضى. قال نائل إنها عادت كما كانت من قبل، وقد أدرك الوالدان ذلك منذ الجملة الأولى التي نطقتها وهي تطلب إعادة السلطة إليها.

ومن بين كتاب الأسرار الذي باحا به لسهى، ظلت الصخرات مطويّة. لم يأتيا على ذكرها نهائياً. كأنها لم تكن موجودة. ودون اتفاق أيضاً، لم يذكرا شيئاً من مشاوير هيفاء. لقد خاف كلٌّ منهما أن يطلق حزن سهى، أو

غضبها أو أسفها. بقدر ما خشيا أن ترمي صديقتهما القديمة الغالية (كما كانا يكتبان لها أيضاً في رسائل الهاتف) بكلمات مشينة.

عاد المحلّ يزدهر. وقال لي أحمد الشايب إن الشابّين عرضا على سهى أن تعمل فيه. وفي وسعها أن تبقى للظهر، وتعود مع باصات النقل التي تعمل بين المنارة والسويداء. وقد قبلت ذلك برضاً، ودون أن يقترح عليها أيٌّ منهما تغيير زيّ الحداد، خلعته، وقالت لهما حين دخلت إلى المحل في أول يوم: «لو شافني خالد كان رح ينبسط». كانا متأكدين من ذلك. كانت ترتدي قميصاً أبيض، وبنطلوناً من الجينز، وحذاءً بلا كعب. وقد شدّت شعرها كله إلى الخلف، وعقدت كعكة في الأعلى منه. ومنذ اليوم الأول بدت مثل محترفة. وصار في وسع عابد أو حامد أن يتحرّكا خارج المحل بيسر، بعيداً عن ثقل مهام العمل.

في نهاية الربيع استدعوا حامد لخدمة الاحتياط. بلّغ أمّه شرطيٌّ شابّ، وأخذ توقيعها على عجل ومضى. وحين جاءا في المساء، قرأا التبليغ وهما مذهولان. وقال نائل الجوف إن صدمتهما كانت تعادل حجم نسيانهما لهذا الخطر. لقد نسياه في فترة العمل مع سهى، والشغل على ازدهار المحل. وفي تلك الأيام واظب أحمد الشايب على زيارتهما في البيت، ولاحظ أن المال كان وافراً بين يديهما، وصار في وسع حليمة أن تجدّد فرش البيت، ووجوه اللحف والوسائد، وأن تستبدل الطناجر والصحون. وبدا هنا كأن الحرب لا تعنيهم أيضاً.

لكن حامد كان قد قرر ألّا يلتحق بالخدمة. لن يذهب إلى الموت، كما قال لأحمد الشايب، ولن يدافع عن أحد. ولن يشارك في حرب سيؤبّنه النبريش إذا ما قُتل فيها، مثلما يؤبّن قتلى المعارك من شباب المنارة. وقال لي نائل الجوف إن وعي الشابين اتخذ وجهة العداء للنبريش، دون

أن يمسك عصا المقاتلين في الطرف الآخر. ولهذا بدا رفض الالتحاق بالاحتياط خالياً من أيّ مغزى سياسي. مجرّد تمرّدٍ على الموت المجاني الذي لا تبدو وراءه أيّ آمال، إذا كان النبريش، وزيتون هما اللذان سيعلنان الانتصار.

مرّ عابد على مخفر السماقيات صباح اليوم التالي، والتقى بالشرطي الذي بلّغ حليمة، وأعطاه ثلاثة آلاف ليرة، كي يكتم التبليغ عن الناس فقط. «أنت تعرف عدد الوشاة والمخبرين». لكن الشرطي الذي كان يوزع التبليغات في المنارة، كان قد مرّ على خمارة محمود جرّار بالأمس، وشرب زجاجة بيبسي صغيرة على حساب المحل، وثرثر عن أسماء الشبان المطلوبين.

هذا كله كبّل حركة حامد في الشهور التالية، إذ كان عليه أن يمرّ بعدد من الحواجز التي كان الجنود فيها يُغِيرون على سيارات نقل الركاب والدراجات العابرة أحياناً، للبحث عن المتخلّفين عن الخدمة العسكرية. وقال أحمد الشايب إن تلك الفترة شهدت لأول مرة كيف تسلّل حذر وخوف دائمان إلى حياة عابد وحامد، لأن غارات الجنود لم تكن دورية، ولم تقتصر على حاجز واحد دون غيره. وراحا يجرّبان أن يذهب عابد وحيداً كي يعرف أيّ الحواجز يواظب على ملاحقة أسماء الفارّين، دون أن يصل إلى نتيجة. فالجنود الذين فتشوا الركاب في الذهاب، كانوا يشربون الشاي في الإياب. صار حامد يظل في البيت بضعة أيام، بينما يذهب عابد على الدراجة. وكان وجود سهى يمنحهما الطمأنينة على المحل، غير أن البيت صار يبدو سجناً. وسرعان ما بدأت الخصومات بينه وبين حليمة. قال أحمد إنه لا يعرف السبب، ولكن صوتيهما بدأا يعلوان ويخرجان من جدران الغرف إلى باحة البيت. راحا يتبادلان الشتائم علناً، على مسمع المارة في الشارع التحتاني الذي يشرف عليه البيت، في الصباح بعد

خروج عابد، أو عند الظهر، ثم يعمّ صمتٌ شاملٌ الدار كلَّها بعد عودته. لم يعد حامد يظهر في البلدة أيضاً. وراحت تنتشر شائعات تقول إنه غادر المنارة. غير أن صوته لا يلبث أن يلعلع في دار حليمة، فيما تسمع أصوات تكسير الأواني، أو رمي الطناجر والصحون إلى حوش البيت. ولكن عابد لم يتدخل، وقال أحمد، إنه كان يعلم أن تلك هي اعتراضات حامد على الموت. على الموت؟ قال إن حامد كان يتحدث عن التجنيد في الجيش على أنه موت من كل الجوانب: عطالته، وحرمانه من التنفس في الحياة التي عادت للتفتّح، وتجربة الحياة في المعسكرات، واحتمال مقتله. لهذا كان عابد يتجاهل ما يحدث، ويسأل حليمة عن الأشياء التي كسرت، كي يحضرها في اليوم التالي من المدينة. ويحكي مع حامد عن الشغل، أو يخرجان معاً للجلوس في خمارة محمود، أو المشي حتى الجسر الغربي، والعودة. وفي كل الأحوال ما عادا يذهبان إلى صخرات العسل.

وقال نائل الجوف إن الذي بدأ يتغيّر هو عابد وليس حامد. فالهياج، وتحطيم الأشياء، كان يساعده في الحقيقة على تجاوز الخوف من الاعتقال، أو السوق الإجباري إلى الحرب. لكن الصمت كان يحقن كآبة عميقة في روح عابد، ويتركها عليلة متعبة طولَ الوقت. ولم يفلح نعيمة في إصلاح أيّ عطب، من تلك الحروق التي بدأت تنتشر في أعطافه. وبدل أن يحفظ الكلمات على غرار إسماعيل جرّار، كما فكر، بدأ يغفو، ما إن يمسك الكتاب ويقرأ. لا تنفعه وصلات الرياضة الخفيفة، أو غسل الوجه، أو شرب القهوة. وسرعان ما ظهر إسماعيل في حلمه، وطلب ماء، ثم رحل، دون أن يقول له شيئاً. وقال أحمد الشايب إن تلك كانت من المرات القليلة التي يعلن فيها عابد مشاعره أمامه. لقد شعر بالخجل من إسماعيل الميت، ولم يعد يقرأ في الليل خوفاً من أن تسبّب القراءة النعاس.

«وماذا عن أمه وأخته؟» سألت نائل الجوف. فقال لي إن عابد كان

يقتسم الحصة التي تأتيه من الشراكة، بينه وبينهما. يأخذ الثلث لنفسه، ويعطي المرأتين الثلثين. وبفضل الزيادة في أرباح المحل، تمكنت المرأتان من مواجهة جائحة الغلاء التي صاحبت الحرب. كان هذا يشعره برضاً ناعم، أنيس، مطمئن إلى أنه لا يتركهما ذليلتين في المواجهة مع الحاجة أو الفقر. كنت أريد أن أسأل عن علاقته بهما، غير أن نائل قال لي إن عابد لم يعد قادراً على التواصل معهما. كانت القطيعة التي تتراكم بمرور الأيام، تكدّس جفاء وفتوراً ناجمين عن الفراق الطويل بينه وبينهما. لم يعد لديه ما يقوله لهما. لا أسرار الشاب ولا مشاريعه ولا أحلامه ولا تفاصيل يومه. لكن أخته، قال لي نائل، التي ما عاد يهمّها سوى العبادات والقراءة في كتاب الحكمة، ربما كانت السبب، دون أن تقصد، في إعادة نوع من الارتباط بينه وبينهما. إذ إن طول زمن التعبد، والالتزام بالتعاليم العميقة لكتبها، جعلاها بلا رغبات في أي شيء من حطام الدنيا، كما كانت تسمّي حاجات البشر الأرضية. ولهذا فقد استولت على المال الذي كان عابد يقدّمه، وتركت الحياة تمشي كما كانت من قبل.

في تلك الأيام اقتحم عابد البيت غاضباً. كانت حليمة هي التي همست بذلك في أذنه، حين وصلتها التفاصيل الأولى التي تتحدث عن تقتير البنت، وبخلها. سوف تبكي منار حين يواجهها بالتهمة، وتقول وهي ترجوه ألا يغضب: «هذه عادة ورثناها من أيام الفقر يا حبيبي. مش بخل والله!».

كانت تلك المفردات مفهومة كثيراً لدى عابد. فباستثناء السنتين الأخيرتين اللتين شهدتا عمله في التجارة، فإن العمر كله مضى في ما تسمّيه منار: «أيّام الفقر». عانق الأخت الصغرى بحبّ، وأمسك يدها، وخرج بها إلى الشمس، وقال وهو يشير إلى العالم من حوله: «بعرف إنك بتحبّي الله. حِبّيه قدْ ما بدّكْ. بس لازم تعرفي أنو هوّي يلّي خلق كلّ ها الدنيا منشانّا». وحين أخبر حليمة، قالت: «يلعن أبو الفقر!». وكانت تعرف

غير ذلك، وهو أن من الصعب على بشر المنارة الذين امتصّت سنوات الفقر أشواقهم، أن يخرجوا إلى شمس عابد، أصحّاء من جديد، متحرّرين من عاداته. أما الحل البسيط الممكن للمواجهة مع ذلك، فهو أن يأخذ لهما المؤن بنفسه.

في اليوم التالي كان يضع وراءه على مقعد الدراجة، في طريق العودة، صندوقاً من الكرتون، ملأه بلائحة من الأشياء التي سمّتها له حليمة. صعد به تلة القواسم، وحمله إلى الداخل، وقال لأمه وأخته المذهولتين، وهما تريان أكياس السكر والرز والطحين وعلب الحمص والفول والسردين: «هذول من عند أمي حليمة».

وفي البيت تكفّلت الأيام في تبريد مخاوف حامد، وأخذ يعتاد على الطمأنينة. إذ لم تأتِ الشرطة العسكرية، أو المخابرات، لأخذه مرغماً إلى الجيش، كما كان يتخوّف. ولم يعد في الطريق بين المنارة والسويداء، غير حاجز يتيم واحد، لا يتدخل في شؤون الحياة اليومية للمسافرين بينهما. ويبدو أن أحمد الشايب هو الذي نقل إلى حامد تفاصيل الأمان يوماً بعد آخر. وبعد شهرين من الحبس، فوجئ به عابد مرتدياً ثيابه، يجلس على حجر كبير قرب البوابة صباحاً، ويدخن. قال له: « نوّرت يا بو فارس!».

عاد الاثنان إلى برنامج حياتهما اليومي، ثم استرجعا التقاليد المعتادة من قبل: السهر ولعب الورق وشرب البيرة والعرق. وصارا يصحبان أحمد الشايب إلى الصخرات عند المساء حين يكون في وسعه ترك أعماله. كان الصيف يقترب، فيتسع النهار في المنارة، تاركاً لهما ساعات التخلص من أعباء الشغل. وفي السويداء أخذا يتحرران من قيود المحل، فيخرجان برفقة سهى للغداء في مطعم قريب يقدّم المأكولات الشامية، قبل أن يأتي موعد السيارة التي تقلّ الموظفين ظهراً في رحلة العودة إلى المنارة. لم

تتكرر رفقة سهى لهما. وفيما كانا يأملان أن يستعيدا بطريقة ما رفقة شبيهة برفقة هيفاء، وجدت هي أنها لا تستطيع الولوج إلى ذلك العالم الكتيم الذي كانا قد صنعاه من حولهما دون أن يقصدا. هذا رأي أحمد الشايب بالطبع. وقد أقسم لي أن موت خالد أو غيابه، كما كانا يرغبان في القول عنه، قد جعلهما أكثر انغلاقاً. لم يعد أيٌّ منهما يقدّم له تلك الأسرار القابلة للخروج من تحت الفراش. وبدا كأن الأشياء والزمن من حولهما يصغران، ويضيقان، على وجودهما الثنائي وحده. وفي أحد الأعراس، حاول بضعة شبّان سكارى من مسلّحي زيتون التحرش بهما، في أثناء إحدى الدبكات، ورآهما أحمد الشايب يتسلّلان من ساحة العرس كله. وقال له عابد في المساء التالي: «كانوا ع بغنّوا للشرّ! لكن نحنا بعَّدنا».

ومع ذلك لم يكن في وسع أحد أن يتّهمهما بالجبن مثلاً. لا. لا تستطيع المنارة أن تقول ذلك. ولم تكن الأسلحة التي يحملها أيُّ شاب من متطوعي زيتون أو النبريش قادرة على منحه شيئاً. ففي الأيام التالية لسهرة العرس، كان كل واحد من أولئك الذين تحرشوا بهما، وهو في حالة سكر، يهرب في لحظة الصحو من الطرق التي يمرّان فيها. قال أحمد الشايب: «راحت السكرة وإجت الفكرة». والفكرة هي أن كل شاب، من بينهم، سوف يضطر إلى أن يسير وحيداً، في بعض الأوقات، بينما لم يُرَ أيٌّ منهما إلا برفقة الآخر، في كل وقت.

أما حامد وعابد فقد أنابا الرعب بدلاً منهما بجدارة. تركاه يفتك بأولئك الزعران دون أن يتدخلا. ولم يتعرّضا لأي واحد من بينهم. كان هذا كافياً لهما، حين لاحظا أثر الصمت، والقوة الخفية، المرعب، في وجه كلّ واحد التقوا به من بينهم.

ولكن الموقف كله زاد في عزلتهما وفي نفورهما من الاجتماع بأولئك الذين لهم طبع الضباع - هذه التسمية ابتكرها عابد في إحدى أغنياته:

«نمشي على طبع الورد/ ما نهاب من طبع الضباع» - الذي وسم معظم الشبان الذين تطوّعوا في المليشيات.

وطول الوقت ظل أولئك الذين التقى بهم عابد في حوران أو دمشق وأطرافها، يُمرِّرون له في كل بضعة أيام، نتفة خبر يجعله مستفزّاً ومستعداً للرحيل إلى أي مكان للبحث عن جسد محسن. غير أنه لم يتحرك من المنارة. صار أقل حماسة. لم يستجب لأي نداء سوى مرة واحدة، سافر فيها إلى دمشق وعاد سريعاً، ولم يقل أي كلمة لأحد. قال أحمد الشايب إن عابد بدا حين عاد شاحباً، مذعوراً. وحين التقى بحامد عانقه، وقال تلك العبارة التي صارت تتكرر بينهما: «خفت عليك!». وفي اليوم التالي شرح لأحمد الشايب أن حساباته تغيّرت، وأن بقاءه قرب حامد أهمّ بكثير. وقد صار يرى أن الأحياء لهم قدسية الحضور أكثر من الموتى. وقد اعتبر نفسه مسؤولاً عن رفيقه المهدَّد، وقيِّماً على وجوده الحي، وحاجزاً بين بقائه، أو التحاقه بقوات الاحتياط. وعلى الرغم من أنه لا يحمل سلاحاً، فقد كان مستعدّاً للعبور به إلى أي مكان يمكن أن ينجيه من الموت.

وقال أحمد الشايب إن المشكلة كانت هناك بالضبط. أي في وجود الجبن، لا في غياب الشجاعة. فالخوف الذي ظهر لدى أولئك الشبان انطوى على وعيد وضيع بالانتقام من عابد وحامد، بينما كان التسامح الذي أظهره كلاهما تجاه الاستفزاز بريئاً وخالياً من أي تهديد، أو من أيّ ريب. وقال أحمد إنهما كانا صادقين في ذلك، ولم يراجعا موقفهما مرة واحدة، ولم يقل أي منهما للآخر كلمة عن الحادثة، وتابعا حياتهما الاعتيادية، ونسياها... وحين رأيا ذلك الحاجز الطيار المنصوب قرب تل الهوى، لم يخطر في بالهما أي خاطر. قال أحمد إن حليمة هي التي قالت في ما بعد: «إذا حلّ القدر عمي البصر». والحقيقة هي أن البصيرة هي التي عميت لدى عابد وحامد.

وهكذا لم يخطر ببال عابد أيّ خاطر حين نهض مساء بعد العشاء في المنزل، كي يفتح الباب، قبل أن يرى تلك البندقية التي وُضعت في صدره. سمع خرطشة بواريد أخرى. قال: «لازم تقدروا تفوتوا من الباب بالأول». كانوا يعرفون أنه قادر على صدّهم جميعاً، ليس بسبب قامته الضخمة التي كانت تسدّ الباب والممر إلى الداخل، وحسب، بل بفضل عزيمة الرغبة في الدفاع عن صديقه. فأطلق مسلحٌ من العتمة رصاصة من بندقية صيد آلية نحوه. لم يكونوا قد خطّطوا لمثل هذه المواجهة، وليس في نية أحد من المداهمة التي ضمّت أفراداً من ميليشيا النبريش، وزيتون أبو طرّة، قتلَ عابد، بل القبض على حامد وسوقه إلى الجيش. وقال أحمد الشايب إن الفتى الذي أطلق الرصاصة كان في العشرين من عمره، وإنه كان مذعوراً من فكرة الشجار الجسدي مع ذلك المارد الغاضب الذي يهدّد عالمه. وقال نائل الجوف إنه التقى ذلك الفتى الذي فرّ من المنارة، ولجأ إلى أخواله في قرية (س)، حين عُقدت راية الصلح بين آل الجوف، وآل الطيار، بعد موت عابد، فقال له إنه رأى كيف اخترقت عينا عابد الظلام، وهدّدتا كيانه كله. «حسّيت إنّو عظامي رح تتكسّر. وضغطت على زناد البندقية المذخّرة من دون وعي».

أصابت الطلقة كتف عابد. وبسبب القرب، دفعته إلى الوراء، وانزلقت قدمه حين تراجع على أرض الممرّ الناعمة، ووقع. ومن هناك عبر المسلحون الباقون. لم يُبدِ حامد مقاومة. كان قد صار قرب عابد. وحين رأى دمه، وضع يديه مفتوحتين بجانب جسده. وقال: «مالي غير طلب واحد. خذوا عابد ع المشفى!». كان الملحق بهذا الطلب معروفاً لديهم جميعاً، وهو أنه قادر على قتل أكثر من واحد بين القوة المقتحمة، قبل أن يستطيعوا أخذه.

ظل عابد خمسة أيام في المشفى الحكومي مقيّداً إلى السرير. لم يعد

لديه أحد، وقال أحمد الشايب إن مشاعر الندم كانت تنخر كيانه، حين يفكر في أنه لم يحسن الدفاع عن حامد. ونزفت ذراعه أكثر من مرة، حين كان ينازع في أحلامه قوى هوجاء شيطانية أخذت حامد من يديه. وبسبب القيود التي كُبِّل بها، كانت صرخاته الهادرة، وقرقعة اصطدام جسده بالسرير تُسمع في البهو المعتم الذي تشرف عليه غرف المرضى، في أثناء الليل. لم يجرؤ أحد على التدخل، وظل الشرطي الذي يحرس الباب، جالساً على كرسيه، لا يتحرك خلال ساعات نوبته. وفي اليوم الخامس أُفرج عنه دون أن يحوَّل إلى القضاء، بعد أن أسقط النبريش عنه تهمة مقاومة القانون. كان النبريش قد اتصل بالشرطة من اليوم الأول، وطلب ألّا يُكتب أي ضبط بالواقعة، لكن دون أن تنزع القيود عن يد عابد. «شويّة تربية». قال لمدير الناحية في السماقيات.

خرج عند الضحى، ومشى إلى المحل، حين وجد أن جيبه كانت فارغة من المال. وهناك ظل حتى الظهر، إلى جانب سهى، يساعدها في البيع. ثم غادرا معاً. وطولَ الطريق في الباص الكبير لم يرفع رأسه. ظل متكئاً على حافة المقعد أمامه، متصنّعاً النوم، فيما حلّ صمت خامل كسول في الحافلة كلها.

وفي البيت ظل صامتاً أمام حليمة التي انخرطت في نحيب طويل سحق كيانه كله. وصار يمضي معظم وقته خارج البيت بعد ذلك. يحكي لأحمد كيف سينقذ حامد. قال أحمد إن سلسلة الأحلام لم تعد تنفد، بينما كان نائل يقول إنها في الحقيقة خطط لا أحلام، وإن ما كان يصل إلى أحمد الشايب مجرد نتف ممزقة من افتراضات بات عابد يغذّي بها تلك الجلسات البائسة التي كانا يمضيانها في الخمارة، أو في ظلال صخرات العسل.

لم يصرخ في سهل الزرازير هذه المرّة. ولهذا لم أجد صوته هناك، حين كنت أتفحص أصوات أبناء المنارة الباقية، برفقة أحمد لديّ مصادري. بل اكتفى بالذهاب كل بضعة أيام، والاستماع إلى تلك السلسلة المشوقة الحبيبة إلى قلبه من أغنيات حامد الجميلة، التي يرافقها نشاز خالد. وكان يضحك، ويهز رأسه راضياً، ويردّد: «والله والله». وحين تختفي الأصوات، يقول لأحمد: «حاسِس كأنّو أصواتهن عم يخلصوا!».

ما لم ينتبه إليه هو أن توقيت موته كان قد انتهى في ذلك اليوم. وقال أحمد لديّ مصادري إن عابد نسي الأمر في السنتين الأخيرتين. وقد كان هو شخصياً يظن أن تلك النبوءة قد نشأت في كنف الفقر والضيق والحصار. فوجود النبريش الدائم في المنارة، وبزوغ رؤوس أخرى تشبهه، كانا كافيين لأن يعلك الناس أعمارهم كما لو كانت ألجمة يشدّها أو يرخيها وجود النبريش وزيتون. لكن النجاح الذي حققاه في العمل أطفأ سيرة الموت. وربما كان ولعهما بحليمة التي تبدّلت أيضاً في تلك الفترة، سبباً آخر في تجاوز تلك النبوءة المنحوسة. قال نائل الجوف إن المنارة كلّها شهدت حضور المرأة من جديد. وقد بدا كأنها عادت تتحدّاها من جديد: بتسريحة الشعر المتقلبة، وتزجيج الحواجب، وكحلة العينين، وطلاء الأظافر، وارتداء التنورة، فتظهر ساقاها اللتان لم يستطع التقدم في العمر أن ينال من جمالهما، بدلاً من موضة البنطلون التي سادت في المنطقة. وصارت تذهب إلى السويداء لشراء حاجات البيت، وتعود وحدها، أو تنتظر سهى في المحل خلف البسطة الزجاجية.

قال أحمد: ليس بيد أحد أن يفعل شيئاً تجاه السرّ الذي يجعل الربّ يلاحق هذه الأسرة دون الآخرين. فكل ما حدث بعد ذلك بدا كأنما كان الله يعاقب به أولئك البشر البسطاء على النسيان. وحين سألته ما إن كانت هذه الموعظة القبيحة من عنده، قال: لا. إنها لحليمة نفسها. وقد ظلّت

تردّد في ما تبقّى لها من العمر بعد رحيل أبنائها: «راحت الحزينة لتفرح وما لاقت مطرح». فبعد ثلاثة أشهر من رحيل حامد، عادوا به مقتولاً.

سمعا رشقات رصاص كثيفة في الحي الجنوبي، حيث منزل النبريش، أولاً. كانت تلك هي إشارة تلتها رشقات أخرى متفرقة في أطراف المنارة الغربية، ثم انخرطت البواريد في إطلاق احتفالي مجنون عمّ المنارة كلها. كان الوقت مساء، وكان عابد وحليمة يتناولان طعام الغداء. ولأن صوت الرصاص قد غدا معتاداً في البلدة أو في جوارها، فقد تابعا تناول الطعام بصمت، ودون أن يشغلهما اقتراب الصوت. إلى أن سمعا الرشقة الأخيرة على بوابة المنزل. عندئذٍ عرفا أنهم جاؤوا بخبر موته.

في العزاء الاحتفالي الذي أقيم في موقف المنارة، ألقى عابد كلمات في وداع حامد: «هذا المسجّى هنا كان أخي!». ثم مسح بيده على التابوت المغلق، من أوله إلى آخره. وعاد إلى مكانه. أما حين بدأ النبريش يلقي كلمته، فقد غادر الموقف، مخترقاً الحشد الذي تجمّع هناك. عمّ صمت مرعب ناجم عن الحركة التي عرف الجميع أنها تعترض على سلطة برهان العلمي. سكت برهان قليلاً، غصّ بالكلمات المكتوبة في ورقة الخطاب، وقد امتلأ قلبه بغلٍّ حاقد لم يستطع أن يعبّر عنه إلا في ما بعد، حين قال أمام جمع من رجاله: «رح يجيه يوم!». قال أحمد لديّ مصادري إنه استطاع نقل العبارة إلى عابد، فراح يهزّ رأسه، ويبتسم ابتسامة شامتة، وقال: «مش رح يفرح فيه أبداً».

ومنذ تلك اللحظة بدأ يعدّ للرحيل. بدأ يعدّ ليومه هو. للموعد الذي قرره بنفسه. وقال لأحمد إنه سيغلب النبريش في المرة القادمة. ولم يفهم أحمد شيئاً ممّا يقول، ولا عن أي مرة يتحدث. كان قد أخطأ في الحساب، وقد ظن أن ما تبقى من النبوءة، هو تلك الأيام الباقية من الشهر الأخير،

بينما كان الوقت قد انقضى في الحقيقة. ولا يعرف نائل الذي نقل تلك المعلومات متى حدث ذلك، ولماذا أخطأ عابد الحساب. وقد حاول أن يدّعي أنه ربما يكون قد بدّل رأيه في السنتين الأخيرتين، ثم قال لي: «لا تسجّل!». كان نائل يرى أنها لم تكن نبوءة، بل فرار النفوس الطيبة النقية من هذا العالم المضرّج بالخسّة والنذالة، عالم الحروب الدنيئة، عالم برهان العلمي وزيتون أبو طرّة اللذين أطلقا الرصاص ابتهاجاً بموته.

وقبل ذلك كان عابد قد واظب على الذهاب إلى الصخرات وحيداً. لم يعد يقبل أن يرافقه أحمد الشايب، الذي قال لي إنه لا يعرف شيئاً عن النبوءة، ولم يسمع بها قطّ، ولم يكن في وسعه أن يمنعها فيما لو كان يعرف. ولم يستطع أن يعلم ما الذي كان يفعله هناك، أو يقوله لصديقيه الراحلين. ولم تكن حليمة التي عادت تنزوي في بيتها، تعرف بها، وربما تكون قد أهملت وجود عابد، في أيامه الأخيرة، أو أنها تركته يحزن كما يشاء. صار يمضي إلى العمل في المدينة بلا روح، وقد بدا له أن تكرار الحزن بات مملّاً، وزائداً عن حاجات الحياة التي يعيشها. وكان في كل حركة أو كلمة أو مسافة من الطريق التي يمضي فيها، يرى حامد مرة، وخالد مرة ثانية، أو يراهما معاً. وبعكس ما يشاع هنا من أن الموت من بين كل الكوارث يبدأ كبيراً ثم يصغر، ويتلاشى بمرور الأيام، استمر يكبر ويكبر وهو يرافقه في كل خطوة. وباءت محاولته الوحيدة للكلام مع حليمة بفشل مدمّر حين خاطبها: «ياما». خرجت الكلمة مجرّحة وخالية من الحب، فراح ينطح الجدار برأسه الكبيرة، ويقول: «سامحيني، مش قادر أعمل أيّ شي!».

وقال أحمد الشايب إن عابد فكّر أكثر من مرة في الانتقام من النبريش، أو من زيتون، وقال له إنهما هما اللذان قتلا صديقيه، ولا يهمّه ما إن كانا ينفّذان أوامر غيرهما أم لا. لكنه لم يقترب منهما. لأنه لا يستطيع أن يفعل

شيئاً إزاء أيّ واحد من هؤلاء الذين يقتتلون، لا هنا ولا هناك ولا في أي مكان. كان عليه أن يقتل الحرب ذاتها. والأهم من هذا كله هو أنه لن يستطيع استعادة خالد وحامد، حتى لو أخمد حروب العالم كله. «اشتقتلّن يا أحمد!». كان يقول له كلّما التقى به. وبدا أنه بدأ يفقد صحته. والمؤكد أنه لم يعد يأكل جيداً. وقال أحمد إنه واصل زيارة الصخرات بلا توقف، طول ذلك الشهر الذي بقي من عمره. وزار أمه وأخته مرتين، وأوصى سهى بهما. وحين عاد من الحي عبر الطريق الأفعى، خيِّل إليه أنه يسمع خشخشة يدين خلف بوابة آل الخرّوب. عرف أنها هند، فابتسم لها، وهو يعلم أنها تراه من شقوق الباب الخشبي. قال أحمد إن عابد أرسله إلى آل الخرّوب كي يقول لهم: «صارت هند حرّة». ويبدو أن والدها فهم الرسالة جيداً. لا يعرف أحمد ما الطرق التي تنجز الحياة فيها بعض التفاهمات. لأن والد هند قال له: «قل له: الله يرحمنا ويرحمه!».

بعد يومين اختفى عابد. كان قد مضى إلى الصخرات وأودع روحه هناك، قريباً من صديقيه. وقال أحمد الشايب، إن المنارة كلها سمعت ذلك العزف الغريب على الناي من وراء صخرات العسل، وأقسم لي هذه المرة، إنهم يسمعون، إذا ما أنصتوا جيداً، صوت ذلك الناي قادماً من إحدى جهات الصخرات. كان يقول شيئاً ما عن خالد وحامد اللذين التهمتهما الحرب البعيدة، وفي إحدى الليالي سمع هو نفسه صوت عابد يعيد تكرار أغنيته المحبّبة: «يا حيف ما ردّت عليّ العصافير!». قال أحمد إنه لم يجرؤ على إخبار حليمة بنبأ العثور على جثمان عابد هناك. فأرسل إليها شابّاً من آل الشايب. ثم جاء وراءه.

انتحبت وهي تغطّي عينيها بمحرمة قماش انتزعتها من قميص لحامد. ظلّت تنتحب حتى نشف الدمع. وحين جاءت سهى في المساء، برفقة أحمد الشايب، رأتها تحمل صورة الشبان الثلاثة، وهم يقفون قرب

الصخرات. التفتت نحوها بعينين دامعتين، وقالت: «شفتِ؟ راح لعندن... بتعرفي ليش؟ والله أني مش عارفة، بقدر قول أيّ شي. بس لا. أحسن ما قول شي. لأنه ما في حدا بالكون رح يعرف ليش غيرهم». ومن وراء غلالة دموع حبيسة غمغمت كأنما تحدث نفسها: «يلي مطمّني إنهم... صاروا مع بعض!».

الأربعاء 2017/11/1

ممدوح عزّام:

روائي سوري، من مواليد عام 1950. ترجمت رواياته إلى اللغة الألمانية واللغة الإنكليزية.

أصدر الكتب التالية:

- نحو الماء، مجموعة قصصية، 1985.
- معراج الموت، رواية، 1987. حوّلت إلى فيلم سينمائي بعنوان «اللجاة»، من إخراج رياض شيّا، وإنتاج المؤسسة العامة للسينما 1993.
- قصر المطر، رواية، 1998.
- جهات الجنوب، رواية، 2000.
- الشراع، مجموعة قصصية، 2000.
- أرض الكلام، رواية، 2005.
- نساء الخيال، رواية، 2011.
- أرواح صخرات العسل، رواية، 2018.



ومنذ ذلك اليوم صار في وسعهم أن يتباهوا أنهم يدرسون في الإعدادية بسبب الحب، لا بسبب الطموح إلى أيّ غاية.

وفي ذلك اليوم ذهبوا إلى سهل الزرازير، وصرخوا هاتفين: «عاش الحبّ!». وتركوا أصواتهم هناك، آملين أن تبقى إلى آخر أعمارهم.

وسيقول أحمد الشايب، في ما بعد، إن السهل كان قد أضحى مستودعاً لأحلام أهل المنارة وأمنياتهم وطلباتهم ومعارفهم وذكرياتهم، منذ أن اكتشف قاسم الفضل أنه يستطيع أن يخزّن فيه صوته. وأن الأصوات تبقى هناك، لا يستطيع أحد أن يزيلها، إلا صاحبها. وقد بقي ذلك الهتاف الثلاثي محبوساً هناك في السهل، دون أن يعرف أحد متى يمكن أن يُفكّ قيده.

سرد
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
ISBN 978-9933-540-42-5
9 789933 540425